

العدد العشرون
1995

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

«تصدر مرّة كل سنة»

الواردة في المقالات عن آراء أصحابها


مجلة
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
الرباط



كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرباط

العدد العشرون
1995



المحتويات

○ بحوث أساسية :

○ بحوث مترجمة :

○ **دراسات وعروض بيبليوغرافية :**

بُحُوثٌ أَسَاسِيَّة

في الجذور التاريخية للهندسة اللاأوقليدية(*)

بناصر البُعزّاتي
كلية الآداب ـ الرباط

ملاحظات أولية

من الصعب إعادة بناء مضبوطة تماما لتكوّن المفاهيم في الهندسة في الفترات التاريخية القديمة، وذلك بسبب فقدان مؤلفات كثيرة، بالإضافة إلى تعدد النسخ المتداولة لمؤلف «**الأصول**»(1) (المبادئ، العناصر) للعالم أقليدس الإسكندراني(2). وتختلف النسخ فيما بينها بدرجة مهمة، بحيث يختلف عدد الأوليات (البديهيات) والمُسلّمات (المصادرات) من نسخة لأخرى. ربما كان هذا الاختلاف غير مهم جدا انطلاقا من نظرة منطقية شبه ـ صورية، تهتم بالعلاقات السكونية بين مكونات البناء الهندسي؛ لكن الاختلاف يتخذ أهمية بارزة من الزاويتين الإبستمولوجية والتاريخية، اللتين تعطيان أهمية لتكوّن هذه المكوّنات وتغيرها على أثر التداول وإعادة السبك؛ إذ أن سيرورتي التكوّن والتطور في العلوم الرياضية ترتبطان بتغير الأفكار في الميادين النظرية المختلفة.

(*) أصل هذا المقال عرض ألقي في كلية علوم التربية بدعوة من الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة، فرع الرباط، بتاريخ 27-10-1995.

(1) سنستعمل الترجمة الفرنسية الحرة لكتاب «**الأصول**» والتي أنجزها جورج ج. كاياس (Georges G. Kayas)، انطلاقاً من النص الإغريقي كما أعاد بناءه ج.ل. هيبرك (Georges L. Heberg) ؛ ويعتبر جلّ الدارسين هذا النص أقرب النسخ إلى الأصل الأقليدي المفترض. وسنركز على الكتاب الأول من المؤلف، والذي يشتمل على ثلاثة وعشرين (23) تعريفا، وخمس (5) مسلمات وخمس أوليات (في الكتاب عشر (10) أوليات، خمس منها موضوعة بين قوسين لأنها ليست في الأصل) وثمانٍ وأربعين (48) قضية.

(2) Euclides (ca. 330- ca. 270). التواريخ تقريبية، خصوصا في حالة أقليدس الذي يشك بعض الدارسين في هويته ونشاطه وعلاقته بكتاب «**الأصول**». فربما كان هذا الإسم اسما مستعارا لمجموعة من العلماء ! أو كان مؤلَف «**الأصول**» مجرد جمع لكتب وجدت من قبل...

ويطرح الِاختلاف في عدد مكوّنات النسق مسألة غنى ذلك النسق أو فقره، ومدى تَمكّنه من الِانفتاح على الجدة، والقدرة على أن يصبح أداة منهجية لدراسة العالم الطبيعي. ثم إن الِاختلاف يقود إلى التساؤل حول السبل التي اتخذها البناء المنسق، أي حول طبيعة الترابط بين المكونات العضوية داخل النسق. بل إن مجرّد تغيير الصياغة اللغوية لتعريف ما أو أولية ما أو مسلّمة ما في قلب النسق يغير من تصور النسق المبدئي نفسه، قليلا أو كثيرا، نظرا لتماسك مكوّناته. ولنتأمل هذا المثال : يعرّف أرخميدس[3] الخط المستقيم بالعبارة : «المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين». ويضع أرخميدس هذه العبارة ضمن الأوليات وليس ضمن التعريفات، لأنه من الممتنع تصور مسافة بين نقطتين أقصر من التي يمثلها المستقيم. وهو تعبير يختلف عن تعريف أقليدس القائل : «المستقيم خط يكون الِامتداد بين أي نقطتين منه مساوياً للمسافة بين تلك النقطتين». وهو تعريف لا يخلو من غرابة، من حيث العبارة على الأقل. هل صعب عليه الإتيان بتعريف أدقّ ؟ ربما يبدو الِاختلاف في العبارة مسألة زخرفة أسلوبية خارجية فقط؛ لكن الأسلوب يساهم بالتأكيد في تشكّل المعنى وتوضيحه وتقييده، أو يكوّن دعامة للتأويلات المتضاربة. فالعبارة تشارك في بلورة المعنى، وليست تنميقا إضافيا خارجيا يقرر أن تضاف أو لا تضاف إلى معنى مكتمل معطى سلفا. ولابد أن تتأثر نتائج استدلال ما بمعاني العبارات الأولية، لأن نتائج الِاستدلال مشروطة بمضامين المقدمات.

وهذا مثال آخر، يتمثل في تعريف پوسيدونيوس[4] للتوازي، حيث إن «المستقيمين المتوازيين هما المستقيمان اللذان لا يلتقيان، وتظل المسافة بينهما ثابتة متساوية». بينما يوجد لدى أقليدس تعريف مغاير : «نسمي مستقيمين متوازيين المستقيمين الواقعين على نفس السطح واللذيْن، مع تمديدهما من الجهتين معا، لا يلتقيان على أية جهة منهما». ما الفارق بين التعريفين ؟ يركز تعريف أقليدس على عدم التقاطع، ولا يتحدث عن اتجاه المستقيمين عندما يمددان من الجهتين؛ فلا يقيّد المسافة بينهما أن تبقى هي هي، أي أنه لا يجعل تساوي المسافة وثباتها بين المستقيمين صفتين أساسيتين للتوازي. بينما يؤكد تعريف پوسيدونيوس على ثبات المسافة الفاصلة بين المتوازيين، أي أن تمديدهما لا يمكن أن يكون إلا في الِاتجاه نفسه

(3) Archimedes Syracusa (ca. 287-ca. 212).

(4) Poseidonios (ca. 139-ca. 49).

من الجهتين؛ فيمنع التعريفُ أن يبتعد المتوازيان الواحد عن الآخر؛ وهذا ما لا يلزم عن تعريف أقليدس. ونتائج هذا الإختلاف ليست بسيطة من الزاوية النسقية، وإن كان نسقُ أقليدس ينبني **عمليا** على اعتبار تعريف يوسيدونيوس **ضمنيا**.

هناك تعريف آخر يثير الإنتباه، هو تعريف أقليدس **للزاوية**؛ وهو تعريف لابد من أن يختلف عن روح تعريفيْ أرخميدس ويوسيدونيوس. فتعريف أقليدس يقول : «إن الزاوية المسطحة هي الميل المتبادل لخطين على السطح نفسه، حيث يلتقيان دون أن يكونا على الخط نفسه». يمكن ملاحظة أن هذا التعريف لا يقول إن الزاوية تحصل بعد التقاء خطين مستقيمين، بل يقول «خطين» فقط، أي أنه لا ينفي إمكانية كون أحد الخطين أو كليهما معاً غير مستقيمين، كأن يكون أحدهما منحنيا (دائريا) مثلا. وفعلا فإن التعريف التاسع من الكتاب الأول، الذي يأتي مباشرة بعد تعريف الزاوية، يخصص الزاوية التي يكون الخطان اللذان يشكلانها مستقيمين كما يلي : «عندما يكون الخطان اللذان يشكلان الزاوية مستقيمين، فإن الزاوية تسمى مستقيمة». والحديث عن زاوية مستقيمة يفترض إقرارا بوجود زوايا غير مستقيمة عندما يكون أحد الخطين اللذين يكوّنانها، أو كلاهما معا، غير مستقيمين.

إن تغيير بعض علماء الرياضيات الأولين (أرخميدس ويوسيدونيوس وغيرهما) صياغةَ بعض التعريفات والأوليات لا يخلو من دلالة. فقد لاحظوا تشابها بين بعض هذه المبادئ الأولى وبعض المبرهنات التي يشتمل عليها النسق؛ فقاموا بذلك توخيا لعبارة دقيقة تجعل الإستدلال صارما، وتوفر شرط التماسك الداخلي، وتمنع التأويلات المتضاربة؛ وهذه من خصائص العلم الرياضي، التي لا يجب التفريط فيها. لكن ذلك أيضاً مؤشر إلى أن هؤلاء العلماء قد وصلتهم أخبارُ المناقشات التي استمرت جيلا كاملا (وربما جيلين أو ثلاثة) والتي تمخضت عنها صياغة أقليدس؛ وربما أدركوا أن هذه الصياغة لم تكن إلا واحدة من الصياغات المتعددة الممكنة لتنظيم المبادئ والمبرهنات الهندسية المتداولة آنذاك. وفعلا فقد عرف القرن الرابع قبل الميلاد نقاشا حول مبادئ العلم «الصحيح» والشروط التي يجب أن يستجيب لها، لكي يتحرر من قبضة الآراء العامة التي يطوقها الحدس الحسي، ويتحرر من المفارقات التي تتهدد كل معرفة.

بيد أن التغيير نفسه قد تعددت صياغاته إلى درجة أنه ينتج على أثر كل تغيير نسقٌ جديد يختلف عن النسق الأصل، وإن كان الإختلاف لا يتعدى بعض

الحواشي في بعض الأحيان. لكن في حالات أخرى يصبح عدد المبرهنات أكبر من الذي لدى أقليدس. وفعلا فإن بعض المبرهنات (أو القضايا كما يرد في المؤلف) يمكن أن تفصّل إلى أكثر من واحدة، كما سنرى. ولهذا فإن موضوع الترابط المنطقي بين مكونات النسق الهندسي شكّل هاجسا لعلماء الرياضيات خلال أزيد من عشرين قرنا، كما كان موضوع المكونات ذاتها. وكان لابد من طرح أسئلة من قبيل : ما مكانة التعريفات في النسق؟ ما الفرق بين الأولية والمسلمة والمبرهنة؟ كيف تتألف الاستدلالات فيما بينها؟... ولذلك، كانت كل معالجة للنسق الهندسي تنتج نسقا جديدا آخر.

لكن المكوّن الذي استحوذ على العقول خلال فترة تاريخية طويلة هو ما عرف بالمسلمة الخامسة في نسق أقليدس الهندسي. وتقول هذه المسلمة : «إذا قطع مستقيمٌ مستقيمين آخرين جاعلا زاويتين داخليتين وعلى الجانب نفسه من المستقيم القاطع مجموعهما أقل من زاويتين قائمتين، فإن هذين المستقيمين، بفعل تمديدهما اللامحدود، يلتقيان على الجانب الذي توجد عليه الزاويتان اللتان مجموعهما أقل من زاويتين قائمتين»[5]. وقد بدت لأغلب الذين خاضوا في الرياضيات أنها أقرب إلى المبرهنة لما فيها من سمات تقربها منها؛ ولهذا بادروا إلى محاولة الاستدلال عليها، أي استنتاجها من المكونات الأخرى. إذ لو كانت فعلا مبرهنة، لَما وجب أن ترِد بين المبادئ الأولى، لأنها لن تكون من المنطلقات الأولية للاستدلال. وأشهر من اهتم بمسألة المتوازيات بجد، قبل العصور الحديثة، هم أرخميدس وبوسيدونيوس وجيمينوس وبطلميوس وأَكانيس وسمپليقيوس وثابت بن قرة والنيريزي والبيروني وابن الهيثم وعمر الخيام والجوهري والطوسي. وقد تطور التفكير في شأن المتوازيات تطورا بطيئا. ويمكن القول إن تاريخ المتوازيات يعبّر بصورة مختصرة عن تطور مستويات التجريد في الرياضيات؛ إذ أن تصور المتوازيات يتلازم مع تصور المكان الذي تُنشأ فيه المستقيمات والأشكال الهندسية الأخرى.

---

(5) Euclide, **Les éléments, I**, texte grec et trad. française libre par Georges G. Kayas, éd. du CNRS, Paris, 1978, p. 2 : «Si une sécante rencontre deux autres droites en faisant des angles internes et du même côté de la sécante ayant une somme inférieure à deux angles droits, ces deux droites prolongées indéfiniment se rencontrent du côté où se trouvent les angles dont la somme est inférieure à deux angles droits».

مكونات النسق

أول ما يلاحَظ في شأن البناء المعماري للنسق الهندسي أن أقليدس لم يستعمل المسلمة الخامسة في بناء النسق إلا ابتداء من المبرهنة 29 من الكتاب الأول، التي تقول : «إذا قطع مستقيم مستقيمين متوازيين، فإنه يحدد عليهما :

أ ــ زوايا داخلية ــ متبادلة متساوية؛

ب ــ زوايا متناسبة متساوية؛

ج ــ زوايا داخلية وعلى الجانب نفسه من المستقيم القاطع متتامة»[6]. فبالرغم من أن للمبرهنتين 27 و28 موضوع المسلمة الخامسة نفسه، فإن أقليدس لم يستند إلى هذه المسلمة في استنتاجهما. تقول المبرهنة 27 : «إذا قطع مستقيمٌ مستقيمين آخرين جاعلا زوايا داخلية ــ متبادلة متساوية، فالمستقيمان متوازيان»؛ وتقول المبرهنة 28 : «إذا قطع مستقيمٌ مستقيمين آخرين جاعلا إما زوايا متناسبة متساوية وإما زوايا داخلية وعلى الجانب نفسه متتامة، فالمستقيمان متوازيان»[7]. وكذلك لم يستعمل المسلمة الخامسة في استنتاج المبرهنة 31، القائلة : «من نقطة خارج مستقيم معين، يمكن أن يمرّ موازٍ لهذا المستقيم»[8]. فقد استعمل أقليدس المبرهنات 23 و29 و27 بالتتابع للاستدلال على هذه المبرهنة. وذلك يعني أنه استعمل المسلمة الخامسة بطريق غير مباشر، بما أنه استعملها في الحصول على المبرهنة 29. وربما صح القول إن «أقليدس حاول أن يستدل على أكبر عدد ممكن من المبرهنات دون استعمال المسلمة الخامسة»[9]. وينبئ ذلك بأنه أدرك بعض المشاكل التي ترتبط

(6) «Si une sécante rencontre deux parallèles, elle détermine sur elles :
a) Des angles alternes-internes égaux;
b) Des angles correspondants égaux;
c) Des angles intérieurs et du même côté de la sécante supplémentaires» (Euclide, p. 19).

(7) «Si une sécante rencontre deux autres droites en faisant des angles alternes- internes égaux, ces deux droites sont parallèles» ; «Si une sécante rencontre deux autres droites en faisant soit des angles correspondants égaux, soit des angles intérieurs et du même côté supplémentaires, ces droites sont parallèles» (Euclide, p. 18).

(8) «D'un point situé en dehors d'une droite donnée mener une parallèle à celle-ci.» (p. 20).

(9) Rosenfeld, B.A., **A History of Non-Euclidean Geometry**, tr. (from Russian) Abe Shenitzer, Springer-Verlag, 1988, p. 36.

بها؛ لذلك أجّل استعمالها إلى أقصى حدٍّ ممكن. ولا شك في أن هذه المسلمة قد طرحت عدة مشاكل منذ المعالجات التنسيقية الأولى في الهندسة قبل أقليدس.

ثم يلاحَظ أن المبرهنة 30 القائلة : «المستقيمات الموازية للمستقيم نفسه متوازية فيما بينها»[10] كان يمكن أن ترِد بعد المبرهنة 28 مباشرة، أي قبل المبرهنة 29 وليس بعدها؛ وقد وردت في تلك المرتبة، لأنها استعملت في الِاستدلال عليها المبرهنة 29. غير أنه كان يمكن الِاستدلال عليها باستعمال المبرهنتين 27 و28. بل إنه كان يمكن استنتاج المبرهنة 30 قبل المبرهنتين 27 و28، كتخصيص لأولية أشمل تصرح بصحة علاقة التعدي (أو التعدية)، التي كان من المفروض أن تكون من بين الأوليات. وكان على عبارة الأولية المفترض وجودها أن تكون بين الأوليات، كما يلي : إذا كانت بين ا و ب علاقة ما وكانت هذه العلاقة نفسها بين ب و ج، فإن العلاقة نفسها تكون بين ا و ج»؛ وتصبح بذلك الأولية الأقليدية الأولى : «المساويان لثالث متساويان فيما بينهما» مبرهنة، عبارة عن تخصيص لعلاقة التعدي، شأنها شأن المبرهنة 30. وتكون علاقات التوازي والتساوي وعلاقات أخرى تخصيصا للأولية الأشمل أعلاه، ويكون ذلك أفضل وأقرب إلى الروح التنسيقية الأقليدية. أوَلا يجب أن تكون الأولية أعم من المسلمة والمبرهنة؟ إذ أن من خصائص الأولية أنها أعم من المسلّمة؛ فإذا كانت المسلمة تخص ميدانا ضيقا كالهندسة مثلا، فإن الأولية تصح لأن تستعمل في الهندسة والحساب وعلوم أخرى؛ وقد كانت هذه من الأفكار الأساسية في نظرية العلم آنذاك. ربما كانت هذه الملاحظة غير مهمة، لكنها تمكّننا من الإقرار بأن تنظيم الأوليات والمسلمات والمبرهنات ليس مطلقا ولا ثابتا؛ إذ يمكن أن يطرأ عليه تغيير.

ـ لنلاحظ العلاقة بين المبرهنتين 27 و28.

أ ـ يمكن تقسيم المبرهنة 28 إلى مبرهنتين اثنتين، تقر الواحدة بتساوي الزوايا المتناسبة، وتقر الثانية بتتام الزوايا التي على الجانب نفسه من المستقيم القاطع. فيصبح مجموع المبرهنات إذاك 49 مبرهنة؛

ب ـ أو يمكن إضافة إقرار آخر إلى المبرهنة 28، يتعلق بتساوي الزوايا الداخلية المتبادلة (وهو مضمون المبرهنة السابقة، أي 27)، وبذلك يشطب على

(10) «Les parallèles à une même droite sont parallèles entre elles» (p. 20).

المبرهنة 27، فنكون إزاء مبرهنة واحدة تجمع بين المضامين التي تقررها المبرهنتان 27 و28. فيصبح مجموع المبرهنات 47.

ـ لنلاحظ مضمون المبرهنة 29. إذ يمكن أن تقسم إلى ثلاث مبرهنات واضحة... وبذلك يصبح عدد المبرهنات خمسين (50).

ـ لنلاحظ العلاقة بين المبرهنة 27 والمبرهنة 31. إن الواحدة تفترض الأخرى، وكأن بينهما تلازما منطقيا، حيث تلزم الواحدة عن الأخرى. وهذا ما حدا بمؤرخ الهندسة إمر توث إلى القول إنهما، بمعنى من المعاني، مبرهنة واحدة[11].

ـ نلاحظ أنه يمكن إضافة مبرهنة أخرى تقر بتساوي الزوايا الخارجية المتبادلة... **ولهذا نجد عدد المبرهنات يختلف من نسق لآخر**. وبما أن جل المبرهنات تفترض أخرى، فيمكن أن يُجعل عددها أقل أو أكثر من العدد الوارد في مؤلف «**الأصول**». وهذا ما بيّنه رشارد ج. ترودو، حيث أقرّ بوجود عدة مبرهنات مضمرة في النسق الأقليدي، لا تحتاج لأبسط خروج عن تصور أقليدس لصياغتها[12].

لنقارن بين المبرهنتين 27 و28 مجتمعتين من جهة، والمبرهنة 29 من جهة أخرى؛ ولنتذكر أن الأوليين مستنبطتان دون الإستناد إلى المسلمة الخامسة، بينما استند أقليدس إلى المسلمة الخامسة في استنباط الأخيرة.

نلاحظ أن ما تقوله المبرهنتان 27 و28 مجتمعتين هو المضمون الذي تقوله المبرهنة 29؛ على أن المقدمة هنا نتيجة هناك، والنتيجة هنا مقدمة هناك. معنى هذا أنه كان يمكن إيراد المبرهنتين 27 و28 بعد المبرهنة 31 واستنتاجهما من المبرهنات 29 و30 و31. (لكن استنتاجهما من المبرهنة 29 وحدها من الصعب بمكان، بالرغم من أن الطرفين يقران بالمضامين نفسها). وبذلك تكونان مستنبطتين من المسلمة الخامسة، **بكيفية غير مباشرة**؛ خصوصا وأن طريقة الإستدلال الأساسية كانت هي البرهان غير المباشر، أي البرهان بالخُلف. ولهذا نجد أن **مكونات النسق يمكن أن تنظّم بطرق مختلفة**.

(11) Imre Toth, «Das Parallelenproblem im Corpus Aristotelicum», **Archive for History of Exact Sciences**, vol. 3, 1966-67, (pp. 249-422), p. 286.

(12) R.J. Trudeau, **The Non-Euclidean Revolution**, Birkhäuser, Boston, 1987.

وقد انتبه الرياضيون منذ أمد بعيد لبعض مظاهر الِاختلاف في التنسيق عن طريق تنظيم مختلف لعناصر النسق. فهذا ابن الهيثم (965–1039) يناقش الرأي القائل بتقديم المبرهنة التاسعة والعشرين على المبرهنتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين؛ حيث كتب : «وهذا الشكل [أي السابع والعشرون] شكل علمي وليس يعترض فيه شك سوى أن يقال إن أقليدس قدم هذا الشكل والشكل الذي بعده على الشكل التاسع والعشرين وجعل الشكل التاسع والعشرين عكسا لهذين الشكلين بتأخيره عنهما»[13]. فذلك يعني أن العلماء كانوا منهمكين على تحليل مضامين المبرهنات وترابطها، عن طريق التقديم والتأخير والتساؤل عن اتجاه اللزوم بين المبرهنات : مثلا، هل تلزم المبرهنة 27 عن المبرهنة 29 أو العكس؟

إذن، هل نحن أمام نسق واحد أو أنساق كثيرة؟ بطبيعة الحال، هذه أنساق كثيرة ومختلفة فيما بينها، من حيث عدد المبرهنات على الأقل. وهناك بعض الِاختلافات في جزئيات لا تخلو من أهمية؛ كأن يرى البعض أن تسبق مبرهنة معينة مبرهنة أخرى. ومسألة أن تسبق مبرهنةٌ مبرهنةً أخرى ليست جزافية، إذا نُظر إلى النسق بصفته كلاً متماسك العناصر يتأسس على مبادئ أولى؛ لأن ذلك يؤدي لا محالة إلى التساؤل عن أي المكونات يمكن أن تكون مبادئ. والتفكير في المبادئ يرتبط بتصور مجال القول الذي من خلاله يكتسب النسق شرعيته العلمية. فالنسق الهندسي الذي يأخذ بتعريف پوسيدونيوس للتوازي يضيق من إمكانيات الانفتاح، لأن المتوازيين عنده لا يتعدان الواحد عن الآخر، بينما يمكن أن يتعد المتوازيان لدى أقليدس، وإن كانت المسألة عنده غير صريحة. إذ أن تعريف أقليدس يترك هامشا من حرية الحدس لتصور المتوازيات بشكل غير ممتنع، وذلك بخلاف تعريف پوسيدونيوس الذي يقيد تصور المتوازيات في ثبات المسافة بين المستقيمين المتوازيين. والمبرهنة 31 لدى أقليدس تقول إنه يمكن أن يمر من نقطة خارج مستقيم معين مستقيم موازي، ولا تقول إنه يمر مستقيم موازٍ **واحد فقط**. ربما كان پروكلوس صاحب فكرة أحادية

(13) الحسن بن الهيثم، «كتاب في حل شكوك كتاب أقليدس في الأصول وشرح معانيه»، في **نظرية المتوازيات في الهندسة الإسلامية**، تحقيق خليل جاويش، بيت الحكمة، قرطاج، 1988، ص. 123. ويستمرّ : «فنقول في جواب هذا الِإعتراض أن الأمر على ما ذكر ولم يذهب على أقليدس هذا المعنى ولكنه قدم هذين الشكلين على الشكل التاسع والعشرين ليجعل عكس الشكلين واحدا. [...] وهذا الشكل، أعني السابع والعشرين، بينه أقليدس ببرهان الخُلف وقد يمكن أن يبين بالِإستقامة إذا قدّم عليه الشكل التاسع والعشرون». وقد كتب الشيء نفسه في شأن الشكل الثامن والعشرين (الصفحة 124).

الموازي، وهي تنسجم مع تعريف پوسيدونيوس للتوازي. وقد أعاد پلايفير الإسكتلندي[14] صياغة هذه المسلمة في نهاية القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر، وسميت بمسلمة پلايفير، وأخذ بها كثير من الدارسين واعتبروها مسلمة خامسة. منطقيا، تكافئ مسلمة پلايفير مسلمة أقليدس؛ لكن الأمر يختلف تاريخيا، لأن الملابسات التداولية ليست متطابقة. وربما عرف أقليدس نفسه أنهما متكافئتان؛ لكنه فضل أن تكون الأولى في موضع المسلمة وأن تكون الثانية مبرهنة (دون الإشارة إلى فكرة الأحادية)، لما تفرضه الأخيرة من قيود. وإذن فالنسق المشيد على تعريف پوسيدونيوس يختلف بعض الإختلاف عن نسق أقليدس. بل إن المسلمة الخامسة في تأويل پوسيدونيوس لنسق أقليدس تبدو وكأنها تلزم عن تعريف المتوازيات، أي أننا إذا أخذنا بتعريف المتوازيات بمعنى پوسيدونيوس وأخذنا بمسلمة پلايفير، تصبح مسلمة أقليدس الخامسة مبرهنة يصعب أن يجد إليها الشك طريقا، أي أن المسلمة الأقليدية الخامسة تنتج عن مسلمة أحادية الموازي (ما دامت تكافئها).

غير أن هذه الأنساق لا تبتعد عما يمكن تسميته بالروح الأقليدية التي حافظت عليها قرونا عدة بالرغم من إعادات السبك المتتالية. فهذه الإعادات حاولت أن تدقق بعض الأمور التي بقيت معلقة ومضمرة لدى أقليدس؛ وقد أطّرت هذه المحاولات رغبةٌ ملحة في البرهان على المسلمة الخامسة، من أجل توفير مزيد من التماسك للنسق الهندسي القائم. أما التفكير في نسق يختلف جوهريا عنه، فلم يتقدم نحو الإنشاء الفعلي، بالرغم من أن بوادر تدعو إلى فهم ذلك قد برزت قبل أقليدس نفسه. ولم تتجاوز هذه البوادرُ مرحلة الحدس الأولي المبهم؛ إذ لم تستطع اختراق السقف الذي يؤطر الرياضيات الكلاسيكية عامة، والذي يقف حاجزا في وجه الإنفلات من قبضة التصورات السائدة. فما الذي يحدد هذا السقف الذي يفرض على العقل قيودا لم يتخلص منها حتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر في تصور المكان الهندسي؟ وكيف حصل التخلص من تلك القيود من أجل إنشاء نسق لا أقليدي؟ فكلما أخرج تنظيم معين مكونات ما للنسق من الإضمار إلى الصراحة، تولّد إضمار جديد. وكلما توخى التنظيم مزيدا من التدقيق المنطقي والصرامة في الترابط، سقط في مزيد من التقييد في مستوى الإنشاء.

(14) John Playfair (1748-1819).

أسس التنسيق

لنلاحظ مكونات النسق : تعريف النقطة والخط والزاوية...

إنها تعريفات تريد أن تكون جامعة مانعة، أي تتوخى الفصل التام بين مكونات النسق، كي لا تتداخل فيما بينها. فتعدد النقط المتصلة لا يمكن أن يجعل منها مستقيما؛ والمستقيم لا يتكون من نقط، مهما كثر عددها؛ والمساحة لا تتكون من مستقيمات؛ والحجم لا يتكون من مساحات؛ وذلك بالرغم من أن النقطة هي نهاية المستقيم، والمستقيم نهاية المساحة، والمساحة نهاية الحجم. إنها تعريفات سكونية تحرص على بيان **ماهية** كل مكون على حدة، وكأن له وجودا مستقلا عن النشاط البنائي العقلي، بحيث يتم الحرص على أن لا تمتزج تلك المكونات فيما بينها، ظنا أن امتزاجها سيتولد عنه عدم الِانسجام. إن ههنا مظهرا من مظاهر السقف الذي يحدد أفق النظر في العلم الرياضي آنذاك؛ إذ أن هذا السقف يحدده الأخذ بتصور الماهيات الوجودية الثابتة، المهيمن لدى أفلاطون وأرسطو والذي فرض نفسه في الميدان العلمي.

أما إذا نظرنا إلى تعريفات أقليدس للكرة والمخروط والأسطوانة (تعريفات 14 و18 و21 من الكتاب الحادي عشر)، فإننا نجد أن الحصول على الكرة يتم من خلال إدارة نصف دائرة حول أحد أقطارها دورة كاملة، والحصول على المخروط يتم من خلال إدارة مثلث قائم الزاوية دورة كاملة، والحصول على الأسطوانة يتم من خلال إدارة مستطيل دورة كاملة. فالأشكال الهندسية هنا تمتزج عبر تحويلات محددة دون أن يؤدي ذلك إلى مفارقات أو تناقض. إن هذه التعريفات تتضمن إقرارا بالحركة؛ وتريد أن تندرج في رؤية دينامية لبناء الأشكال الهندسية وتحويلها عن طريق إدخال عناصر جديدة في تكوينها، بخلاف ما رأينا مع التعريفات الأولى التي تفصل بين النقطة والمستقيم والمساحة، وكأنها عنصر ذات ماهيات ثابتة. لكن أقليدس لم يستطع الِانفلات من قبضة ذلك السقف؛ فلا يتجاوز مستوى التعريف، لكي يتمكن من استنتاج ما يمكن استنتاجه منطقيا. لكن هل يوجد استنتاج منطقي متحرر من قبضة التصورات السائدة؟ فلا أرسطو ولا أقليدس استطاعا أن يقدما جوابا عقليا للتحدي المنطقي الذي عبّر عنه زينون الإيلي من قبل. ويتمثل تحدي زينون في أن أخيل، البطل السريع، لن يستطيع اللحاق بالسلحفاة أبدا، بالرغم من أنه يقترب منها أكثر فأكثر،

وبالرغم من أن المسافة الفاصلة بينهما تتقلص باستمرار، ما دام أخيل أسرع من السلحفاة. إذ في عرض زينون أنه لابد من أن تبقى مسافة بينهما، لأنه يقسّم المسافة إلى نصفين في كل مرة... ومفارقة زينون تطرح مسائل المتصل والنهاية واللانهائي والمتسلسلات المتقاربة[15]. غير أن البحث في المسائل الرياضية لا يعرف الخصوبة الإنشائية إلا في سياق يفتح آفاق الفكر بواسطة التحليل الفلسفي؛ ولم يستمر النشاط الفلسفي لدى اليونان بالوتيرة نفسها ؛ إذ توقف عن الإبداع، بفعل جو الحروب والنزاعات... فالنشاط العلمي عامة ملتحم بالجدل الفلسفي؛ ولا يخترق الفكر العلمي ذلك السقف المذكور إلا عبر سيرورة فكرية شاملة. وما يحتاجه عالِم الهندسة هو تلقيح الميادين العلمية فيما بينها في سياق العمل التحليلي والنقدي الفلسفي.

مسألة أخرى لا يمكن المرور دون الإشارة إليها، تتعلق بتعريف الزاوية المذكور أعلاه. إن المبرهنة الوحيدة التي تستثمر الزاوية التي يكون أحد الخطين اللذين يشكلانها منحنيا هي المبرهنة 16 من الكتاب الثالث؛ وهي تقول : «المستقيم المتعامد مع منتهى قطر الدائرة يقع كلية خارج الدائرة؛ ولا يمكن وضع مستقيم آخر في الحيز الذي بين المتعامد ومحيط الدائرة؛ ثم إن زاوية نصف الدائرة ذلك (الذي يتشكل من القطر والمحيط) أكبر من أية زاوية مستقيمة حادة، والزاوية المتبقية أصغر من أية زاوية مستقيمة حادة»[16].

---

(15) إن الفارق في المسافة بين أخيل والسلحفاة، الذي يتقلص باستمرار، لابد أن يجد نهاية أو حدا. لكنه جواب لم يجد صياغته العقلية إلا في القرن السابع عشر، وهو متمثل في ما يسمى «المرور إلى النهاية» (passage à la limite)، الذي استخدمه كَاليلي (Galilée) في تجاربه في سقوط الأجسام للتعبير عن اتجاه التغير في الفارق بين السرعة والوسط. فالفارق يتناقص باستمرار طبق نسبة معينة حسب تغير الوسط، ويمكن بسهولة تصور نهاية له في وسط ذي خصائص معينة، حيث يصل الفارق إلى حد الصفر. ويمكن التعبير عنه باختصار هكذا : بقدر ما تتجه مقاومة الوسط إلى الإنعدام، يتناقص الفارق، حتى يصل إلى نهاية يمّحي فيها الفارق.

(16) «La perpendiculaire à l'extrémité d'un diamètre de cercle est située entièrement à l'extérieur du cercle, et, dans l'espace compris entre cette perpendiculaire et la circonférence, il n'est pas possible de placer une autre droite; de plus l'angle du demi-cercle (formé par le diamètre et la circonférence) est plus grand que tout angle rectiligne aigu, et l'angle restant est plus petit que tout angle rectiligne aigu» (Euclide, p. 54).

أ ــ إن هذه المبرهنة هي الوحيدة التي تتحدث عن زاوية، أحدُ خطيها مستقيم والآخر منحنٍ دائري. ولا نجد استرسالا لهذا النمط من الإنشاء البنّاء، بالرغم من أن أقليدس يتبنّى في الغالب منهاج التركيب البنائي أكثر من التحليل.

ب ــ في هذه المبرهنة يتم الحديث عن زاوية أكبر من أي زاوية، وزاوية أصغر من أي زاوية. هل يعني هذا الحديث، الواضح نوعا ما، أن الأمر يتعلق باللامتناهي في الصغر وفي الكبر؟ فليس لدى أقليدس استرسال في هذا الإتجاه.

لنعد إلى قراءة المسلمة الخامسة. إنها تتحدث عن تمديد المستقيمين بكيفية «لامحددة» أو «لامحدودة»[17] ! ولا تقول صراحة «دون نهاية». وإذا كان لابد للمستقيمين من أن يلتقيا في مكان ما على أثر التمديد، فلا نحتاج إلى تمديدهما بكيفية لامحددة ! بل يجب الإقرار بالإلتقاء عند نقطة محددة، أو الإقرار باللانهائي إذا كان المستقيمان لن يلتقيا؛ وهو ما لا يرِد صراحة لدى الرياضيين آنذاك، وكأن الأمر يتعلق بما يمكن تسميته مجازيا «عقدة عقلية». إنها مسألة أساسية في كل الرياضيات اليونانية. إذ أنه كم مرة يصل تسلسل البناء الإستدلالي في مواضيع عدة إلى عتبة اللانهائي، فيتوقف تسلسل الإستدلال ويركن إلى الإقتناع بما هو قريب إلى منطق «العقل» كما كان يتصور آنذاك. فقد وقف التفكير الرياضي في طريقة الإستنفاد[18] لدى أودكسوس وأرخميدس عند فكرة اللانهائي في الصغر، ولم يقوما بالخطوة الفاتحة نحو الأفق الجديد. وتُبيّن مسلمة (أو أولية) أودكسوس ــ أرخميدس[19] أن كل كمّ قابل لأن يتجاوزه كمّ آخر؛ ولم يخترق الإستدلال كل حواجز الحدس الحسي لاستنتاج النتائج المنطقية. وهو ما قصدناه من قولنا إن السقف يفرض حدوده على تصور البناء الرياضي.

---

(17) «... ces deux droites prolongées indéfiniment se rencontrent...».

(18) طريقة الإستنفاد (méthode d'exhaustion) هو الإسم الذي أعطاه رياضيو القرن السابع عشر لطريقة أودكسوس والعلماء الذين ساروا على دربه، وهي تتمثل في رسم مربع أو مثلث داخل دائرة تقع زواياه على محيطها، فيضاعف عدد أضلع المضلع كل مرة... فتقترب مساحة المضلع من مساحة الدائرة دون توقف دون أن تتطابق معها... (ولا يلتقي محيط المضلع بمحيط الدائرة إلا إذا افترضنا عدد أضلع المضلع لا نهائيا، وهو ما لم يتمكن الرياضيون الأولون من التعبير عنه صراحة).

(19) تقول مسلمة أودكسوس ــ أرخميدس، أو «مسلمة الإتصال» : «بالنسبة لأي كمّيْن من الصنف نفسه، يمكن أن نجد مضاعفا، بضربه في الكم الأصغر يتجاوز الحاصلُ الكمَّ الأكبر». (معنى ذلك أنه مهما يكن الفارق بين الكمين واسعا، فإننا نجد عددا، بضربه في الكم الأصغر سيتجاوز حاصلُ الضرب الكمَّ الأكبر ؛ وهو إقرار شبه صريح باللانهائي في الكبر).

واضح إذن أن العبارة ترتبط بالعالَم الدلالي الذي يتداوله علماء الرياضيات كما يتداوله المفكرون الآخرون. إنه لا وجود لاستدلال منطقي صارم وحر طليق في الوقت نفسه، يستنتج من المسلمات الموضوعة وضعا نتائج تنتج عنها بالضرورة، أي بالضرورة المنطقية وحدها. إن هناك ضرورات تفرضها المفاهيم العلمية المتداولة والمقولات الفلسفية التي ترسم حدودا للعقل، لا يستطيع تخطيها بالرغم من الشعور الغامض الذي يمكن أن يتولد عنده بأنه حر طليق. وتلك الحدود نجدها في كل تفاصيل الحياة الفكرية، بدرجات معينة. بل إن المشكلة لا تنحصر في الإستدلال؛ فهي بالدرجة الأولى في الأوليات والمسلمات؛ فهذه الأخيرة تقومُ على مسلمات مضمرة تتحكم في نتائج الإستدلال بالرغم من كل جهد من أجل تجاوز الأحكام المسبقة. ولنترك مسألة اللانهائي لنعود إلى المسلمة الخامسة.

هناك ملاحظة لابد من إبدائها، وهي أن بعض الكتابات حول الهندسة تورد المبرهنة 31 أو مسلمة بلايفير مكان المسلمة الخامسة التقليدية. ولذلك دلالته. فمن الناحية المنطقية لا يلزم عن ذلك تغيير مهم، ما دامت العلاقات بينها هي التي تهم البناء المنطقي شبه ـ الصوري. لكن الأمر يختلف من الناحية الإبستملوجية والتاريخية، لأن المسلك المؤدي من الواحدة إلى الأخرى ليس مطابقا للمسلك المعاكس، نظرا لتغيير المبادئ الأولى التي يقوم عليها البناء. كيف يسمح الدارس لنفسه بهذا التصرف؟ أوَ لا يقود ذلك إلى تصور إمكانية حذفها أو خرقها؟

إن المعالجة الإبستملوجية والتاريخية تهتم بتكون المفاهيم وسبل الإستنتاج التي سلكها العلماء في الشروط الفكرية المختلفة. فقبْل الصياغة الأقليدية، تناقش العلماء نقاشاً حادّاً حول المبادئ الأولية التي يتأسس عليها الصرح الرياضي، وحاولوا التمييز بين الأولية والمسلمة والمبرهنة والتعريف والقضية، بما أمكن من الدقة خدمة لصرامة الإستدلال وضمانا لخصوبة الإبتكار. ونجد بعض صدى ذلك النقاش لدى أرسطو وغيره. ففي بعض الأمثلة على الأقيسة المنطقية يورد أرسطو قضايا من الإفتراض الرياضي؛ هذا مثال لذلك : «ليس من العبث أن نفترض أن النتيجة الكاذبة نفسها يمكن أن تنتج عن مقدمات كاذبة مختلفة؛ فالمتوازيات تلتقي إذا كانت الزاوية الداخلية أكبر من الخارجية، أو إذا كان مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين»[20].

(20) Aristotle, **Prior Analytics** 65a38-66a24, ed. and tr. by J. Warrington, Dent & Sons ltd., London & New York, 1964, p. 146.

كما نجد لديه إشارات إلى بعض التصورات عن الاستدلال، وانتقاد «الذين يرسمون خطوطا ويظنون أنهم يستدلون على توازيها بواسطة إقرارات لا يمكن الاستدلال عليها فعلا إلا إذا **كانت** الخطوط متوازية»(21). كما انشغل كثير من علماء الرياضيات، قبل أقليدس، بحيثيات التنسيق والتأسيس للمعارف الرياضية المتداولة، خصوصا تلاميذ أودكسوس القنيدي (408–335 ق.م.). ويقر إمر توث بأن أحد تلاميذ أودكسوس، وهو مينخموس، قد انشغل بالتأسيس الفلسفي والأكسيومي للهندسة قبيل التنسيق الأقليدي(22).

وتدل إشارتا أرسطو السابقتان على أن النسق الهندسي الأقليدي لم يتطور في شكل بناء منسجم ومتماسك متصل الحلقات مُجمع عليه دون اعتراضات. فقد نشطت دينامية البناء الرياضي في جو جدالي منطقي وفلسفي نقدي شامل (في حدود السقف المشار إليه). فعولجت مبرهنات ورثها الإغريق عن الحضارات الأخرى ومبرهنات أنشئت خلال الجدال والاستدلال، تفترض الواحدة الأخرى، وتحتاج إلى خيط تنتظم فيه لتشكل نسقا منسجما. وقد قام علماء قبل أقليدس بهذا العمل التنسيقي؛ ويبدو أن كل محاولة كانت تحتاج إلى إعادة تنسيق لاعتبارات نظن أنها لا تختلف كثيرا عن التي نجدها في النسق الأقليدي المذكور بعضها أعلاه، والمتمثلة في تدقيق التعريفات والتمييز بين الأوليات والمسلمات وغير ذلك من مظاهر الحرص على العرض السليم للبناء المعماري الرياضي. بل إن التنسيق الأقليدي لا يخلو من ثغرات إذا نظر إليه من زاوية التنسيق المعاصرة؛ وما قلناه عن إمكانية الإضافة وإعادة التنظيم من هذا القبيل. ويظن إمر توث أن ذلك يعبّر عن «فقدان الحسم الأكسيومي» في التأسيس(23). ولم يكن هناك إجماع حول كل دقائق مكونات النسق

---

(21) .Aristotle, **op. cit.**, p. 143

(22) «Menaichmos, der ein hervorragender Mathematiker gewesen ist, hat sich nach Proklos tatsächlich mit wichtigen Fragen der philosophischen und axiomatischen Grundlegung der .Geometrie abgegeben» (I. Toth, «Das Parallelenproblem...», p. 279)

(23) «Es gibt in den Elementen ziemlich viele axiomatische Inkonsequenzen» (I. Toth, «Das .Parallelenproblem...», s. 288) على أننا لا نرى ضرورة تقويم النسق الأقليدي من الزاوية الأكسيومية، لأن لهذه الأخيرة حدودها ومسلماتها المضمرة. بكلمة واحدة نقول إنه لا توجد أنساق تستجيب للمواصفات التي تتحدث عنها النزعة الأكسيومية، في التاريخ الفعلي.

وأسلوب بنائها وتنظيمها. بل يبدو أن مؤلَف «**الأصول**» كان ثمرة ذلك النقاش، وفي الوقت نفسه كان نسْخا لمؤلفات سابقة في الميدان. وقد كانت مؤلفات كثيرة متداولة تحمل نفس العنوان، أي «الأصول». وكأن القصد وراء تأليف «**الأصول**» هو وضع حد للاِختلاف لكي لا يتحطم الصرح المعماري الرياضي. لكن هل يمكن وضع حد للنشاط التحليلي ؟!

انتقال الأفق

إن كثيرا من المعالجات التي برزت عند علماء الرياضيات حتى أوائل القرن التاسع عشر، وردت عند العلماء الذين نشطوا قبيل الصياغة الكاملة لمؤلف «**الأصول**»؛ لكنها تطورت مع مر الزمن. ويمكن أن نصنف تلك المعالجات إلى ثلاث: معالجة يغلب عليها الطابع المنطقي، وأخرى يغلب عليها الطابع الإبستملوجي، وأخرى يغلب عليها الطابع التجريبي. وليست هذه المعالجات مستقلة فيما بينها، بل هي متداخلة؛ ثم إن بعض العلماء قد مارسوها كلها في الوقت نفسه.

فالمعالجة المنطقية تركز على العلاقات بين مكونات النسق الهندسي، فتُقَدِّم المسلمات والمبرهنات بعضها على بعض، أو تُغَيِّر المسلمة الخامسة بعبارة أخرى للنظر في ما يلزم عن ذلك التغيير من نتائج من حيث التماسك المنطقي للنسق. نجد مثالا لهذا التغيير لدى ابن الهيثم كما يلي :

> «إلا أن القضية الأخيرة [يقصد المسلمة الخامسة] ـ وهي إذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين فصيّر الزاويتين الداخليتين اللتين في جهة واحدة أقل من قائمتين، فإن الخطين يلتقيان ـ قد يمكن أن نجعل مكانها قضية غيرها تقوم مقامها وتكون أبين عند الحس وأوقع في النفس، وهي أن كل خطين مستقيمين متقاطعين فليس يوازيان خطا واحدا مستقيما.
>
> وهذه القضية ترجع إلى تلك القضية إلا أن هذه أبين من تلك»[24].

وقد كانت هذه المعالجة منصبّة على تنقية الصرح الرياضي من الشوائب الخارجية لتدقيق الاِنسجام الداخلي. فقد أدرك الدارسون أن «**الأصول**» مليء

(24) ابن الهيثم، «كتاب في حل شكوك كتاب أقليدس في الأصول وشرح معانيه»، في **نظرية المتوازيات في الهندسة الإسلامية**، تحقيق خليل جاويش، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1988، ص. 121.

بالثغرات التنسيقية الإستنباطية، بالرغم من المجهود الأقليدي وغير الأقليدي الذي كان يرمي إلى الرقي بالبناء من مستوى الحدس إلى مستوى عقلي ـ منطقي. ويُعبِّر پروكلس، من القرن الخامس الميلادي، يعبر بوضوح عن الفارق بين الإدراك العادي لصدق المبرهنة وبين البرهان عليها ومعرفة طريقة الحصول عليها بالإستدلال العقلي.

كما نجد هذا التناول لدى أرسطو وغيره، حيث توضع قضيتان بمثابة مقدمتين لقياس منطقي، تستنتج منهما قضية تناقض مبرهنة سبق الإستدلال عليها أو تتناقض مع «الحقائق الأولية»، فلا يقبلها السقف العقلي المشار إليه؛ فتستبعد النتيجة، ثم تستبعد، تبعا لذلك، القضيتان الموضوعتان كمقدمتين. بيد أن ابن الهيثم لم يتبع أرسطو في رفض هذا الأخير إدخال الحركة إلى ميدان الهندسة.

وتبني المعالجة الإپستملوجية مثلثاً تحاول أن ترى هل يمكن أن يكون مجموع زواياه أكبر أو أصغر من قائمتين. وتبني مستطيلا ما بين المستقيمين المتوازيين، وتفترض أن ثلاث زوايا من المستطيل قائمة، بينما الزاوية الرابعة حادة أو منفرجة أو قائمة، للنظر في ما يؤول إليه تسلسل الإستدلال. على أنه في جل الأحيان يتوقع الدارس الوصول إلى تناقض، في حالتي الزاوية الحادة والزاوية المنفرجة؛ إذ لم يكن من الممكن تصور مبرهنات دون تغيير الأساس الذي يفترضه البناء الهندسي كله. وهكذا، فحتى في الحالات التي كان يصل فيها عالِم ما إلى «مبرهنات» معينة، فإنه يحسبها مجرد صدف لا تنسجم في تسلسل تنسيقي ما. ولم يحصل الإقرار بأنها مبرهنات حتى حصل التغيير في التصور كله في العشرينات من القرن التاسع عشر. ونجد هذا التناول قبيل أقليدس ولدى عمر الخيامي (1050ـ1122) وساكيري[25] في القرن الثامن عشر. وقد اطلع ساكيري على معالجات ابن الهيثم والخيامي والطوسي في الباب نفسه. وكانت كل المحاولات تنتهي بأن الإفتراض يقود إلى المحال؛ ولهذا صعب تصور عالَم مغاير لعالَم الهندسة الأقليدية.

المعالجة التجريبية تعمل على إيجاد شروط ملائمة لتناول المسائل الهندسية في الواقع العيني أو في واقع افتراضي. فهذا عالم من القرن الثامن عشر هو توماس ريد تصور مكانا دائريا ترى فيه عينٌ بدرجة 360 درجة، بحيث تتراءى الدوائر المحيطة بالعين خطوطا مستقيمة... وقد استدل ريد على مبرهنات من قبيل هندسة لاأقليدية،

(25) Girolamo Saccheri (1667-1733).

وذلك في سياق نقد لاذع لنظرية بركلي في المعرفة[26]. وفي أواخر القرن الثامن عشر، قرر فريدريك كَوص (1777–1855) إنجاز قياسات بين مدن ثلاث لاختبار زوايا المثلث الذي تشكله المسافات بينها. ويعتبر كَوص واحدا من مبتدعي الهندسات اللاأقليدية، لأنه بنى عدة مبرهنات تستنبط فيها من مسلمات كما هو الشأن في الهندسة الأقليدية؛ لكنه لم ينشر عمله «لخروج نتائجه عن المألوف».

هذه المعالجات الثلاث تطورت ببطء، لكنها اتخذت أسلوبا أكثر وضوحا حوالي سنة 1800. فلم يرتفع السقف الذي كان يحد من تطلع علم الرياضيات منذ اليونان إلا ببطء شديد خلال قرون طويلة. وتفتح أفق البناء الرياضي خصوصا على أثر اكتشاف حساب التفاضل في القرن السابع عشر. ويفتح هذا الحساب المجال لتصور اللانهايات والمتصل بروح جديدة. ثم إن الجو النظري في هذه الفترة قد اغتنى بالمنجزات في لغة التعبير في الرياضيات بجميع فروعها، إضافة إلى تطور التفكير في المبادئ الأولى لصرح الرياضيات. فقد طور ساكيري عمل عمر الخيامي حول معالجة الزوايا القائمة والمنفرجة والحادة، كما طور لامبرت (1728–1777) معالجة ابن الهيثم الآنفة الذكر. فقد كتب ساكيري بحثا يبيّن أن تنسيق أقليدس خال من الشوائب الكبرى، وأن المسلمة الخامسة لا يمكن البرهنة عليها، وأن وضعها كمسلمة مبرر. بينما خطا لامبرت خطوة أخرى، لكنها قصيرة. فقد كتب : «لقد توصلنا، انطلاقا من فرضية مستحيلة [أي افتراض الزاوية الرابعة حادة أو منفرجة في المستطيل] إلى استنتاج عدد مهم من القضايا، وذلك إلى أن يتبيّن لنا أن هذه الفرضيات غير متماسكة [...] هكذا، فمن فرضيتين كاذبتين (الزاوية الحادة والزاوية المنفرجة)، يمكن استنباط العديد من النتائج وكأنها صادقة»[27]. وقد تغير الفكر الهندسي في أواخر القرن الثامن عشر نتيجة للتخلص من «العوائق» التي فرضها الفكر الماهوي الأفلاطوني الأرسطي، ولانفتاح العالَم على أثر التحول المفاهيمي الذي عرفه الفكر العلمي برمته خلال القرن السابع عشر.

لقد كان بعض العلماء المسلمين يستعملون عبارة «بغير نهاية» (ابن الهيثم)،

(26) N. Daniels, «Thomas Reid's Discovery of a Non-Euclidean Geometry», **Philosophy of Science**, XXXIX, 1972, pp. 219-234.

(27) J.H. Lambert, in F. Russo, «Genèse de la Géométrie Non-Euclidienne», **Revue des Questions Scientifiques**, t. CXXXIV, 1963, (pp. 457-473), p. 465.

أو «إلى غير نهاية» (محيي الدين المغربي)[28]؛ وهذا ما يدل على تطور في تناول المسائل الرياضية وتصورها، لكن مدى التطور كان ضيقا بالنظر إلى التحول الجذري الذي حصل في القرن السابع عشر. كتب عبد الحميد صبره : «يمكن ملاحظة أن السمة المشتركة للمعالجة العربية الوسيطية لهذه المشكلة تكمن في استنباط المسلمة الخامسة من قضايا مكافئة لها. ونتيجة لذلك، لم يتمكن الرياضيون العرب من لمح نسق لاأقليدي. والخطوة الحاسمة تمت عندما قام ساكيري باستنباط المسلمة **مباشرة من نفيها**»[29]. على أن ذلك لا يعني أن اقتصار العلماء المسلمين ـ وغيرهم ـ على استنباط المسلمة الخامسة كان بلا جدوى؛ فقد رأينا أنهم عالجوا فرضيات فتحت الباب فيما بعد للخروج عن السقف المذكور، خصوصا في بعض التلميح إلى اللانهائي. على أن كون محاولات استنباط المسلمة الخامسة من غيرها قد شكل فعلا «مهزلة أصول الهندسة»[30]، ليس فقط لدى المسلمين، بل حتى بداية القرن التاسع عشر. وقد كتب أحد الدارسين : «الحق أنه حتى أعمال كَوص في آخر القرن الثامن عشر، لم يتصور أي عالِم هندسي التخلي عن مسلمة المتوازيات. فقد ظلت صحتها قناعة لا تتزعزع في نظر الجميع»[31]. ويذهب إمر توث إلى مقارنة الجو الإبستملوجي المحيط بالرياضيات حوالي سنة 1800 بالجو الإبستملوجي زمن أرسطو؛ بل يقر أن هناك تماثلا بين الظروف التاريخية التي نشأت فيها الهندستان وتماثلا بين موقفي الفيلسوفين أرسطو وكانط من عبارات الرياضيات وأسسها[32]. فقد تولدت الهندسة الأقليدية على أثر تفكير في أسس البناء وأساليب الإنشاء، وتولدت الهندسة اللاأقليدية على أثر هذا التفكير نفسه. لكن الجو النظري الذي يرسم آفاق التفكير قد تغير بدرجة مهمة. وكتب : «إن ما يستحق الملاحظة أن تكوّن الهندسة

(28) نصوص ابن الهيثم والمغربي وآخرين في كتاب خليل جاويش المشار إليه أعلاه.

(29) A.I. Sabra, «Simplicius's Proof of Euclid's Parallels Postulate», **Journal of the Warburg and Courtauld Institutes**, 32, 1969, pp. 1-24, p. 17.

يجب أن لا يفهم بأن المسلمة الخامسة يمكن أن تستنبط من نقيضها، بل المقصود هو استنباط المسلمة ببيان أن نفيها يؤدي إلى تناقض أو محال.

(30) عبارة «مهزلة أصول الهندسة» من نحت دالمبير سنة 1759. عن ترودو، ص. 154.

(31) F. Russo, «Genèse de la G...», p. 464.

(32) Imre Toth, «Das Parallelenproblem im Corpus Aristotelicum», pp. 367-368.

المعروفة بالأقليدية مثله مثل تكوّن الهندسات المعروفة باللاأقليدية قد هُيِّئت لهما ظروف تاريخية متماثلة [...]»(33).

وبين اللحظتين التاريخيتين سيرورة تاريخية بطيئة، لكنها لم تكن عقيمة. ولم يخضع كل الإرث الفكري منذ الإغريق، مرورا بمفكرين ينتمون إلى مذاهب دينية وفلسفية مختلفة، للقيود نفسها التي فرضها ذلك السقف الذي وقف في وجه تصور اللانهائي في الرياضيات والعلم، وبالدرجة نفسه. لكن النقلة الأساسية لم تحصل إلا بعد تجاوز ذلك السقف الذي كان يقيد النشاط الإدراكي والإنشائي للفعل العلمي. وحصول التجاوز مرهون بدينامية مفاهيمية يفعل فيها الجدل الفلسفي والإبداع الفني، في تفاعل وتداخل مع النشاط العلمي. فهذا مثلا نيكولا الكوسي (1401–1464) يتناول فكرة المتصل انطلاقا من رؤية غير يونانية ويتحدث عن «وحدة الأطراف عبر الانتقالات والحدود الوسيطة، واحتوائها عن طريق الاتصال الفعلي». ويقول عن تحول الأشكال فيما بينها:

«كل شكل هندسي يمكن جعله عبر تغييرات متصلة، دون انحراف عن قواعد بنائها، يقترب أكثر فأكثر إلى درجة التطابق مع أشكال تختلف قواعد بنائها عن الأولى. فمثلا، كلما جعلتَ محيطاً دائرياً أكبر، اقترب قوس الدائرة من الخط المستقيم. وبذلك، فإن قوس الدائرة الذي لا يوجد قوس آخر أكبر منه، سيكون فعلا هو الخط المستقيم. وإذن، إذا افترضنا الخط المنحني لانهائيا، تطابق المنحني مع المستقيم»(34).

(33) I. Toth, «Das Parallelenproblem...», p. 368 : «Es ist aber bemerkenswert, dass **sowohl die Entstehung der bewusst euklidischen als auch die Entstehung der bewusst nicht-euklidischen Geometrie durch analoge historische Umstände vorbereitet wurde [...]**».

(34) Nicola Cusano, **De Docta Ignorantia (1440)**, in William M. Ivins, Jr., **Art & Geometry. A Study in Space Intuitions**, Dover, New York, 1964, pp. 79-80 : «union of extremes through transitions and middle terms, and of their comprehension by means of the continuity thus effected». ; «Every figure, without deviation from the rules of its construction, can be made by continuous modifications to come nearer and nearer to coincidene with figures of which the rules of construction are different. For example, the larger you make the circumference of a circle, the nearer an arc of it is to a straight line ; the arc, therefore, of a circle than which there can be no greater will be actually a straight line. If supposed infinite, then, the curve and the straight line coincide».

ففي هذا التصور، ليس المنحني والمستقيم كائنات ذات ماهيات ثابتة، بل إنشاءات عقلية يمكن أن تجري عليها تحويلات عندما يتغير الفضاء الذي تندرج فيه. إذ الشكل المنحني لا يمتلك تقوسا من الدرجة نفسهادائما؛ فهناك منحن حاد ومنحن أقل حدة ومنحن منفرج ومنحن أقل أو أكثر انفراجا... إلخ؛ وكلما كانت درجة انفراجه أكبر، اقترب من الشكل المستقيم. هذا التصور يحتاج إلى دينامية إنشائية واسعة الأفق، لم تتبلور بوضوح حتى أوائل القرن التاسع عشر.

في تلك الفترة التي برزت فيها أفكار مثل التي عبّر عنها الكوسي، تكوّن مفهوم مهم في الميدان الفني التشكيلي هو مفهوم نقطة الهروب، وهي نقطة يدعها «العقل» ويتصورها في اللانهائي، منها ينظر إلى مكونات اللوحة. وهو مفهوم يعبّر عن التوتر بين التصور العقلي والإدراك الحسي فيما يخص المتوازيات في هذه الحالة. فإذا وقفنا عند رأس صف من الأشجار المتراصة في خطوط مستقيمة متوازية، فإننا نراها تلتقي عند نقطة معينة يحاول النشاط العقلي القبض عليها، ولو أنه يعلم أن الخطوط المتوازية لا تلتقي في النهائي. لربما يمكن أن تلتقي في اللانهائي ! وفعلا فإن فكرة نقطة الهروب تفرض تصور اللانهائي. ولعل فكرة نقطة الهروب لعبت دورا ولو غير مباشر في فتح العقول شيئا فشيئا على اللانهائي الرياضي، بعد القرن الخامس عشر.

إن مثل هذه الأفكار، التي تتعارض مع «البديهيات» المعترف بها آنذاك، تعمل على مد سبل التفاعل بين فروع العلم المختلفة والأنشطة الأخرى. وواضح في هذا التصور أن الخط يمكن تمديده إلى ما لا نهاية؛ وأن المنحني يمكن أن يقترب من المستقيم كلما زيد في كبره، إلى أن يتطابق معه في اللانهائي... وقد استندت الهندسات الجديدة إلى مثل هذه «الشطحات» التي لا تعتبر المستقيم والمنحني والمساحة ماهيات ثابتة، بل تعتبرها حلقات متصلة في دينامية بنائية نشيطة، ما يهم فيها هو تجنب التناقض في البناء والإستدلال بين مكونات النسق. وقد ارتفعت نسبة كبيرة من القيود على أثر إنشاء حساب اللانهايات على يد نيوتن ولايبنتس في الستينيات من القرن السابع عشر.

اكتشاف إمكان التغيير

لم تتخلص الهندسة الأقليدية من سلطة الحدس الحسي بالرغم من العقلنة المتقدمة بالمقارنة مع التصور السابق. فكثير من المبرهنات تنشأ إنشاء، وكأن الأمر

يتعلق برسم على مكان عيني، **بالمسطرة والبركار**؛ ولا تتمتع بخصائص الإستدلال العقلي المجرد، بالشكل الذي تصوره بعض التصورات التقليدية لتاريخ الرياضيات. تعتبر هذه التصورات أن الرياضيات ما قبل اليونانية كانت حدسية حسية ترتبط بالحياة العملية، بينما أصبحت استدلالية عقلية عند الإغريق... فلا يخلو هذا التصور من مبالغة. صحيح أن الاستدلال الرياضي تغير وتطور وأصبح أكثر تجريدا، لكن الأمر يتعلق بدرجة في العقلنة وليس بقطيعة جذرية في العلم الرياضي. وبالرغم من أن مؤلف «**الأصول**» يشكل لحظة متقدمة في العلم الرياضي، فإننا نجد كثيرا من المبرهنات تبنى وترسم. ومثالنا الأقرب هو المبرهنة الأولى من «**الأصول**» التي تقول : «يمكن بناء مثلث متساوي الأضلاع على قطعة من المستقيم». وتقول المبرهنة الثانية : «يمكن رسم قطعة من المستقيم مساوية لقطعة أخرى انطلاقا من نقطة معينة». والعمل بالمسطرة والبركار يقتضي نشاطا عضليا على سطح مستوىً محدود ونهائي. وهذا الطابع البنائي الإنشائي في النسق الهندسي الأقليدي ليس نقصا إپستملوجيا أو منطقيا، لأن العلم الرياضي يتعامل ببنيات منشأة؛ إنما النقص هو في تلك التصورات الصورانية والأكسيومية التي تقيس علمية البناءات الرياضية بمدى التخلص من العالَم التجريبي.

لقد تمخضت الهندسة (أو الهندسات) الأقليدية عن النقاش المثمر الذي ساهم فيه كثير من العلماء قُبيل الصياغة «المكتملة»؛ وتمخضت الهندسات اللاأقليدية عن النقاش المثمر بين علماء كثيرين. ويحق أن نعتبر أن الصياغة النسقية لا تتم بصفتها عملية صورية آلية، بل بصفتها خلاصة لحوار بنّاء بين جماعة من المهتمّين يشتركون في إدراك المسائل التي يتمحور حولها النقاش، ويبنون عناصرَها جماعة. ولا غرابة في أن صياغات كثيرة ومتماثلة ترى النور في فترة محدودة جدا.

إن ملاحظة التماثل بين الجو النظري قبيل تنسيق «**الأصول**» والجو النظري قبيل بروز الهندسات اللاأقليدية جعل بعض الدارسين يذهبون إلى الإقرار بأن هناك علامات توحي بتفكير جدي في هندسة لاأقليدية قبل أقليدس. فانطلاقا من ملاحظة إشارات أرسطو وغيره إلى المناقشات حول أسس الهندسة، يبني توماس هيث تعجبه «وكأنه [يقصد أرسطو] حصل له نوع من النبوة بهندسة ما قائمة على أسس غير الأسس الأقليدية، مثل الهندسات اللاأقليدية الحديثة». ويستدرك هيث بأنه من الصعب تصور أن يكون أرسطو قد أدرك ما أدركه أمثال ريمان في الستينيات

من القرن التاسع عشر. ويعلّق إمر توث على رؤية هيث بأنه فعلا من الصعب أن يُنسب إلى أرسطو فكر لم يكن بالإمكان بروزه إلا حوالي 1800؛ لكن أرسطو، يقول توث، كان يفكر بطريقة قريبة جدا من طريقة ساكيري[35].

بيد أن تاريخ الهندسة قد عرف تقليدا آخر، هو ما يسمى بالهندسة الكروية؛ وقد تطورت مستقلة عن الهندسة العادية، من أوتوليكوس، معاصر أرسطو وأقليدس، إلى تيودوسيوس من القرنين الثاني والأول قبل الميلاد إلى مينيلاوس من القرن الأول الميلادي... وتتعامل هذه الهندسة بالمثلثات والمربعات ذات الأضلاع المنحنية الدائرية. وقدم العلماء ــ خصوصا مينيلاوس ــ[36] عدة مبرهنات، بطريقة استدلالية تماثل طريقة أقليدس، ومنتظمة في نسق يواكب نسق «**الأصول**»؛ لكن الهندستين ظلتا مستقلتين الواحدة عن الأخرى تماما، وكأن الأمر يتعلق بعلمين غريبين الواحد عن الآخر. وفي هذه الهندسة يكون مجموع زوايا المثلث أكبر من زاويتين قائمتين؛ لكن الفارق بين ذلك المجموع والقائمتين يكون متناسبا مع مساحة المثلث : فكلما كان المثلث أكبر ازدادت درجة مجموع الزوايا المكونة له.

كانت الهندسة الأقليدية تبتعد عن استخدام الحركة في تصور الأشكال الهندسية؛ كما وقف أرسطو ضد الحركة في الهندسة، وتبعه عمر الخيامي وآخرون. كتب الخيامي، في سياق نقده لابن الهيثم :

> «وهذا كلام لا نسبة له إلى الهندسة أصلا من وجوه : منها أنه كيف يتحرك الخط على الخطين مع احتفاظ القيام، وأي برهان على أن هذا يمكن ؟ ومنها أنه أية نسبة بين الهندسة والحركة، وما معنى الحركة ؟ومنها أنه قد بان عند المحققين أن الخط عرَض لا يجوز أن يكون إلا في سطح، ذلك السطح في جسم، أو يكون نفسه في جسم من غير تقدّم سطح. فكيف تجوز عليه الحركة [وهو] مجردا عن موضوعه. ومنها أن الخط كيف يحصل عن حركة النقطة وهو قبل النقطة بالذات والوجود»[37].

إن الخيامي هنا أكثر وفاءً للتصور الماهوي للمكونات الرياضية؛ فهو يؤكد

(35) Imre Toth, «Das Parallelenproblem...», p. 401.
(36) B.A. Rosenfeld, **A History of Non-Euclidean Geometry**, p. 5.
(37) عمر الخيامي، «رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات أقليدس»، في خليل جاويش، **الكتاب المذكور**، ص. 137-138.

على استقلال المكونات فيما بينها، وعلى تصورها متوقفة على السطح المستوي الذي يناسب العمل بالمسطرة والبركار. بينما دافع ثابت بن قرة (826–901) على اعتبار الأشكال الهندسية في حركيتها، ولو «خياليا». فالهندسة يجب أن تقوم على الحركة، على أن تكون الحركة هنا «عملية نقل دون تشويه»[38]. لكن اعتبار الحركة موجودة في الهندسة المسطحة لم تؤد إلى نتائج بنّاءة. بخلاف ذلك، فإن الهندسة الكروية تقوم على أشكال يمكن تصورها في حركيتها، متى توفر الجهاز المفاهيمي المناسب. وفي هذه الهندسة، كلما اقترب مجموع زوايا المثلث من القائمتين، اقترب شكل الضلع من شكل الخط المستقيم. فالمنحني والمستقيم ليسا ماهيات ثابتة، بل إنشاءات عقلية ما يهم منها هو ترابط المبرهنات وتنسيقها. بيد أن الِانتباه إلى نتائج هذه الحركية ليس معطى تلقائيا، بل يجب تصوره عقليا انطلاقا من رؤية دينامية تتخلص من «العوائق» بدرجة كبيرة نسبيا. واضح أن الهندسة الكروية تستند إلى تصور للمكان يختلف عن تصور المكان المستوي الذي تفترضه الهندسة الأقليدية. لكن الِانتقال من تصور إلى آخر يبدو وكأنه انتقال من عالم إلى آخر لا يمتّ إليه بصلة. أما إنشاء تصور للمكان يؤلف بين العناصر المختلفة للعلم الهندسي في تعدد مجالاته عامة، فإنه يحتاج إلى تغيير شامل في المسلمات ومجال القول...

وبخصوص آلية الِاستدلال، نجد أن جل المبرهنات صاغها أقليدس بواسطة البرهان بالخُلف (= البرهان بالرد إلى المحال). وتقتضي هذه الآلية افتراض كذب القضية التي نريد البرهنة عليها، أي تقتضي الِانطلاق من صدق نقيض القضية التي نريد البرهنة عليها؛ فإذا وصلنا إلى تناقض أو إلى قضية تناقض مبرهنة قائمة، فذلك يعني أن الِافتراض يرتفع، وتصبح القضية مبرهنة. إن آلية البرهان بالخُلف تستند إلى مبدإ الثالث المرفوع القائل إن كل قضية إما صادقة وإمّا كاذبة. فبالرغم من أن هذه الآلية قد لعبت دورا بنّاءً ومثمرا في تاريخ الفكر العلمي منذ فجر الحضارة، خصوصا في الرياضيات، فإن اليقين لا يفيد دائما. إذ ربما كانت قضيتان متضادتان صادقتين معا، لكن في مجالين للقول مختلفين؛ ويرتفع اللبس عندما تتحدد خصائص مجالي القول المعنيين بالقضيتين. أما إذا أولت القضيتان في المجال نفسه، فلا يمكن أن

(38) A.I. Sabra, «Thâbit ibn Qurra on Euclid's Parallels Postulate», **Journal of the Warburg and Courtauld Institutes**, 31, 1968, (pp. 12-32), pp. 18-19.

تصدقا معا، لأن التناقض يكون واضحا[39]. ثم إن البرهان بالخلف ينطلق من نقيض قضية منشأة مفترض صدقها، أي أنه ليس أداة للإبداع والإنشاء، بل أداة للتحقق والإختبار. وتنتج عن الإنتقال من مجال للقول إلى آخر تعريفات أخرى تختلف نسبيا، وطرق أخرى للبناء؛ ويحتاج الإنتقال إلى حدس بنّاء أكثر من الحاجة إلى منطق صارم[40]. ولهذا فإن آلية البرهان بالخُلف كانت ستؤدي وظيفتها البنّاءة بكيفية أكثر إثمارا لو حصل الوعي بدور مجال القول الذي يفترضه كل استدلال؛ على أن هذا الوعي لم يحصل إلا بعد إنشاء الهندسات اللاأقليدية وليس قبله. وقد اعتبر جل العلماء أن الإستدلال بواسطة البرهان بالخلف، الذي هو استدلال غير مباشر، لا يضمن اليقين؛ لهذا عمدوا إلى إعادة البرهنة على المبرهنات بالطريقة المباشرة. وفي هذا السياق نجد البعض ـ أرسطو مثلا ـ يصوغ الإستدلال الهندسي في شكل قياس منطقي... ولكن لم يقدِّم صبُّ عبارات الهندسة في قالب القياس المنطقي خدمة لا للهندسة ولا للمنطق؛ بل كان مجرد تمرين سطحي. فلا يستطيع منطق أرسطو أن يشكّل مبدأ للإستدلال الرياضي ولا أسلوبا له؛ لأن الأول محدود بتعريفاته الثابتة، بينما خصوبة الرياضيات تنبني على خصائصها التأليفية المستمرة. وكما كتب إمر توث بحق :

> الحقيقة أن التعارض بين نظرية القياس الأرسطية وما في الرياضيات من استنباط عملي أعمق بكثير.[...] فالترابطات المعقدة التي تتمتع بها موضوعاتُ الرياضيات ومبرهناتُها لا يمكن التعبير عنها بمساعدة الأقيسة وحدها. وعليه، فمن الملاحظ أنه في الفصول التي تتناول فيها **التحليلات الأولى** طرق الإستدلال، لا

---

(39) لتوضيح دور مجال القول في تحديد صدق قضية ما أو كذبها، نشير إلى القضية المعروفة : «الكل أكبر من جزئه». فهي أولية صادقة في مجال مجموعة الأعداد المتناهية؛ ولكنها قضية كاذبة في مجال مجموعة الأعداد اللانهائية. بينما كانت تعتبر في الرياضيات الكلاسيكية أولية بديهية، أي قضية صادقة بذاتها ولا تحتاج إلى برهان، لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن تصور كذبها، أي لم تكن تقيَّد القضية بمجال قول محدد؛ إذ اعتبر أنها في غير حاجة إلى تقييد. وقد قلنا «قضيتان متضادتان» بدلا من الحديث عن قضيتين متناقضتين، لأنه ربما أمكن إيجاد مجال للقول تكون فيه القضيتان معا كاذبتين. والحال أن القضيتين المتناقضتين لا تكذبان معا ولا تصدقان معا. وعلى أي حال، فإن التمييز بين التضاد والتناقض، الوارد في المنطق، خصوصا في المنطق التقليدي، ربما لا يحتفظ به في الرياضيات على تلك الصيغة.

(40) هذا لا يعني أننا نعتبر الحدس والمنطق عالَمين مستقلين أحدهما عن الآخر. فالنشاط الحدسي لا يخلو من عمليات استدلالية، والفعل الإستدلالي لابد من أن يتسرب إليه النشاط الحدسي. فالعمليتان متداخلتان بدرجات معينة.

ترد ولو مبرهنة رياضية واحدة كمثال على سير الإستدلال. إن المبرهنات الرياضية تَبرز دائما كمجرد توضيحات لمفاهيم فلسفية محضة، مثل الضرورة والإستحالة والعمومية[...] [41].

إذ أن الإستدلال الرياضي يتقدم بفضل إدخال عناصر جديدة باستمرار في علاقات قائمة من أجل إنشاء علاقات جديدة، وينشئ متتاليات من المعادلات يمكن تحويل الجمع إلى طرح والأس إلى ضرب، إلخ. بينما يظل القياس المنطقي متعاملا بعلاقات بين مفاهيم تترجم ماهيات قارة. وربما كان البرنامج الأرسطي يتمثل في إخضاع الرياضيات للمنطق، وقد فشل؛ بينما كان يجب على البرنامج أن يحاول فهم الإستدلال الفعلي في الحياة اليومية وفي الرياضيات. ولذلك يظهر أن المنطق الأرسطي كان يشكل عنصرا مهما بين عناصر السقف الذي تحدثنا عنه سالفا، والذي كان يحد من تقدم الإستدلال الرياضي.

إذن فكل تفكير جدي مثمر كان يجب أن ينبش في الإفتراضات المضمرة للبناء الهندسي، والرياضيات عامة، كما يتطلب السير مع البناء الإستدلالي دون توقف ولا بحث عن تبرير حسي آني ومباشر لنتائجه، ولو ضد الحدس المقيّد الذي يضيق من القدرات الإنشائية للعقلية الرياضية. فقد كان العلماء يتراجعون إلى الوراء عندما يستنتجون قضايا تناقض «البداهة الحدسية»؛ ولهذا كان يجب السباحة ضد تيار هذه الأخيرة، أي كان يجب مسايرة الإسترسال في الإستدلال بالرغم من افتراضات الحدس الأولي. لقد كان الحدس هو الذي يفرض مجالا للقول معينا، مفترضا أنه هو العالَم الوحيد الممكن. بينما تفترض الأنساق اللاأقليدية مجالات للقول مختلفة، ونقصد هنا بالضبط تصورها للمكان؛ فالمكان في مجال القول في الهندسة التقليدية مستوٍ، بينما هو منحنٍ بدرجات معينة في الهندسات الأخرى.

---

(41) «In Wahrheit ist aber die Diskrepanz zwischen der aristotelischen Syllogistik und dem in der Mathematik üblichen Schliessen noch viel tiefer. [...] Die verwickelten Zusammenhänge, welche zwischen den mathematischen Objekten und Theoremen bestehen, können meistens mit Hilfe der Syllogismen allein nicht ausgedrückt werden. Es ist übrigens auffallend, dass in den Kapiteln der Analytica Priora die der syllogistischen Schlussverfahren gewidmet sind, kein einziges mathematisches Theorem als Beispiel angeführt wird. Mathematische Theoreme erscheinen immer als Illustrationen rein philosophischer Begriffe wie z. B. Notwendigkeit, Unmöglichkeit, Allgemeinheit [...]» (I. Toth, «Das Parallelenproblem...», p. 388).

تطورت المعالجات الثلاث المذكورة خلال القرن الثامن عشر، متوازية؛ حتى وصلت إلى التغيير النسقي الشامل. فقد وصل كَوص (تقريبا) إلى هندسة غير أقليدية بطريقة رياضية بنائية «تجريبية»؛ وتوصل يانوس بولياي (1802–1860) بطريقة رياضية بنائية «منطقية»؛ وتوصل لوباتشفسكي (1793–1856) بطريقة رياضية بنائية «إبستملوجية». وليس صدفة أن يكون التغيير قد حصل في الهندسة في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، في الفترة التاريخية نفسها التي تبلورت فيها نظريات رياضية مجردة في المتصل والنهاية واللانهائي والمتسلسلات المتقاربة[42]. وكذلك، فقد بدأ التحول في نظرية المنطق في اللحظة التاريخية نفسها، وذلك عن طريق إخضاع المنطق للتناول الرياضي.

لاحظ المحللون أنه إذا حذفت المسلمة الأقليدية الخامسة من لائحة المسلمات، فإنه لن تستنبط إلا المبرهنات التي لا تستند إلى المسلمة. وقد توصل يانوس بولياي إلى أننا سنكون إزاء نسق هندسي يشتمل على المبرهنات من 1 إلى 28 والمبرهنة 31 فحسب، لأن المبرهنات الأخرى (29 و30 ومن 32 إلى 48) تتوقف على المسلمة الخامسة. وفي هذا النسق الذي يشتمل على تسع وعشرين مبرهنة، لا نعرف مجموع زوايا المثلث مثلا. لماذا؟ لأننا لا نمتلك المنطلقات التي نؤسس عليها استنتاج ذلك المجموع. إذ استنتج أقليدس المبرهنة 32 (التي تقول إن مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين) بناء على استعمال المبرهنة 29 مرتين والأولية 2 والمبرهنة 13. وبما أنه لا يمكن استنتاج المبرهنة 29، فلا يمكن استنتاج المبرهنة المتوقفة عليها، أي المبرهنة 32. إذن، لا نعرف، في هذا النسق المحصور، ما إذا كان مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين أو أقل أو أكثر. وقد سمى بولياي هذا النسق المحصور «بهندسة المكان المطلق» أو «الهندسة المطلقة للمكان»[43].

وفي خاتمة هذا العرض المختصر، سندلي ببعض الملاحظات في استعجال.

1 ـ السؤال الذي يفرض نفسه في هذه الحالة هو: كيف لا يكون مجموع زوايا المثلث مساوياً لقائمتين؟ بل كيف يمكن تصور إمكان كون مجموع زوايا المثلث

(42) Le continu, la limite, l'infini, les séries convergentes.

(43) Janos Bolyai, «The Science of Absolute Space», in R. Bonola, **Non-Euclidean Geometry** (1906), Dover, 1955, pp. 1-48.

غير مساوياً لقائمتين؟ إن السؤال يفضي ضرورة إلى تفكير في خصائص المكان الذي تنطبق فيه أية هندسة. أما الهندسة الجديدة التي حصل عليها بولياي، فهي هندسة محايدة فيما يخص تصور المكان، أي لا تقول إنه مستوٍ أو غير مستوٍ.

2 ـ بما أنه لا يمكن استنتاج مجموع زوايا المثلث، فإن أمر ذلك المجموع يبقى مفتوحا، ولم يعد يكتسي تلك الضرورة الإستنباطية التي كانت له عند الإنطلاق من المسلمة الخامسة.

3 ـ إن نسق هندسة المكان المطلق نسق هندسي، بالرغم من فقره. ولا شيء يمنع من الإستمرار في البحث؛ لربما وجدت خصائص أخرى لهذا النسق، أو وجد نسق آخر متميز عن كل الصياغات المعروفة سابقا !

4 ـ إن نسق هندسة المكان المطلق (أي نسق المبرهنات من 1 إلى 28 و31) يمكن أن ينتظم مع مبرهنات أخرى غير المبرهنات 29 و30 ومن 32 إلى 48، أي أنه يمكن تصور نسق مغاير منسجم آخر.

5 ـ إن مسلمة أقليدس الخامسة مستقلة عن المسلمات والأوليات الأخرى. ومعنى ذلك أنه يمكن الأخذ بنقيضها، فلا شيء يمنع من افتراض كذبها، أي الإنطلاق من نفيها للنظر إلى ما يمكن أن يحصل.

هذه صورة مختزلة لنمط المعاينات التي أدت إلى صياغة نسق بولياي. وقد سلك لوباتشفسكي مسلكا مغايرا، فوصل إلى الهندسة نفسها.

آفاق التكامل والإنسجام بين العلوم الإنسانية والنقد الأدبي

محمد أديوان
كلية الآداب ـ الرباط

I ـ العلوم الإنسانية ومشكلة الهوية

أثيرت قضية العلاقة بين العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، واختلفت وجهات النظر في هذه الناحية من الدراسة وظهر التمييز الفاصل بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية المختلفة مع ظهور النزعة الوضعية في التفكير الأوربي خاصة مع أوغست كونت (Auguste Comte) الذي حسم جدلًا شغل الدارسين فترات طويلة من تاريخ العلم.

وإذا كانت الحدود الفاصلة قد وضعت فيما بين العلوم الدقيقة (Sciences exactes)، بحيث استقل كل علم أو فرع معرفي عن غيره كالفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا (أو علم الأحياء) فإن الحدود لم توضع بعد بصورة دقيقة بين العلوم الإنسانية، بل ظلت هذه العلوم تعرف أشكالا من التداخل أو الترابط الذي قد يظهر بقوة أو يخفت قليلًا بحسب اختلاف المجالات وتنوع قطاعات الفعاليات البشرية في حقول المعرفة.

ويبدو أن مشكلة التمييز بين العلوم الإنسانية مشكلة إبستمولوجية ذات طابع فلسفي واضح.

فمن أين تبدأ المشكلة إذن ؟

في اعتقادنا أن السؤال الجوهري لا يتعلق بنوع العلاقة القائمة بين هذه العلوم التي ندعوها علوما إنسانية (Sciences humaines)، وإنما يتعلق الأمر بمشكلة هوية كل علم من هذه العلوم : علم اللغة وعلم النفس وعلم الإجتماع وعلم الإقتصاد وعلم السياسة وعلم التاريخ...

وقد اعترضت بعض الإتجاهات الفكرية على إمكان قيام علوم إنسانية، وادعت أن سبيل هذه العلوم مليئة بالعوائق التي تقف حائلًا دون قيامها علوماً مستقلة ذات أوضاع علمية واضحة (statuts scientifiques cohérents).

ولقد اشتط البعض في هذا المذهب فأنكروا وجود علوم إنسانية بصورة نهائية. وهؤلاء، هم جماعة من أنصار العلوم الدقيقة الذين أعماهم التعصب لمنهجية هذه العلوم عن الإعتدال في الموقف.

وأما الفريق الذي يميل إلى الإعتراض المدعوم بالحجج والبراهين، فإنه يبرر موقفه من خلال التركيز على ثلاثة أمور عرضها أحد الدارسين الإبستمولوجيين المعاصرين وهي :

أولا : الموضوع المتعالي (L'objet transcendant). ويقصد به ذلك الموضوع الذي تتخذه العلوم الإنسانية موضوعاً لها. فهو يتسم بالتعالي وعدم الثبات، وهو يتغير ولا يتصف بتشابه العينات كما هو الشأن في العلوم الدقيقة. ومن ثم فـ«إن انتفاء صفة المطابقة بين الموضوعات التي تدرسها العلوم الإنسانية يطرح مسألة الموضوعية في هذه العلوم»[1].

ثانيا : المنهج المستحيل (La méthode impossible). ويعني ذلك عدم إمكان تطبيق خطوات المنهج العلمي التجريبي الدقيق في حقول العلوم الإنسانية. كما أن الباحث في هذه العلوم لا يملك الإستقلال عن موضوعه. لذا تظل صفة الذاتية لصيقة بتخريجاته ودراسته، إذ «لا شك في أن الذات تلعب دائماً دوراً أساسيّاً في المعرفة إلى الحد الذي يمكن لنا معه القول بأنه لا يمكن تحصيل أي معرفة موضوعية بدون تدخل من الذات»[2].

(1) محمد وقيدي، **العلوم الإنسانية والإيديولوجيا**، طبعة دار الطليعة، بيروت 1983، ص. 80.
(2) المرجع نفسه، ص. 90.

ثالثا : انغلاق الآفاق (Blocage des horizons). ويقصد بذلك انسداد الآفاق أمام العلوم الإنسانية التي فشلت في تحديد موضوعها ومنهجها على غرار المنهج العلمي التجريبي الدقيق والموضوع المرتبط به. وهذا الإنسداد في نظر المعترضين يعود في الأساس إلى نظرتهم الضّيقة التي لا تفهم العلوم الإنسانية من داخل سيرورة هذه العلوم في تاريخها القديم والمعاصر، ومن خلال إنجازاتها وتطورها، وإنما تكتفي بالنظر إليها من بوابات العلوم الدقيقة، أي من الخارج ؛ فتقارنها بما تم إنجازه في حقول العلوم الدقيقة، وتفضي المقارنات طبعاً إلى إحساس بخيبة أمل كبيرة إزاء العلوم الإنسانية، ترجموها إلى مواقف الإعتراض المبرر أحيانا وغير المبرر أحيانا أخرى. ولعل تلك النظرة المعترضة تقوم على ثلاثة أسس هي :

أ ـ الفلسفة المثالية والروحانية التي لا تقبل أن يكون الإنسان موضوعا للعلم ؛

ب ـ النظرة إلى العلوم الدقيقة باعتبارها النموذج المنهجي الراقي ؛

ج ـ إغفال ما أنجزته العلوم الإنسانية من إنجازات مهمة في تاريخها المعاصر[3].

II ـ النقد الأدبي علم إنساني

إن العلم الإنساني هو كل فعالية علمية عملية تهتم بدراسة فعالية إنسانية ترتبط بإحدى نواحي النشاط البشري.

والنقد الأدبي، بهذا المعنى، ينسجم مع هذا التعريف. إذ النّقد فعالية ذهنية عقلية وذوقية، تتلو الفعالية الأدبية التي هي فعالية إنسانية.

فالناقد (le critique) يقوم بعمليات القراءة (lecture) والتحليل (analyse) والتأويل (interprétation) والفهم (compréhension) والحكم (jugement)، وهي عمليات ذهنية وذوقية تتدخل فيها القدرات العقلية والكفاءات الفنية عند الناقد.

وبالنظر إلى هذه الأصول التي يعول عليها في كل عمل نقدي، تتأكد الصفة الإنسانية في هذا العلم أكثر فأكثر.

---

(3) **المرجع نفسه**، ص. 100 (بتصرف).

ومنذ العصور القديمة كان النقد تابعا للأدب يشرحه ويفسره ويقيم أوده ويقوِّم عوجه ؛ وظلت الفعاليتان الأدبية والنقدية متلازمتين تلازماً حميماً في مختلف الآداب والثقافات منذ العصر اليوناني إلى اليوم.

ويعرف زماننا، أكثر من أي عصر مضى، نقاشاً كبيراً وصراعاً قويّاً بين المذاهب والاتجاهات حول النص الأدبي. فكل يتوق إلى احتضانه وممارسة حق الوصاية عليه.

ولعل أنصع صورة لهذا الصراع حول النص الأدبي هو هذا الجدل القائم بين فروع مختلفة من العلوم الإنسانية تحاول الاستئثار دون غيرها بالدراسة الأدبية.

وفي خضم الجدال النقدي، ظهرت اتجاهات اجتماعية وأخرى نفسية وثالثة لسانية ورابعة تاريخية وخامسة فلسفية، ومذاهب أخرى ضمن العلوم الإنسانية تحاول أن تستقل بدراسة الأثر الأدبي. وفيما يأتي صورة لهذا الجدل النقدي الذي شاركت فيه مختلف العلوم الإنسانية التي ترمي إلى ممارسة حق الوصاية المنهجية على النص الأدبي.

II.1. دراسة النص الأدبي بين العلوم الإنسانية :

اهتمت فعاليات علمية مختلفة بدراسة النص الأدبي منذُ التاريخ القديم، وتبنَّت فلسفاتٌ مختلفةٌ الخطابَ الأدبيَّ وسعت إلى تقديم شروح عنه وتفسيرات لجوانبه في إطار الدراسات الفيلولوجية واللغوية والبلاغية والذوقية الخالصة.

ومنذ محاولة أرسطو المشهورة في كتابيه «**فن الشعر**»[4] و«**فن الخطابة**»، كان النص الأدبيُّ والخطاب عرضة للتحليل والدراسة. وقد ساد نوع من الإجماع لدى الدارسين ومؤرخي النقد. على أن «**فن الشعر**» لأرسطو أوَّل محاولة نقدية تصدَّت للنص الأدبي من زاوية المعالجة النقدية المدعومة بالمنهج والأصول النظرية.

وقد ركز أرسطو اهتمامه على النصوص المسرحية اليونانية التي تشكِّل باكورة الإبداع الأدبي عند اليونان. ومهما كان الحديث يختلف حول نقد أرسطو ومنهجه في الدراسة النقدية للنصوص الأدبية، فإن محاولته تظل أولى المحاولات في مجال النقد الأدبي.

(4) أرسطو، **فن الشعر**، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، ط 2، 1973. انظر مادة أرسطو في : **Encyclopædia Universalis, t. 12, F1 404-406**.

وإذا رجعنا إلى تاريخ النقد، سوف نجد أن محاولات عديدة تلت عمل أرسطو، وجعلت من الدراسة النقدية للنصوص الأدبية علماً له أصوله النظرية وأدواته المنهجية والإجرائية وأجهزته المفهومية والمصطلحية. ويظهر ذلك الزخم والتنوع في الدراسات النقدية للنصوص، في التعاريف المختلفة التي صيغت للنقد الأدبي كعلم يشتغل في حدود النص الأدبي وما يكتنفه من عوامل قريبة أو بعيدة.

وكل تعريف يصاغ ضمن نظرة فلسفية أو علمية تجعل النقد الأدبي مرتبطاً بفعاليَّة فلسفيَّة أو علميَّة معيَّنة.

وهذه العلاقة بين النقد الأدبي وغيره من العلوم التي احتضنت دراسة النص وتحليله هي التي جعلت النقد الأدبي يتأرجح بين آتجاهات كثيرة، تدعي الوصاية عليه، وتفرض، على النص الأدبي تحليلًا يتفق ومقوماتها النظرية والمنهجية ورؤيتها الفنية.

وبما أن النص الأدبي فعالية بشرية، ترتبط باللغة ومكوناتها التعبيرية، فإن العلوم التي حاولت تبنِّي النقد الأدبي بآعتباره دراسة للنصوص الأدبية هي العلوم الإنسانية، التي تدرس الفعالية الإنسانية والظواهر البشرية المشبهة للفعالية اللغوية والقريبة منها. وأبرز هذه العلوم تبنّياً للنقد الأدبي ودراسة النصوص وآلِاهتمام بها في حقولها المعرفية : علم الِاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ والفلسفة واللسانيات.

وتبدو هذه العلوم برمتها صالحة لدراسة الأدب، لأن هذا الأخير يتكون من عناصر تستجيب لبعض نواحي تلك المعارف، فالنص الأدبي يتألف من مكونات نفسية واجتماعية وتاريخية وفلسفية ولسانية، ومن ثم فهو يستجيب مبدئيّاً لسائر الأسئلة التي قد تثيرها هذه العلوم والمعارف حوله.

فالعلاقة بين النقد الأدبي وهذه العلوم علاقة حقيقية، وليست وهما يمكن إنكاره. ولكنها علاقة تتخذ إحدى صورتين :

أولا : إما علاقة نظرية، تقوم على أساس نقل نظرية من علم إنساني إلى مجال دراسة الأدب ؛ فتتأسس نظرية في النقد الأدبي على غرار النظرية في ذلك العلم الإنساني.

ثانيا : وإما علاقة إجرائية، ويتم فيها نقل أدوات إجرائية ومنهجية من حقل العلوم الإنسانية إلى مجال الدراسة الأدبية، للِاستعانة بها وتوظيفها في تحليل النص الأدبي.

إن هذه العلاقة النَّظريَّة أحياناً والإجرائية أحياناً أخرى تدعونا للتساؤل عن طبيعة النقد الأدبي بما هو مجال معرفي يستفيد من هذه العلاقة المشار إليها. وسنحاول أن نبيِّن أشكال هذه العلاقة بين النقد الأدبي وغيره من العلوم الإنسانية في آلِاتجاهات النقدية المعاصرة، مركزين على الِاتجاهات الآتية :

1 ـ آلِاتجاه الِاجتماعي.

2 ـ آلِاتجاه النفسي.

3 ـ آلِاتجاه البنيوي اللساني.

وسيتبين من خلال هذه آلِاتجاهات ضرورة تكامل هذه العلوم الإنسانية المختلفة، لخدمة النص الأدبي وتقديم تحليل شامل بكافة مستوياته الإنسانية نفسية كانت أم اجتماعية أم تاريخية أم لسانية. ذلك بأن التكامل المنهجي صار أساساً ضرورياً لا مفرّ منه لتطور العلوم المعاصرة في إطار التصور الإپستمولوجي المعاصر لمفهوم التكامل والتداخل بين العلوم المتنوعة في سياق التطور الحضاري الذي يشهده العالم المعاصر وأنساقه الثقافية والفكرية والإپستمية الراهنة.

وسنورد أمثلة كبرى على أبرز العلوم الإنسانية التي سعت لاحتضان النص الأدبي ودراسته وهي : علم آلِاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة (اللسانيات).

II.2. اَلِاتجاه آلِاجتماعي :

إن الأدب ينشأ في ظل قيم المجتمع فيتأطّر بها، ويتبادل معها التأثر والتأثير في نوع من الجدل المستمر. وقد فطنت الأديبة دوستايل (Madame Destaël) إلى علاقة الأدب بالمجتمع، ووقفت على بعض أشكال هذه العلاقة في كتاباتها آلِاجتماعية ووسائلها الأدبية[5].

وقد أشار هيپوليت تين (Hippolyte Taine) إلى علاقة الأدب بالمجتمع، وحلل بعض عناصر هذه العلاقة، ووقف بوجه خاص عند مكونات الأدب آلِاجتماعية وربط الأدب بعوامل العصر والجنس والبيئة[6].

(5) انظر المضامين الِاجتماعية لرسائل هذه الأديبة ضمن أعمالها المنشورة. انظر ذلك في **Encyclopædia Universalis, t. 13, p. 318**.

(6) لتبين موقف متميز من هذه المسألة في دراساته حول تاريخ الأدب، انظر ذلك في **Encyclopædia Universalis, t. 15, p. 711-712**.

ولقد تطورت النظرة ٱلِاجتماعية للأدب مع ظهور الفكر الماركسي الذي نوه بالعلاقة بين الأدب والمؤسسة ٱلِاجتماعية.

ولقد اعتبر ماركس وأنجلز الأدب أحد أنواع الوعي ٱلِاجتماعي التي تعكس درجة التطور في المجتمع على مستوى بنياته الفوقية ذات الطابع الثقافي والفكري[7].

ولقد ٱستغل جورج لوكاش (G. Lukas) هذه التصورات الماركسية، فنقلها من صورتها الفلسفية العامة إلى رؤية أدبية إجرائية يفسر في ضوئها الأجناس الأدبية لا سيما جنسي الملحْمة والرواية.

إن التصور العام الذي انطلق منه جورج لوكاش في كتابه «**نظرية الرواية**» هو أن الرواية بصفتها جنساً أدبيّاً ظهرت في إطار سيرورة حضارية واجتماعية في المجتمع الحديث. وهذه السيرورة هي التي واكبها ظهور الطبقة الِاجتماعية الجديدة التي تدعى البورجوازية.

وإذا كانت هذه الطبقة جديدة على مستوى البناء ٱلِاجتماعي والسياسي لأوروبا القرن التاسع عشر، فإنها كانت جديدة أيضاً على مستوى الوعي الأدبي الذي ظهر معها، متجسدا في جنس الرواية (le genre du roman). هذا الجنس الذي يعتبره لوكاش مرتبطا بظهور هذه الفئة الِاجتماعية، لا سيما أن الرواية هي أرقى أنماط التعبير عن البورجوازية الحديثة. ففي كتابه «**نظرية الرواية**»، عرض لوكاش وجهة نظر دقيقة حول علاقة الأدب بالمجتمع وعلاقة الرواية كجنس أدبي جديد بأوضاع المجتمع وملابساته في الأنظمة البورجوازية الحديثة. وفيما يأتي وقفة عند كتابه «**نظرية الرواية**»، أعار لوكاش مسألة التمييز بين الرواية والملحمة ٱهتماماً كبيراً. ولم يردَّ الفرق بين هذين الشكلين التعبيريين إلى اختلاف قدرات المبدع وشروطه النفسية الداخلية، وإنما رد الفرق الحاصل بين الرواية والملحمة إلى «المعطيات التاريخية والفلسفية التي تفرض على إبداع المبدعين»[8]. سواء أتعلق ٱلأمر بالملحمة أم بالمأساة، فإن البناء العروضي يُعَدُّ عَلَامَةً مميزة تسمح بالتفريق بينهما : فالبيت الشعري في المأساة يتسم بالمتانة والقوة، وهو يخلق المسافات ويعزلها عن غيرها، إنه يدثر الأبطال ويغطيهم بذلك

---

(7) هذا هو المبدأ العام الذي تقوم عليه النظرية الإجتماعية في التصور الماركسي-انظر هذا في **Encyclopædia Universalis**, t. 10, p. 610-611.

(8) George Lucacs, **La théorie du roman**, coll. Méditations, éd. Gonthier 1963, Paris, p. 49.

العمق الذي توحي به إليهم الوحدة النّابعة من الشكل. إن البيت الشعري لا يترك بينهم أي علاقة غير علاقة المواجهة والتلاغي. ومن خلال غنائيته، تسمع أصوات اليأس والتخاذل ولا يسمح البيت الشعري في المأساة بما يسمح به النثر أحيانا، كإقامة علاقة هدوء وتفاهم إنساني ونفسي بين الأشخاص(9).

وإذا كانت الملحمة تؤثر في شمولية الحياة التي تعبر عنها، فإن الرواية تسعى إلى الكشف عن هذه الشمولية وبناء الشمولية الخفية للحياة(10).

ويميز لوكاش بين البطل في الملحمة والبطل في الرواية، فيذهب إلى أن البطل في الملحمة لا يكون شخصا واحدا، وإنما يكون جماعة وتلك ميزة أساسية في الملحمة. ذلك أنها لا تهتم بمصير الفرد، وإنما هي تصور مصير الجماعة.

ذلك بأن بناء الملحمة بناء جماعي، ولا يمكن للعنصر الفرد أن ينعزل عن المجموع.

في حين أن البطل في الرواية يدخل في عداد أشخاص كثيرين لا يكادون يتمايزون في العالم المتجانس الذي تقدمه الرواية. فهناك أبطال وأشخاص عاديون، ولكن الأبطال لا يتجاوزون غيرهم إلا بقدر قليل جدّاً من المزايا والمعتوهون يسمعون كلام الحكماء العاقلين(11).

ولقد ارتبط شكل الرواية بالمجتمع البورجوازي بطبقاته المميزة، وارتباط بالاهتمام بالتاريخ أيضاً كظاهرة ميزت التفكير البورجوازي. وقد اهتم لوكاش بالرواية التاريخية (le roman historique)، وهي شكل روائي يمزج بين الخيال (fiction) والتاريخ (histoire) من خلال بناء تخيلي لأحداث تاريخية معينة. ويرجع الفضل في ظهور هذا النوع من الروايات إلى السير والتر سكوت (Sir Walter Scott) وألكسندر دوما (Alexandre Dumas) وجيمس فنيمور كوپر (James Fenimor Cooper)(12).

وقد وجدت الرواية التاريخية مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالمرحلة الرومانسية، وخاصة

---

(9) Ibid, p. 49-50.

(10) Ibid, p. 50.

(11) Ibid, p. 60.

(12) Robert Anderson and Ronald Eckard, **Lexicon of Literary Terms**, NO Narch Press, 1977, p. 58.

أثناء ميلها إلى التاريخانية (historicisme). وهذا ما يفسر خصائصها الإيديولوجية والفنية التي تثبت حضور عناصر بنيوية في الرواية ظلت مهيمنة على القرن التاسع عشر برمته، ثقافة وفكراً وأدباً.

ولقد وقع التركيز في الجدال النقدي المثار حول الرواية التاريخية، على مجموعة من العناصر أهمها :

ـ الموضوعة التاريخية (la thématique historique) آلمرتبطة بفعل أو حركة مخترعة.

ـ المصادر والمعلومات (les ressources et les renseignements) التي تسمح بتمثيل عالم معين.

ـ وهْمُ القِدَم (l'illusion du passé)، ويتم التركيز على زمنين هما الحاضر والماضي. كما يتم توظيف الأساليب والتراكيب في الرواية لتمثيل التعارض بين الحقيقة والحكاية والتاريخ والخيال.

وقد أثارت هذه المعطيات جدلًا وصخباً نقدّياً كبيراً في القرن التاسع عشر[13].

إن حضور الوثيقة التاريخية (le document historique) واستعمالها داخل الرواية التاريخية صار مشكلًا رئيسيّاً لهذا النوع الأدبي.

فالقارئ المثالي (le lecteur idéal) يقتنع بكون النص أمامه مؤلفاً من وثائق تم توظيفها بشكل أو بآخر. وحضور الوثيقة داخل الرواية يسبب حساسية إيديولوجية معرفية وفنية.

فالوثيقة تستجيب لبعض مطالب الأدب التاريخي، وهي حضور تفاصيل فردية أو مجموعة من الأحداث الفردية التي من شأنها المساهمة في تشكيل رؤية تاريخيَّة (*vision historique*) توهم بالقدم[14].

(13) Tadonaz Buzikki, «Le genre de roman, les genres du roman», in **Ouvrage collectif**, Université de Picardie, P.U.F ed., 1981, p. 69.

(14) **Ibid**, p. 73.

وإذا كانت الرواية التاريخية كمقولة دخلت فن الرواية، قد انتشرت وذاع صيتها لدى مختلف الدارسين، فإن جورج لوكاش هو صاحب الفضل الكبير في دراسة الرواية التاريخية وتحليل دلالاتها الفنية والسوسيولوجية. فالرواية التاريخية تمثل رؤية للعالم (vision du monde) تتجذر في الواقع اليومي بكل تفاصيله التاريخية، وترتفع بهذا الواقع إلى مستوى فكري يعكسه لدى الروائي المبدع ذلك الواقع التاريخي.

وقد تمكن لوكاش من وضع نظرية لأشكال الأدب، وفسر هذه الأشكال في ضوء حركية المجتمع والتاريخ الذي يتبنى الأنواع الأدبية ويغذيها في نفوس المبدعين.

ولقد تطورت جمالية لوكاش لتصير إحدى الجماليات السوسيولوجية التي تفسر البنيات الأدبية بربطها بالبنيات الاجتماعية المولدة لها. وقد رسخ لوكاتش هذا التفسير بدفاعه عن الأطروحة القائلة بأن كل عمل أدبي هو رؤية للعالم بمستوياته الاجتماعية والفكرية والثقافية عند مجموعة اجتماعية معينة[15].

وإذا سلمنا مع لوكاتش بوجود علاقة وثيقة بين الأدب والمجتمع، فإننا لا نكاد نفهم علاقة الفن الأدبي، كبنيات دقيقة ذات طابع فني، بالمجتمع كطوائف وفئات تدخل في سياق حضاري وثقافي واسع تتبادل فيه التأثر والتأثير !

ولعل أبرز من وقف عند أنماط العلاقة الموجودة بين العمل الأدبي كبنيات أدبية فنية والمجتمع كبنيات اجتماعية وطوائف، الناقد الأوروبي لوسيان كَولدمان (Lucien Goldman) الذي قدم تحليلاً دقيقاً لعلاقة الأدب بالمجتمع في إطار منهجه النقدي الموسوم بالبنيوية التكوينية (structuralisme génétique)، وهو منهج يقوم على أساس دراسة التداخل الحاصل بين البنيات المختلفة للخطاب الأدبي والبنيات المختلفة للمجتمع الذي ينشأ فيه ذلك الخطاب الأدبي. ولقد حصر كَولدمان أنماط هذه العلاقة بين الأعمال الأدبية ومحيطاتها الاجتماعية، في كتابات كثيرة أهمها كتابه «**الإله الخفي**»[16] وكتابه الموسوم «**أبحاث جدلية**»[17]، وغيرها.

وسنحاول فيما يأتي تقديم الخطوط العريضة لمنهج كَولدمان القائم على أساس ما أطلق عليه رؤية العالم. ولقد استفاد كَولدمان من أعمال أستاذه لوكاتش، وحاول أن

(15) Lucien Goldman, **Marxisme et sciences humaines**, Ed. Gallimard, Paris.

(16) Lucien Goldman, **Le Dieu caché**, Ed. Gallimard, Paris, 1959.

(17) Lucien Goldman, **Recherches dialéctiques**, coll. Idées, Ed. Gallimard, Paris, 1959.

يطورَ هذا المفهوم. بيد أن الإضافات الأصلية لكَولدمان تجعلنا نطمئن إلى القول بأنه قد فاق أستاذه في مستويات، أهمها : ضبط المصطلح النقدي وإقامة رؤية منهجية نقدية على أساس مفهومي التفسير والفهم اللذين تقوم عليهما رؤية العالم كمنهج نقدي عند كَولدمان.

وتظهر استفادة هذا الناقد من حقول إنسانية مختلفة لبناء منهجه البنيوي التكويني في كثير من تحليلاته التي يظهر فيها أثر مختلف العلوم الإنسانية في رؤاه النقدية. فعن أساس علم اجتماع الأدب في هذا المنهج، يقول كَولدمان :

> إن أحد المظاهر الأساسية للطريقة الاجتماعية التي أتبناها ـ مثلها في ذلك مثل الفكرة الماركسية ـ هو التأكيد على أنه لا سبيل إلى بناء سوسيولوجيا وضعية ما لم تكن تاريخية، كما أنه لا يمكن أي بحث تاريخي أن يصير علميا إلا إذا كان بحثا سوسيولوجيا (...). وهكذا، فإن الطابع الإزدواجي للأحداث التاريخية والاجتماعية ـ من حيث هي بنية في حد ذاتها وواقع تاريخي في آلآن نفسه ـ يستلزم طريقة مزدوجة تكون اجتماعية وتاريخية في الوقت نفسه[18].

ومن هذا الكلام يظهر ميل كَولدمان إلى تبني الأساس الاجتماعي في التحليل لأن أي بحث تاريخي لا يمكن أن يتسم بدرجة من العلمية وآلصَّرامة المنهجية إلا إذا كان بحثاً سوسيولوجيّاً. ويهتم كَولدمان بالمجتمع ويصرح بذلك في حديثه عن منهجه النقدي عندما يقول :

> إن هذه المنهجية تولي المجتمع أهمية كبيرة، إذ أن الفكرة التي تقوم عليها البنيوية التكوينية هي أن أي تفكير في العلوم الإنسانية لا يمكن أن يتم إلا من داخل المجتمع وليس من خارجه. والتفكير جزء من الحياة الاجتماعية، وتطوره يؤدي إلى تحويل مسار هذه الحياة الاجتماعية ذاتها[19].

ولا يكاد يخفي كَولدمان ميله إلى تزويج التاريخ بعلم الاجتماع في منهجه التحليلي، إذ أن أي محاولة هادفة إلى فصل التاريخ عن علم الاجتماع أو العكس سوف تُسْفِرُ عن ظهور علمين هما : التاريخ وعلم الاجتماع (la sociologie)، وهما علمان يرفضهما كَولدمان في صورتهما المنفصلة، «لأنهما مجردان ولا تتأتى منهما الفائدة المرجوة والتي لا تحصل إلا باتحادهما»[20].

---

(18) Lucien Goldman, **Structuralisme génétique**, Ed. Gonthier. Paris, 1977, p. 17.

(19) Lucien Goldman, **Marxisme et sciences humaines**, p. 55.

(20) Lucien Goldman, **Structuralisme génétique**, p. 18.

وفي إطار هذا التصور التاريخي والإجتماعي، اعتبر كَولدمان أن لكل عمل دلالة تاريخية واجتماعية وفكرية. ومن بين الدعائم التي يقوم عليها المنهج البنيوي التكويني ذلك المبدأ القائل بأن الأفعال الإنسانية ما هي إلا استجابات من فرد أو جماعة تسعى إلى التغيير والتحويل وفق ما تمليه قناعاتها. وهذا ما يدل على أن لكل فعل بشري دلالة لا تكون دائماً واضحة، وإنما ينبغي للباحث تسليط الأضواء عليها وكشفها على حد تعبير كَولدمان[21].

فالبنيوية التكوينية منهج نقدي ينطلق من فرضية مؤداها أن كل سلوك، بشري يسعى إلى إعطاء إجابة دالة على وضعية معينة. ويهدف هذا المنهج إلى إقامة توازن بين فاعل الحركة (le sujet de l'action) وموضوعها (l'objet de l'action)، أي العالم المحيط. وهذا الميل إلى إقامة التوازن المزعوم ليس نهائيا وإنما هو ميل مؤقت، لأن أي تلاؤم بين البنيات الذهنية والعالم الخارجي يؤدي إلى تحويل السلوك البشري. مما ينجم عنه تحويل للعالم المحيط وخرق للتوازن القديم في سبيل إقامة توازن جديد سرعان ما يصير بدوره عرضة للتجاوز في المستقبل[22].

ويرى كَولدمان أن منهجه البنيوي التكويني يقدم نموذجاً رائعاً للدمج بين علوم إنسانية مختلفة في سبيل تفسير العمل الفكري والأدبي. ويظهر ذلك في اعتراف صريح يبيِّن فيه أن التحليل البنيوي التكويني في تاريخ الأدب لا يعدو أن يكون تطبيقاً لمنهج عام وشامل :

> نعتبره السبيل الأقوم والأوحد لدراسة العلوم الإنسانية. وهذا يعني أننا نعتقد أن الإبداع الثقافي مجال متميز، غير أنه من نفس طبيعة القطاعات الأخرى للسلوك البشري ؛ ولذلك فهو يثير أمام الدارس الصعوبات ذاتها التي تثيرها تلك السلوكات أثناء دراستها[23].

وتظهر صفات المنهج الكَولدماني بصورة أكثر وضوحا عندما يتحدث الناقد عن «رؤية العالم» باعتبارها منهجاً ناجعاً لقراءة السلوكات البشريةوقراءة الكتابة والتفكير.

(21) Lucien Goldman, **Marxisme et Sciences humaines**, p. 56.

(22) Lucien Goldman, **Pour une sociologie du roman**, p. 338.

(23) **Ibid**, p. 337.

ويقرر كَولدمان أن سلوكاً ما أو مكتوباً ما لا يصيران قادرين على عكس الوعي الجماعي إلا إذا تجاوزا فكر الفرد المبدع لهما. ويتحقق ذلك عندما تكون بنية ذلك السلوك أو المكتوب، قادرة على استيعاب توجهات جماعة اجتماعية معينة. وهذا، فضلا عن استيعاب التوجه الفردي الخاص لصاحبهما بطبيعة الحال[24]. وتعني رؤية العالم، عند كَولدمان، استخراج التصورات الثقافية والعاطفية لدى مجموعة من الأفراد المنتمين لفئة اجتماعية معينة. وهذه التصورات هي المحركة لتلك المجموعة والموجهة لأفكارها. وفي العمل الأدبي يتم إنشاء هذه الرؤية بواسطة الكلمات التي تخلق عالماً من الكائنات والأشياء[25].

ويقوم مفهوم رؤية العالم على ملاحظة التناظر بين فكر الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها المبدع وبنية العمل الأدبي الذي أبدعه. وهذا المفهوم للتناظر أو التماثل لا يقصد به التماثل بين معنى العمل الأدبي وفكر الطبقة الإجتماعية المعنية، وإنما يقصد به التناظر بين بنية العمل وبنية الطبقة. فهو تناظر على مستوى الأشكال وقد أخذه كَولدمان عن أستاذه لوكاش[26].

وقد أقام كَولدمان رؤية العالم كمنهج نقدي على مفهومين إجرائيين أساسيين هما : التفسير والفهم.

فأما عملية الفهم، فترتبط بفهم أواليات النص واستخراج دلالاته ومضامينه على مستوى الدراسة اللغوية والأسلوبية التي تبقى محصورة في نطاق النص نفسه[27].

وأما عملية التفسير، فتتم بالبحث عن دلالات النص والعوامل الفاعلة في إبداعه بما فيها العوامل النفسية والإجتماعية الخارجة عن النص. ذلك بأن كل العناصر الخارجة عن النص، كحياة المؤلف أو وعيه أو طبقته الإجتماعية ونفسيته، كلها عناصر ذات قيمة تفسيرية ينبغي النظر إليها من هذه الزاوية[28].

II .3. الإتجاه النفسي : ظهرت الدراسات النفسية في أوروبا وأمريكا؛

---

(24) Lucien Goldman, **Sciences humaines et Philosophie**, coll. Méditations, Ed. Gonthier, Paris, 1966, p. 132.

(25) Lucien Goldman, **Le Dieu caché**, p. 349.

(26) Robert Escarpit, **Le littéraire et le social**, Ed. Garnier-Flammarion, Paris, 1970, p. 80.

(27) **Ibid**, p. 81.

(28) Lucien Goldman, **Maxisme et sciences humaines**, p. 68.

وتطورت أساليب المواجهة النفسية والمعالجات السريرية على مستوى الدراسات التحليلية المرتبطة بمجالات الطب النفسي ؛ وتطور تبعاً لذلك تيار الدراسات الأدبية المستلهمة للإنجازات المنهجية في حقل علم النفس واتجاهاته المختلفة. وبعد أن تم النظر إلى الإرث الفرويدي نظرة جديدة، ظهرت دراسات نفسية حاولت أن تتلافى سلبيات النظرة القديمة في مجال التحليل الأدبي، وصارت تتخلّص شيئاً فشيئاً من مخلّفات الفهم الفرويدي للظاهرة الأدبية ؛ وظهرت مجموعة من المحاولات الجادة لفهم الإبداع الأدبي والفني عموما واستكناه إوالياته في حيثياتها النفسية وملابساتها الدقيقة، مستفيدة من علاقة الموضوع الأدبي بالموضوع النفسي ومستلهمة آفاق هذه العلاقة على مستوى الرؤية المنهجية والمجال التحليلي التطبيقي.

فقد كان فرويد (Freud) من أوائل علماء النفس الذين اهتموا بأوجه العلاقة الموجودة بين الظاهرة الأدبية والظاهرة النفسية. وقد حاول أن يفسر كثيراً من نواحي الحياة الأدبية والنصوص الإبداعية والأعمال الفنية من زاوية التحليل النفسي الذي يعد رائده دون منازع في العصر الحديث.

وإذا كان فرويد مؤسِّسَ المنهج النفسي في دراسة الأدب وتحليل نصوصه، فإن ما قدمه في هذا الجانب يظل ممثلًا للبدايات الأولى والإرهاصات الأساسية للمنهج النفسي في الدراسة الأدبية. وسوف نقف في حديثنا هذا عند مجموعة من العلامات المتميزة في تاريخ تطور الرؤية والمنهج في حقل الدراسات النفسية الأدبية. ولكننا قبل ذلك، نبدأ بعرض وجيز لوجهة نظر فرويد في مجال التحليل النفسي للظواهر الفنية والأدبية.

يلاحظ فرويد أن الغريزة الجنسية بسائر تجلياتها الشبقية، هي العامل الأساس في الفن والإبداع وسائر أنواع العُصَابات (les névroses)[29]. ويذهب إلى أن أي نشاط إبداعي أو فني إنما هو في أصله نوع من تفريغ الطاقة اللِبِدِيَّة (lébidinal) في مجال بعيد عن الدوافع الجنسية. وهذا التصريف للطاقة الشبقية يدعى تسامياً (sublimation). فالميول التي تكوِّن الغريزة الجنسية تتميز بقدرتها على التسامي، إذ يتم تحويل غاياتها الجنسية إلى أهداف أشرف وأسمى وذات قيمة مجتمعية كبرى. وإلى هذا التسامي النفسي يعود الفضل في أعظم الإنجازات الإنسانية وأنبلها[30].

(29) S. Freud, **Cinq leçons sur la psychanalyse**, Ed, Payot, Paris, p. 46.

(30) **Ibid**, p. 64.

وإذا تجاوزنا أعمال فرويد في المجال النفسي المرتبط بالدراسة التحليلية للنصوص الفنية، فإننا نجد في العهد المعاصر ثورة في علم النفس تنسينا كثيراً من معالم ماضيه. فقد غدا هذا العلم مؤسسة علمية ترتبط في جذورها بإِبِّستيمي معاصر هو إبستيمي الثورة الفكرية والعقلية المعاصرة. وقد ارتبط هذا التطور الكبير باقتحام علم النفس، بأدواته المختلفة وروائزه الدقيقة، مجالات الظاهرة اللغوية بما فيها بنيات التعبير اللغوية الأكثر تعقيداً.

فمع جاك لاكان (Jacques Lacan)، تطورت النظرة إلى اللاشعور كبنية يمكن أن تعالج من جهات دقيقة، بل إن لاكان يبني تصوراته في التحليل النفسي الجديد على أساس قاعدة عامة، وهي اعتبار اللاشعور بنية لغوية. ومن ثم دعا إلى ضرورة دراسة بنيات اللاشعور كما تدرس بنيات اللغة. وإذا كان مشروع لاكان يهتم بالظاهرة اللغوية ويدمج بين البنيات اللاشعورية النفسية والبنيات اللغوية، فإن تصوره لعلاقة التحليل النفسي وأدواتِه بالمجال الأدَبي ظلت محدودة. ذلك بأن لاكان لم يَجْرُؤْ على اقتحام دراسة النصوص الأدبية إلا في حدود ضيقة ؛ وذلك ما سنثيره فيما يأتي بتركيزٍ اعتماداً على بعض ما جاء في «**كتابات**»ـه[31] خصوصاً.

ففي هذاالمؤلَّف يسعى لاكان، كمحلل نفسي وعالم لسانيات وكفيلسوف، إلى دراسة اللغة والتعبير من منطلقات التحليل النفسي وتقنياته.

تساءل لاكان عن علاقة اللغة بالأحلام، فذهب إلى القول بأن للحلم بنية لغوية أكيدة. فهو خطاب لا شعوري، واللاشعور في نظر لاكان مُبَنْيَنٌ (structuré) مثل اللغة. إنه لغة غير واعية على حد تعبيره[32].

وقرر لاكان أن الرجوع إلى علم اللسانيات للاستعانة به سوف يقربنا من الطريقة التي ستتيح لنا فهماً أدق وإدراكاً أعمق للقيمة الخلافية التي تكتسيها لغتنا في سياق تأويل الثوابت والمتحولات[33].

وقد ركز لاكان على علاقة النقد الأدبي بعلم النفس والتحليل النفسي، وسار في ذلك على هدي أستاذه الأول فرويد الذي وضع لائحة للاختصاصات التي

(31) Jacques Lacan, **Ecrits**, coll. Points, Ed. Seuil, Paris, 1966.

(32) J. Lacan, **Ecrits**, 1/145-146.

(33) **Ibid**, t. 1, p. 168.

تكمل اختصاص التحليل النفسي. وهي تشكل، إلى جانب الدراسة النفسية والجنسية، تاريخ الحضارة وعلم الأساطير وعلم نفس الأديان وتاريخ الأدب والنقد الأدبي[34].

وإلى جانب هذه الإختصاصات التي يشترك لاكان في الدعوة إليها مع فرويد، في حقل التحليل النفسي، أضاف لاكان اختصاص علم البلاغة (Rhétorique)، والجدل بمعناه التقني الذي يكتسيه في «**طوبيقا**» (Topique) أرسطو، واختصاص النحو (Grammaire)، واختصاصاً يمثل ذروة جمالية اللغة وهو اختصاص الشعرية والنقد (La poétique) الذي يدور حول موضوعات منها ــ على حد تعبير لاكان ــ تقنية مهملة، هي فلتة اللسان (lapsus)[35].

وإذا نظرنا إلى التحليل النفسي في أوّلياته ومراحل تطوره، لاحظنا أنه ارتبط ــ عند ظهوره ــ باكتشاف الرموز ودراستها، وكان يدخل في عداد ما أطلق عليه في العصور الوسطى : الفنون الحرة (les arts libéraux)، وهي مجموع الفنون التي كانت تعوزها الصورية الدقيقة الحقيقية (véritable formalisme)، وظلت عبارة عن مجموعة من المشاكل المرتبطة بالإنسان[36].

وتطورت الدراسات النفسية في حقول النقد الأدبي. يقول روجي فَايُول (Roger Fayole) عن موجة النقد النفسي في فرنسا :

في دراسته المهمة الموسومة: «**من بودلير إلى السريالية**» (**De Beaudelaire au surréalisme**) كتب مارسيل رايمون (Marcel Raymond) يقول إن الدعوة إلى اللاشعور قد أتاحت لنا تصفية إحساسنا بالشعر وتعميق ذلك الإحساس والشعور. ولكن ظل النقد الأدبي في فرنسا مشوباً بالنزعة الصوفية التي كانت منهمكة في إظهار العلاقات الموجودة بين الشعري واللاهوتي. وقد تأخر توظيف تعاليم التحليل النفسي في هذا المناخ.

وفي سنة 1931 ظهرت ترجمات دراسة فرويد حول «**كَراديڤا ينسن**» (**La Garadiva de Jensen**) وكتاب يونج (Jung) «**علم النفس التحليلي في علاقاته مع العمل الشعري**» (...). وهذه المنشورات أعقبتها الدراسات الأولى

(34) Ibid, t. 1, p. 169.
(35) Ibid, t. 1, p. 169.
(36) Ibid, t. 1, p. 169.

للنقد التحليلي كـ«**فشل بودلير**» (**L'échec de Beaudelaire**)، للدكتور لافورغ (Dr. Laforgue) سنة 1931، و«**إدكار آلان پو**» (**Edgar Alain Poe**) لماري بوناپارت (Marie Bonaparte) سنة 1933، وأعمال شارل بودوان (Charles Baudouin) الذي كَتَبَ «**تحليل نفسي للفن**» (**Psychanalyse de l'art**) منذ سنة 1929. وكَتَبَ «**تحليل نفسي لفكتور هوجو**» (**Psychanalyse de V. Hugo**) سنة 1943. غير أن هذه الدراسات هي أقرب إلى الثقافة الطبية منها إلى النقد الأدبي : فهي تهتم بتأويل الأعمال الأدبية باعتبارها مجرد تعبيرات للاشعورٍ مرضيٍّ[37].

وقد سعى الدارسون النقاد بعد هؤلاء المحللين النفسيين إلى دراسة الأعمال الأدبية، عاملين على ٱلِاستفادة من منطلقات الدراسة النفسية، مع تلافي سلبيات النظرة الطبية للأعمال الأدبية وأصحابها. ولعل تعدد المحاولات النقدية التي وظفت التحليل النفسي تلزمنا بالوقوف عند بعض هذه المحاولات، لا سيما تلك التي يظهر فيها الِاتجاه النفسي واضحاً في أساليب التنظير وآفاق التحليل والمعالجة. ومن هذه الدراسات نموذج التحليل النقدي الذي يقدمه غاستون باشلار (Gaston Bachelard). يطلق روجي فايول على الِاتجاه الباشلاري الِاتجاه شبه التحليلي النفسي (psychanalytique).

ولا يدعي باشلار في نقده أنه سيقوم بتحليل نفسي علمي دقيق، وإنما يصرح بأن لتحقيق مثل هذا التحليل ينبغي الإلمام بثقافة طبية وخبرة كبيرة في معالجة العُصَابات. فهو يعتمد على القراءة، أي قراءة الأشخاص من خلال ما يكتبونه[38]. ويسعى باشلار في دراسته النقدية إلى رد الصور الشعرية إلى أصولها العميقة المتمثلة في العناصر الأساسية، أي الماء والنار والهواء والتراب. وهو بذلك يحاول أن يدرس العناصر المادية المكونة للخيال الثقافي التي تختلف من عمل أدبي إلى آخر.

ومن ينظر إلى عناوين مؤلفات باشلار، يحس بٱعتماد هذا الدارس على مفهوم الحلم وتوظيفه في سائر التأويلات النفسية المرتبطة بعوالم الحلم وأشكاله المختلفة. ومن أهم هذه المؤلفات :

* **تحليل نفسي للنار** (**Psychanalyse du feu**)، 1937؛

---

(37) Roger Fayolle, **La Critique**, Ed. Flammarion, Paris, p. 174.

(38) Gaston Bachelard, **L'eau et les rêves**, 1940, p. 14.

* **الماء والأحلام** (**L'eau et les rêves**)، 1940؛
* **الهواء والأطياف** (**L'air et les songes**)، 1942؛
* **أحلام الراحة وأحلام الإرادة** (**Les rêveries du repos et les rêveries de la volonté**)، 1945؛
* **شعرية المكان** (**Poétique de l'espace**)، 1957؛
* **شعرية الأحلام** (**Poétique de la rêverie**)، 1961.

وقد كانت علاقة باشلار بالنقد الأدبي علاقة غير أصيلة، لأنه انحدر إلى النقد الأدبي من محاولات فلسفة العلوم والإبستمولوجيا والرياضيات. لذلك كانت آراؤه النقدية وتحليلاته ذات طابع علمي فيما يرتبط بتوظيف الأنساق الفكرية وفهم معطياتها المادية، في حين ظل خطابه النقدي يميل نحو الخطاب الفلسفي ويستعير منه أكثر الأدوات والمفاهيم. وحتى توظيفه للتحليل النفسي لم يكن ليعكس آستيعاباً دقيقاً لمناهج التحليل النفسي ولا دراية عميقة بتحولاته وتطوراته الميدانية، وإنَّما ظلّ تحليله يتسم في الغالب بالعمومية. وهذا أمر صرح به باشلار في صدر كلامه في كتابه «**الماء والأحلام**»، حيث أشار إلى أن فاقد الثقافة الطبية وعديم الخبرة بالعُصَابات وأنواعها لن يفلح في تقديم دراسة نقدية دقيقة على مستوى التحليل النفسي للأدب.

وإذا كان عمل باشلار يتسم بطابع العمومية والتوظيف غير الدقيق لمناهج التحليل النفسي في مجال الدراسة الأدبية والنقدية، فإن فئة من الدارسين المعاصرين حاولوا تطبيق طرق التحليل النفسي على الأعمال الأدبية ؛ وظلوا في الوقت ذاته محافظين للأعمال الأدبية والنصوص الجمالية على طوابعها الذاتية الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها من الخطابات والنصوص في الثقافة الإنسانية.

ومن هؤلاء النقاد المحلِّلين ج. ب. ريشار (Jean Pierre Richard) وجورج بولي (George Poulet) وجان ستاروبنسكي (Jean Starobinsky). فهؤلاء النقاد لم يوظفوا من تقنيات الدراسة النفسية إلا القسط الضروري الذي يضمن للأدب استقلاله عن غيره من مجالات المعرفة. ويقول روجي فايُول معلِّقاً على عمل أحد هؤلاء النقاد وهو بولي :

> إنه كان أكثر اهتماما بالميتافيزيقا، كان يتخذ موقف الفيلسوف، عندما يستنطق الأعمال الأدبية. بيد أن نسقه الفلسفي يتألف من مقولتين أساسيتين هما : مقولة

المكان ومقولة الزمان. كيف يتصرف الكاتب أمام المكان وأمام الزمان ؟ ذلك هو السؤال الذي يضعه پولي في دراساته وأهمها كتاب : «**دراسات حول الزمان البشري**» (**Etudes sur le temps humain**)، وكتاب «**المسافة الداخلية**» (**La distance intérieure**)، وكتاب «**تحولات الدائرة**» (**Les métamorphoses du cercle**)، وكتاب «**المكان البروستي**» (**L'espace proustien**). فهو يبحث في كتابات هؤلاء عن وضعية أولية أصلية، يحاول البعض التمص منها أو إعادة تنظيمها وتشكيلها. إن العمل الأدبي يصير إذن، بهذا المعنى، عنواناً على آنتصار هؤلاء الكتاب أو فشلهم[39].

أما ج. پيير ريشار، فإنه يبحث في كل عمل عن معنى ساذج وضمني، ولغة تحت اللغة (infra-langage) تعكس إواليات اللاشعور المبدع لذلك العمل.

وبهذا المعنى يصير العمل بنية تعكس شخصية صاحبه، ويتساءل پ. ريشار عن علاقة المبدع بالعالم وعن كيفية التعرف عليه والتكلم عنه والإحساس به. وتلك هي أهم الأسئلة التي حاول هذا الناقد الإجابة عنها في أطروحته المشهورة (1962) حول مالارمي وعالمه الخيالي، الموسومة بـ : «**العالم الخيالي عند مالارمي**» (**L'univers imaginaire chez Mallarmé**). وسنقف قليلا عند تطبيق أدبي نقدي لهذا الدارس في كتابه «**الشعر والأعماق**» (**Poésie et profondeurs**)، وهو عنوان يعكس الوجهة النفسية المستبدة بالتحليل الأدبي عند ج.پ. ريشار.

فقد أشار جان پيير ريشار، في كتابه هذا، إلى أن عمله هذا يُعَدُّ تتمة لمشروع نقدي بدأه في كتابه الأول «**الأدب والإحساس**» (**Littérature et sensation**). وقد حاول المؤلف في عمليه النقديين السابقين الوقوف على ملامح اللحظة الإبداعية التي يتم فيها الإبداع والخلق لدى المبدع. وقد سعى المؤلِّف إلى فهم تلك اللحظة الحاسمة التي «ينظر فيها المؤلف إلى نفسه ويلمس ذاته وتتكون هُوَيَّته وكيانُه من خلال العلاقة المباشرة بإبداعه، إنها اللحظة التي يأخذ فيها الكون معنى من خلال عملية وصفه بواسطة اللغة التي تمثله وتحل مشاكله»[40].

أحس ريشار بأنه من خلال بيت شعري جميل أو جملة مرحلة أو صورة أو

---

(39) Roger Fayolle, **La Critique**, p. 176.

(40) Jean Pierre Richard, **Poésie et profondeurs**, coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1955.

وصف أو حركة إيقاعية أو صمت، يكتشف المبدعون الكبار عظمتهم ويصنعونها كما يكتشفون حقيقتهم الإنسانية ويخلقونها[41].

ويعتبر هذا الناقد الإبداع مغامرة تتحكم فيها ميولات المبدع وغرائزه ورغباته : إذ أن لكل مبدع نيات أساسية تهيمن على مشروعه ومغامراته. وقد حاول ج. ريشار في كتابه أن يزيح النقاب عن مستويات الفعالية الخفية التي تظهر آثارها في سائر مستويات العمل الأدبي، سواء أكانت ظاهرة أم لطيفة خفية. فالناقد كان يعتقد أن «حقيقة شاعر ما تكمن في أشعاره أكثر من كونها في أقواله عن الشعر»[42].

وطفق ريشار يبحث عن أسباب عظمة الشعراء الكبار أمثال بودلير (Beaudelaire) ورامبو (Rimbaud) ونرڤال (Nerval) وڤرلين (Verlaine)، من خلال تحليل أشعارهم باعتبارها تحمل رموز نفسياتهم وتعكس أمزجتهم ومستويات هدوئهم وتوترهم الداخلي. وهذه عوامل تتفاعل كلها في مَخاضاتهم الإبداعية. وقد كان ريشار يكشف عن أعماق هؤلاء الشعراء من خلال سبر أغوار شعرهم المسكون بهوس الضياع والإحساس بالتردي في الهاوية (l'abîme)، بل إن ريشار كان يؤمن في تحليله بأن المغامرة الشعرية لهؤلاء الشعراء تتمثل في تجربة الهاوية، هاوية الشيء والوعي والآخرين وهاوية الإحساس أو اللغة. إن الشخص في تصورهم ضائع تائه في وحدته العميقة والرهيبة. ومن عمق هذه الأعماق يتجلى للعيش والوعي. إن هؤلاء الشعراء سيسعون على حد تعبير ريشار إلى احتلال الأعماق والاستئناس بها والتحرك فيها[43].

ومع ستاروبنسكي، سيفكر الناقد الأدبي في علاقة النقد بالمناهج النفسية على مستوى التحليل. فمن دراسته الرائدة الموسومة بـ«**الشفافية والعائق**» (**La transparence et l'obstacle**)، حول ج. – ج. روسو (J.-J. Rousseau)، التي ظهرت سنة 1958، ظهرت ملامح الاتجاه النفسي في الدراسة النقدية لستاروبنسكي. وتطورت هذه النظرة في كتابه الموسوم «**العين اليقظة**» (**L'œil vivant**) الذي صدر سنة 1961، والذي ضم بين دفتيه مجموعة من المقالات والدراسات التي اهتم فيها ببيان دلالة النظرة (le regard) عند كثير من الأدباء[44].

---

(41) **Ibid**, p. 9.

(42) **Ibid**, p. 10.

(43) **Ibid**, p. 10.

(44) حول **النظر النقدي** (**Le regard critique**)، يقول جان ستاروبنسكي (Jean Starobinsky) : «الناقد

وفي كتابه الموسوم بـ«العلاقة النقدية» (**La relation critique**)، نجد بعض العلامات الكبرى لتصور ستاروبنسكي النقدي. وسوف نركز الحديث هنا على منطلقاته في تحليل علاقة الأدب بالتعليل النفسي.

إن رواية «**كَراديفا**» لِيَنْسَنْ (Jensen)، مليئة بالأحلام التي حاول فرويد أن يحللها من الزاوية النفسية، باعتبارها أحلاماً كان المؤلف يعيها ويقصدها قصداً. وقد ركز فرويد على الفكرة القائلة بأن الرواية والخيال شاهدان على الجانب النفسي ومرتبطان به. وقد علق ستاروبنسكي على عمل فرويد مبيّناً أنه «هكذا يجد التحليل النفسي ما يؤكده ويبين قيمته الإجرائية في مجال بعيد جدّاً عن مصحة الأمراض العصبية. إن الأدب والتحليل النفسي يستفيد أحدهما من الآخر سواء بسواء»(45).

وهكذا لا يكاد يشك ستاروبنسكي في جدوى التحليل النفسي في الدراسة النقدية للأدب، بل إنه يضيف جازماً : «.. في الوقت الذي نتساءل فيه عن جدوى التحليل النفسي في النقد الأدبي، علينا أن نعكس السؤال. إذ يجب أن نتساءل عن العناصر التي استمدها التحليل النفسي من الأدب ودمجها في بنيته المذهبية الخاصة»(46).

ويؤمن ستاروبنسكي بأصالة التحليل النفسي من حيث هو أداة ناجعة للدراسة في مجال الأدب. وهذه الأصالة لا تقبل الجدال، لأنه من قبيل العبث التشكيك في هذه الأصالة.

وقد ظهر التحليل النفسي مرتبطاً بالأدب وغيره من الظواهر الإنسانية في زمن كانت فيه هذه الأخيرة متداخلة بصورة حميمة يصعب معها عزل هذا العلم عن ذاك. تحولت الأفكار حول العلم في تلك المرحلة إلى نوع من الفلسفة البديلة عن الفلسفة الميتافزيقية القديمة(47).

= هو ذلك الشخص الذي يوافق على الإنبهار الذي يفرضه عليه النص الأدبي، ولكنه يحاول في الوقت ذاته المحافظة على حق النظر (Le droit au regard). إنه يرغب في التوغل أكثر في العمل، ومن ثم فالمعنى الذي يتجلى له ينم عن دلالة خفيَّة (une signification latente). وهكذا فإن تدقيقا إضافيا (une vigilence supplémentaire)، يلزمه بصورة أساسية (Jean Starobinsky, **L'œilVivant** (introduction), Ed.1961).

(45) J. Starobinsky, **La relation critique, L'œil Vivant**, t. II, p. 258.

(46) **Ibid**, t. II, p. 259.

(47) **Ibid**, t. II, p. 259-260.

أما شارل مورون (Charles Mauron)، فإنه يدعي العلمية لمنهجه النفسي في التحليل الأدبي. ولذلك، فهو لا يتردد في تسمية مذهبه بالنقد النفسي (Psychocritique). وهو يصرح بأن ما يدعوه نقداً نفسيّاً إنما هو اتجاه علمي. ونورد هنا نصّاً واضح الدلالة على نوايا هذا الناقد ومزاعمه في هذا الإطار. يقول :

ما أدعوه نقداً نفسيّاً يبدو لي علماً قيد النشوء والتطور، وهو علم يبحث عن منهجه، ولنقل ذلك بصراحة : إن ظاهرة معقدة وغامضة كالإبداع الأدبي تستلزم مجموعة من نماذج التحليل. وبدل أن تتلاغى هذه الأخيرة، فإنها تتكامل. وكل طريقة تبدو لي صالحة شريطة أن تعتمد على وقائع ونصوص، وشريطة أن تعلمنا وتخبرنا أكثر بشأن الكاتب أو الناقد.

إن النقد النفسي يهدف إلى تمييز المصادر اللاشعورية في عملية الخلق الأدبي، ولكن طريقته (...) تجعله يبحث عن تركيب تتداخل فيه سائر النتائج المحصل عليها في المجالات الأخرى. ويتم ذلك التداخل بصورة طبيعية[48].

ويركز مورون على طابع التداخل بين الأدب وظواهر اللّاشعور في كتابه الموسوم **«من الإستعارات الملحة إلى الأسطورة الشخصية»** (**Des métaphores obsédantes au mythe personnel**). إذ رفض قيام علم للّاشعور، وصرح بصعوبة الدمج بين بنيات اللّاشعور وحالاته والبنيات التي تتكون منها الأعمال الأدبية باعتبارها تعكس الأسطورة الشخصية لأصحاب تلك الأعمال. ويرى مورون أن الكبرياء والصَّلَف الذاتي تحول دون تصريح المختصين في هذه المجالات بتلك الصعوبات الجمَّة التي تكتنف دراسة الظواهر النفسية واللاشعورية[49].

اهتم مورون بدراسة اتجاه فرويد، وتحليل مؤلفاته بصورة عامة ؛ واتجه اهتمامه بصفة خاصة إلى مظاهر اللاشعور وتجلياته في الأحلام وأحلام اليقظة والآثار الأدبية. وقد حاول مورون، في إطار بحثه عن الشخصية اللّاشعورية للكاتب، أن يحلل العلاقات الخفية بين المبدع ومكونات عالمه النفسي وكونه الإبداعي.

---

(48) انظر رأيه بالتفصيل حول النقد النفسي ومستويات التداخل بين النقد وعلم النفس في التحليل الأدبي، في مقال له ضمن أعمال مجموعة في : **Théorie et problèmes, Contribution à la méthodologie littéraire, Librairie** Copenhague, 1958.

(49) انظر رأيه في كتابه، **Des métaphores obsédentes au mythe personnel**, coll. Idée, éd. Seuil, p. 30.

وقد لاحظ مورون، في سياق عمله، حضورَ تيماتٍ (thèmes) بعينها في آثار كل كاتب على حدة، وهي تيمات تلح على الأديب إلحاحاً، وتوجهه بصورة مستمرة. وهي تتداعى بشكل لا إرادي في ذهن المؤلِف فتكوِّن أسطورته الشخصية، التي تزيح النِّقاب عن عناصر الإبداع وخلفيَّاته في نفسية المبدع. ويتحقق فهم الأسطورة الخاصة بكل مبدع من خلال دراسة معمَّقة للتيمات المترددة في أعماله. ومن سمات هذه الأسطورة الشخصيَّة تجذُّرها في أعماق الكيان الطفولي للكاتب، وما تفتأ تغذِّيها عوامل ذاتية وموضوعيَّة خلال مراحل الأديب إلى أن تدفعه إلى الإبداع دفعاً بعد مخاضٍ طويل. ولهذا لا يكاد يشك مورون في أن كل أديب يحمل بين ثناياه آثار طفولته المبكِّرة في أسطورته الشخصية.

II. 4. الإتجاه اللساني والنقد الجديد :

تطور البحث اللساني المعاصر فرفع لواء الموضوعية والدراسة الوضعية للغة وسرعان ما انتقلت عدوى هذه الدراسة إلى مجالات تحليل الأدب على أيدي اللسانيين أنفسهم في بداية القرن العشرين مثل فردينان ده صوسِّير (Ferdinand de Saussure) ورومان ياكبسن (Roman Jakobson).

ونظراً لتعدد مجالات النقد الذي استفاد من الدرس اللساني واستلهم تطوراته، سوف نقف عند تجربة متميزة في مجال النقد الجديد الذي أعلن العصيان على موجة النقد الكلاسيكي سائرُ تياراته بما فيها النقد الجامعي. ولعل أهم ممثل للنقد الجديد في بداياته اللسانية والأدبية رولان بارط (Roland Barthes) الذي اتخذ التمرد على النزعة النقدية المحافظة شعاراً يضيء مسيرته النقدية التي سعت إلى طمس معالم النقد الكلاسيكي وتجاوزه بعد فضح عجزه عن مواجهة معضلات الموضوع الأدبي والدراسة الأدبية كما فهمها بارط في نسقه النقدي، الذي سنحاول أن نقدم بعض خطوطه العريضة لعلها ترسم أمامنا صورة واضحة لما كان عليه تداخل العلوم اللسانية والأدوات التحليلية السيميائية، في جهود بارط النقدية. ومن أبرز المشكلات التي أثارها بارط في كتاباته المختلفة : مشاكل الكتابة والأسلوب ونقد اللذة وهُوِيَّة الموضوع الأدبي، وحدود التاريخ الأدبي، وسميائية الفضاء الأدبي وغيرها من الموضوعات التي نثيرها في التحليل الآتي.

لعلّ أهم المشكلات النقدية التي اهتم بها بارط وتحدث عنها طويلًا في كتاباته مشكلة الكتابة والأسلوب، وعلاقة الأدب بالنقد.

نبدأ بمناقشة بارط لقضايا اللغة والأسلوب والكتابة. فهو يبرز الطابع الإشكالي لهذه الموضوعات بصورة دقيقة. إن دستور اللغة هو أحد الجوانب التي أثارها بارط وحللها. فهو يقرر أن اللغة معطى اجتماعي، وهي عبارة عن تعليمات وعادات اجتماعية كما أنها معطى سابق وقبلي يوجد قبل الأديب والكاتب. واللغة بهذا المعنى هي دائرة مجردة من الحقائق[50] ؛ كما أنها ملك للجميع لا يتخص بها فرد دون آخر أو قوم دون قوم، بل هي معطى اجتماعي يحتوي التاريخ كله.

أما مستوى الأسلوب، فقد درسه بارط دراسة موسعة وطريفة بحق. فهو يقرر أن الأسلوب صور وتدفق ينبثق من الكاتب ويلتصق بخصائص منه. وإن الأسلوب يتعمق الأساطير الشخصية للكاتب، ويقبع في أغوارها البعيدة. إنه أيضا نتاج لاندفاع يقضي إلى نية أو قصد معين.

إن الأسلوب هو ذلك البعد العمودي للفكر، وهو بعد يرتبط بمستوى بيولوجي يرتبط بالذكرى المنغلقة للشخص. إنه صوت مزخرف يعمل كما تعمل الضرورة. وهو أيضاً ظاهرة وراثية ذات كثافة خاصة. إن الأسلوب في نهاية المطاف سر مغلق[51].

أما مستوى الكتابة، فقد اهتم به بارط وحدد مزاياه. فالكتابة هي ذلك الحد الوسط بين اللغة والأسلوب. إنها منطقة الإبداع. إنها الأدب. وهي مجال ممارسة الحركية، والحركية توازي الإبداع. يتساءل بارط عن الكيفية التي يتم بها الإبداع في الكتابة وهي تحتوي على اللغة والأسلوب. فيجيب مبيِّناً أن اللغة معطى آجتماعي يمارس ضبطاً وقمعاً، ولا يمنح فرصة التحرر على المستوى التصاعدي للفقرة والنص والعمل الأدبي بصورة عامة. كما أنه لا منح هذه الفرصة على المستوى التنازلي المرتبط بضرورة الخطِّيَّة والسطرية (la linéarité). لهذا، فإنه لا يتحتم علينا، إذا رُمْنَا دراسة الأدب، الاهتمامُ باللغة لأنها مادة الأدب فقط، كما أن الألوان مادة الرسم ولكن ليست هي الرسم ذاته.

فلتحقيق معرفة أدبية، ينبغي دراسة عنصر يخترق صلابة اللغة، وهو عنصر الأسلوب الذي يعد آستخداماً فردياً للغة. ومن ثم، فهو يحمل سحنات موقف ذاتي

(50) Roland Barthes, **Degré zéro de l'écriture**, coll. Points, Ed. Seuil, p. 11.

(51) **Ibid**, p. 13.

باعتباره لغة خاصة ونظاماً خاصّاً ؛ ومصدره بيولوجي يعكس أشد الحالات خصوصيَّة لوجود المبدع. بيد أن الأسلوب بدوره لا يمكّننا من دراسة الأدب والوصول إلى حقيقته، لأن الأسلوب لا يمثل الحرية، فهو يتعزَّز من سلطة اللغة ليسقط أسيراً لسلطة بيولوجية. وهو إذ ينفصل عن القوة الاِجتماعية للغة يقع في شرك القوة البيولوجية الذاتية الصارمة.

والأسلوب هو الآخر ضابط وقامع للمبدع، يثقل كاهله بموروثاته وخصائصه التي لا يمكن الاِنقطاع عنها.

وهكذا يقتل الأسلوب حرِّيَّة المبدع كما قتلتها اللغة من قبل. ولم يبق للأدب متنفس سوى كوة الكتابة (l'écriture)، وهي البعد الثالث الواقع بين اللغة والأسلوب. إن الكتابة موقف ثوري يتمرد على القوة الاِجتماعية المتمثلة في اللغة وعلى القوة البيولوجية المتمثلة في الأسلوب ؛ وتفتح الكتابة أفقاً جديداً لممارسة الحركيَّة[52].

إن الكتابة تركيب جدلي بين الحرية والضرورة. فالحرية لا تؤخذ دون ضرورة، والعكس صحيح. وقد لاحظ بارط «الكتابة» باعتبارها تشتمل على ما هو اجتماعي (أي اللغة) وما هو ذاتي (أي الأسلوب).

إن الكتابة بهذا المفهوم هي محور الإبداع في النص الأدبي. وهي موضوع الشعرية (La Poétique) في تصور بارط. وهي بؤرة التفاعل الخلاق بين اللغة والأسلوب، وبين الحرية والضرورة، وبين الاِجتماعي والفردي، وبين العام والخاص[53].

إن الموقف من الكتابة موقف اختيار يتخذه المبدع عن وعي تام. وهو في هذا الاِختيار يواجه مصيره الأدبي في ما يدعوه بارط بمستودع الأشكال الأدبية (Le réservoir des formes littéraires)، على غرار ما يواجه الإنسان مصيره في الحياة العامة في إطار الفلسفة الوجودية.

إن الكتابة لا تعني الحرية المطلقة، وإنما هي حرية تعترف بالآخر في صورته الجماعية (أي اللغة) والفردية (أي المستهلك الذي يفرض ذوقه على المبدع).

---

(52) **Ibid**, p. 11-12.

(53) **Ibid**, p. 11-12.

والكاتب الواعي (l'écrivain conscient) هو الذي يأخذ بعين الإعتبار الضرورة الإجتماعية والحقيقة الفردية في إبداعه، وعلى هذا المستوى تلتقي الكتابة بالتاريخ.

إن التاريخ وعي بالواقع الذي حدث في الزمن، والكتابة هي كذلك وعي بالوقائع اللغوية.

وقد لاحظ بارط أن الكتابة لا تظهر إلا في لحظات الأزمات الكبرى ومع الثورات الإجتماعية. والتاريخ نمط من الجدل. والكتابة بدورها نمط من الجدل كما أنها تركيب (synthèse) بين اللغة والأسلوب. إنها جدل مستمر بين الضرورة الإجتماعية والحقيقة الفردية.

إن هذه النظرة للكتابة تصفيها من شوائب النظرة القديمة التي تربطها بالدراسة الفيلولوجية أو النفسية أو الإجتماعية.

هكذا يتضح في النظرة البارطية أن موضوع الأدب حقّاً هو الكتابة، لأن علم الأدب بهذا المعنى يدرس الكتابة كموضوع أساسي.

فإلى أي حد وعت الدراساتُ الأدبيَّةُ خصوصيَّة الموضوع الأدبي.

يرى بارط أن تاريخ الأدب مثلًا لم يع هذه الخصوصية. لذا ظل مستقلًا لا صلة له بالأدب وبدراسته.

وقد أثار هذا الوضع اهتمام بارط، ففكر في تاريخ الأدب ووقف عند سلبيَّات النظرة القديمة لتاريخ الأدب. فما هي سلبيات هذه النظرة التي شجبها بارط بحدة ؟

تتجلّى هذه السلبيَّات في ثلاثة أمور كبرى هي :

أ ـ أن التاريخ الأدبي ظل في النظرة القديمة يركز اهتمامه على الشخصية (الأديب)، ويعتبر العمل الأدبي معطى ثانويّاً. ولاحظ بارط مثلًا أن دارسي راسين (Racine) ركزوا على تاريخ الشخصية والعصر والمجتمع، وأغفلوا النص الأدبي المتمثل في النصوص المسرحية التي أبدعها هذا الأديب.

ب ـ أن التاريخ الأدبي الكلاسيكي يغالي في البحث عن جزئيات حياة الأديب وملابسات وضعه الإجتماعي. ويتم البحث في هذا الإطار عن مماثلات دقيقة

بين- بعض أعمال الأديب ولحظات من حياته. والمثال الصارخ على هذه المماثلة المقابلةُ بين مسرحيَّة «**أندروماك**» (**Andromaque**) لراسين وحياته الشخصية. وهذا التماثل يعترض سبيل الدراسة الأدبية، يفضي بها إلى نوع من التوهم المؤسس على مغالطات لا يسندها دليل أو برهان.

ج ـ أن التاريخ الكلاسيكي للأدب يعتمد على جمع الوثائق والمستندات التي تيسر عملية تفسير العمل الأدبي. وهذا التفسير يتعلق في أغلب الأحوال بمسلمة نظرية أو اجتماعية أو دينية، تعتبر المفتاح السري لذلك العمل. فهذه المسلّمة تمنح التفسير طابعاً تأويليّاً، فتصبح لدينا تواريخ أدب متعددة منها الاِجتماعي والنفسي، إلخ. وتختلف هذه التواريخ باختلاف المسلمة أو المسلمات الموجهة لتاريخ أدب معين.

من خلال مناقشة بارط لمشكلة الدراسة الأدبية وأزمة النص الأدبي في النظرة الكلاسيكية لتاريخ الأدب، آستنتج هذا الناقد مجموعة من النتائج التي هداه إليها تفكيره الدقيق في المشكلات السابقة. وأهم هذه النتائج فيما يبدو لنا ما نشير إليه الآن :

ـ لاحظ بارط غياب الأدب ككتابة تمثل نسقاً وتركيباً جدلياً في المناهج الكلاسيكية لدراسة الأدب.

ـ لاحظ بارط أن تاريخ النقد أو الشعرية هو تاريخ للكتابة. ذلك بأن الكتابة في حركة تصدعها وتحوُّلها ضمن نسق التحولات الاِجتماعية توازي التاريخ وتفتح أفقا للشعورية التاريخية.

ـ لاحظ بارط أن للكتابة قدرة على التحول، إذ تنقل الكائن الخارجي في العالم إلى كائن رمزي في اللغة(54).

رد بارط الاِعتبار إلى النص الأدبي بعد أن حل معضلة الموضوع الأدبي الذي أغفلته المذاهب الكلاسيكية. ورسخ معتقده الجديد الذي سماه بالكتابة، وفكر في منهج يصلح لدراسة النصوص الأدبية ويقضي على مخلفات ماض منهجي «معتم»، فآهتدى إلى المنهج البنيوي باعتباره منهجية في مجال التحليل النصي للأدب. واستجابة لهذا الهاجس الثوري، كتب بارط دراسته المشهورة الموسومة بـ«ـمدخل إلى التحليل

---

(54) Ibid, p. 11.

البنيوي للنصوص» («Introduction à l'analyse structurale des récits»)[55]. وقد انطلق بارط من واقع مفاده أن النصوص السردية كثيرة ومتنوعة بشكل كبير، ويمكن للسرد أن

> يستعمل اللغة شفاهية أو مكتوبة، ويستعمل الصور الثابتة أو المتحركة ويستعمل الحركة أو مزيجاً منظماً من هذه العناصر كلها. فالسرد حاضر في الأسطورة والخرافة والحكاية والأقصوصة والملحمة والقصة والمأساة والدراما والملهاة والإشارات الميمية ولوحة الرسم واللوحة الزجاجية والسينما والنوادر والخبر والحوار[56].

وقف بارط عند علاقة الأدب باللسانيات من وجهة نظره البنيوية، فبين نوع التأثير القوي الذي صارت تمارسه اللسانيات على سائر حقول المعرفة ولا سيما العلوم الإنسانية. ويبدو له أن الأدب أقرب هذه المجالات إلى اللسانيات وموضوعها[57].

ولقد تحدث بارط عن علاقة الأدب بالنقد الأدبي وحدد كلا المجالين من زاوية البنيوية. ولعل تصنيف بارط في خانة النقد البنيوي يرجع إلى عوامل أهمها :

1 ــ تحديده لاتجاهه النقدي في كتابه «**أسطوريات**» (**Mythologies**) حيث يقرن اهتمامُهُ النقدي باهتمامه اللساني في الطابع البنيوي والسيميولوجي.

2 ــ اعتماده على الأدوات اللغوية والأبحاث البنيوية في المجال اللساني خلال نشاطه العلمي في معهد الدراسات العليا في باريز.

3 ــ لجوؤه إلى توظيف أدوات الطريقة البنيوية في التحليل في دراسته الرائدة «**حول راسين**» (**Sur Racine**)[58].

4 ــ دراسته للأنظمة الإشارية في المجتمع في ضوء المعطيات اللسانية، وخاصة الأبحاث المرتبطة بشكل وثيق بالمنهج البنيوي (La méthode structuraliste).

لقد تأثر بارط في تنظيراته الأدبية والنقدية بممارساته اللسانية والسميولوجية،

---

(55) R. Barthes, «Introduction» à **Communications** 8, Coll. Points, éd. Seuil, 1981.

(56) R. Barthes, **L'aventure sémiologique**, Coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1985, p. 176.

(57) R. Barthes, «Linguistique et litterature» in **Langage** (Numéro spécial), éd. Larousse, Divier, Paris, 1968, p. 3.

(58) R. Barthes, **Sur Racine**, Coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1963, p. 15-69.

وأجهز على النظرة الكلاسيكية للأدب وتاريخه[59]، واعتبرها نظرة عاجزة عن تفسير الأدب وتحليل النصوص. وقد دعا بارط في زمنه إلى دراسة إشكاليات متعددة ذات علاقة صميميَّة بالمجال الأدبي، كما شجع النقد الأدبي بصفته ممارسة مسؤولة وفعالة. كما دعى إلى دراسة موضوعات أدبية جديدة مثل الكائن والأدب والعلاقة بين الأدب والمعنى وماهية النقد الأدبي.

ولقد كان بارط يسعى جاداً إلى تأسيس علم للأدب (Science de la littérature) يعتمد على أصول المنهجين البنيوي والسيميولوجي. وقد ركز بارط على مستويات التحليل البنيوي والسميولوجي في تحليل النص بصورة واضحة في دراسات كثيرة[60].

فقد لاحظ بارط أن الموضوع الأدبي شيء لُغَوِي وموضوع لساني، ولكنه الموضوع الوحيد الذي يستعصي على الباحث أو الذي لا يقبل أن يصير موضوعاً (un objet) أو شيئا (une chose). ذلك بأن الأدب معطى مقدس، وكل نزوع إلى تشييئه فيه طعن في قداسته ونيل مباشر منها. وهذا أمر لا يقبله النقد الكلاسيكي في صورته الجامعية، وهو النقد الذي يحافظ على قداسة الأدب ولا يقبل تشييئه بأيِّ حال من الأحوال.

ويستعير بارط من مجال الدراسة السيميولوجية مصطلحين يوظفهما في مجال الأدب والنقد، وهما مصطلحا اللغة ـ الموضوع (la langue-objet) واللغة الواصفة (métalangage)، الأولى تمثل لغة الأدب والثانية تمثل لغة النقد الأدبي.

لقد أثار بارط علاقة الأدب بالتاريخ وعمق النظر فيها، فاعتبر الأدب مؤسسة (institution) من زاوية كونه موضوعاً ينبغي دراسته من الزاوية التاريخية والوظيفية. ويدعو بارط إلى إنجاز هذا المشروع في الصفحات الأخيرة من كتابه «**حول راسين**» (**Sur Racine**). ولا سيَّما في الفصل الموسوم «تاريخ أو أدب؟» (Histoire ou

(59) لعل ذلك هو السبب في ذلك الصراع الشديد الذي نشب بين بارط وبيكار (P. Picard) الذي يمثل النقد الجامعي الكلاسيكي والمحافظ في تلك المرحلة.

(60) انظر دراساته المتنوعة في هذا المجال ضمن كتبه التالية :

Mythologies, coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1970; **Sur Racine**, coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1979; **Essais critiques**, coll- Points, éd. Seuil, Paris, 1981; **L'aventure Sémiologique**, coll. .Points, éd. Seuil, Paris, 1985

(littérature? الذي يصرح فيه بجملة من القضايا ويناقش فيه طروحات متباينة ويخلص فيه إلى نتائج وآقتراحات على درجة بينة التفوق، ومنها أن بارط يهدف في دراسته تلك إلى تجاوز الدراسة النوادرية والإخبارية (étude anecdotique) للوصول إلى مستوى أكثر خصوبة، وللكشف عن الإستعمالات الفكرية للكاتب الأديب ومحرماته الخفية (les tabous implicites) والقيم الطبيعية، ولفهم الوضع الذي عرفه المسرح في القرن السابع عشر والكشف عن الشروط التي عاش فيها إنسان تلك الفترة وحدود الوعي الجمعي والمناخ الفكري المتمثل في هيمنة فكر جماعة پور رويال .(Port-Royal)

وقد هدف بارط من خلال الإهتمام بمظاهر الحضارة الفرنسية في عهد راسين إلى فضح جهود راسين الفكرية. وفي هذا الصدد، أكد بارط على ضرورة استغلال إنجازات التأليف التاريخي (L'historiographie). فلتتميم شروط قيام مؤسسة أدبية ولتحقيق وظائفها، لابد من استفادة الأدب من التاريخ.

وإذا كان من الممكن دراسة المحيط التاريخي للعمل الأدبي، فإن بارط يعتَبِر دراسة العلاقة بين المبدع الفنان وإبداعه معضلة يستعصي حلها. ومن هذا المنطلق نجده يشك في أنواع تفسير هذه العلاقة كما هي مألوفة في النقد الكلاسيكي الجامعي الذي يتهمه بارط بادعاء العلمية وادعاء الإبتعاد عن الإيديولوجيا.

وقد رفض بارط التفسيرات السببية التي تبحث عن الأسباب النفسية والإجتماعية الواضحة والمباشرة. وآعتبر سائر هذه التفسيرات ساذجة وعاجزة عن تفسير علاقة المبدع بإبداعه، وهي علاقة أكثر تعقيداً من تلك السببية البسيطة التي لا تختلف عن التفسير الذي يقول بعنصر الإلهام (inspiration) كعنصر مفسر للعلاقة بين الإبداع وصاحبه.

ويعترف بارط بأن كل تفسير لهذه العلاقة المعقدة يظل محاولة لها إيجابيات وسلبيات معدودة.

ويصرح بأن تفسيره لهذه العلاقة في دراسته حول راسين ليس تفسيرا نهائيا ولا ممثلا للحقيقة حول راسين. فكل تفسير هو ذاتي بالأساس. ومن ثم أقر بارط بأن الوظيفة الأدبية هي تأسيس الذاتية، لأن الأدب بسائر مكوناته هو تأسيس للذاتية وتأكيد عليها كما أنه نفي للموضوعية والشيئية.

حدد بارط مشكلة النقد الأدبي واعتبر النقد وصفا للأدب ودراسة له.. وهكذا عين للنقد الأدبي، كاختصاص معرفي، مهمات جديدة في دراسته حول راسين وفي كتابه «**النقد والحقيقة**»(61).

وقد أقام بارط تعارضاً واضحاً بين نمطين من الرؤى النقدية، هما :

ـ الرؤية الكلاسيكية التي تبناها النقد الجامعي في تياره الوضعي الذي يدّعي الموضوعيَّة(62).

ـ الرؤية الإيديولوجية المعتمدة على التأويل(63).

وقد لاحظ بارط أن النقد الجامعي في صورته الأكاديمية يبحث دائماً عن مصدر خارجي لحقيقة النص الأدبي، في علم النفس أو علم الإجتماع أو التاريخ أو غير ذلك. وهو في بحثه عن هذا المصدر الخارجي يقيم علاقات سببية وقياسية بين المصدر الخارجي والعمل الأدبي. وعندما لا تتضح هذه العلاقة السببية، يميل النقد الكلاسيكي إلى تبني عنصر الإلهام كمفسر لهذه العلاقة كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه(64).

وهذا النوع من النقد الأكاديمي يعتمد على وضوح الرؤية. لذا يلجأ في حالات كثيرة إلى استئصال أجزاء من النص، لأنها لا تخضع لقانون الوضوح وتأبى أن تقرأ قراءة واحدة وخطيَّة.

وأمام قصور النقد الجامعي في فهم النصوص الأدبية وقراءتها قراءات متعددة واستغلال طاقاتها الرمزية، نوه بارط بالنقد الجديد الذي ينبغي في نظره أن يدرس النصوص دراسة محايثة (immanente) ليكشف عن علاقات الأشكال بالصورة والرموز داخل العمل الأدبي باعتباره بنية مغلقة (Structure fermée)(65).

ولقد حاول بارط أن يجعل من الناقد الجديد واصفاً للنصوص ومحلّلا لبنياتها الداخلية وبنياتها الخارجية المؤطرة لها دون البحث عن سببية مباشرة أو تفسير ساذج،

---

(61) R. Barthes, **Critique et Vérité**, coll. Tel Quel, éd. Seuil, Paris, 1966.

(62) **Ibid**, p. 17-22.

(63) **Ibid**, p. 35-37.

(64) **Ibid**, p. 69-70.

(65) **Ibid**, p. 17-22.

بل تظل العملية النقدية مجرد قراءة ممكنة من بين قراءات أخرى ممكنة، تسعى إلى تأويل الطاقة الرمزية للنصوص. ولعل الكتاب الأساسي الذي حلل فيه بارط نظرته إلى الأدب وتاريخه ونقده وفق تصوره الجديد هو كتابه «**حول راسين**» (**Sur Racine**)[66].

تعد هذه الدراسة من أجود ما كتب عن راسين، الإنسان والأديب المسرحي. وقد حاول بارط أن يضع في هذه الدراسة خلاصة نقدية لجهود الدارسين حول راسين. ومن خلال تقويم بارط لتلك الحصيلة من الدراسات، فنَّد مزاعم النقد الجامعي وأجهز على أصحابه. ونفى بارط عن نفسه تهمة تحليل راسين وفق أي طريقة من طرق النقد الجامعي المحافظ، وأعلن في الفصل الموسوم بـ«ـالإنسان الراسيني» («l'homme racinien») أنه لن يقع في شرك التحليل النفسي والاجتماعي، وإنما سيعمد إلى دراسة مفهوم «اللذة» (le plaisir) في أدب راسين بمنهج يستمد أدواته من التحليل البنيوي المشوب بنزوع نفسي باهت أحياناً[67].

وهذه بعض الجوانب التي درسها بارط بمنهجه الجديد في أدب راسين على سبيل التمثيل لا الحصر :

1) الفضاء التراجيدي (L'espace tragique) في مسرح راسين ويتضمن ثلاثة أنواع من الفضاءات :

أ ــ فضاء متوسطي قديم (Méditerranée antique) ؛

ب ــ فضاء متوسطي يهودي (Méditerranée juive) ؛

ج ــ فضاء متوسطي بيزنطي (Méditerranée byzantine).

وهذه فضاءات تتشكل على مستوى الإبداع الشعري لتصير محيطاً إبداعياً واحداً متصفا بالتجانس[68].

2) مشكلة اللذة والسلطة :

أبرز بارط في هذا الموضوع العلاقة القائمة بين الشخصيات في مسرح

---

(66) R. Barthes, **Sur Racine**, coll. Points, éd. Seuil, Paris, 1963.

(67) أنظر إلى حديثه عن المشهد الشبقي (érotique) في الصفحات من 28 إلى 32 في كتابه «**Sur Racine**»، وقارن مع القسم الأول المدعو بالبنية (**La Structure**) الممتد من ص. 15 إلى ص. 69.

(68) R. Barthes, **Sur Racine**, pp. 17-18.

راسين، وهي علاقة يحكمها منطق اللذة أو منطق السلطة. ومن أنماط هذه العلاقات :

ـ علاقات الإشتهاء والطمع (relations de convoitise).

ـ علاقات سلطوية (relations autoritaires).

وعلى مستوى العلاقة الأولى، تظهر اللذة الراسينية في صورتين هما : اللذة المتولدة بين عشيقين شديدي التباعد، وهما عاشقان يعيشان مرحلة حب وعشق طويلة، وتمتد منذ زمن الطفولة. والنوع الثاني هو اللذة المثيرة، ومن خصائصها أنها مفاجئة وعنيفة[69]. وقد لاحظ بارط أيضاً أن الأشخاص في المسرح الراسيني لا يمكن تصنيفهم إلى إناث وذكور حسب التقسيم المألوف لأن من رجال المسرح الراسيني من يتشبّهون بالنساء في أمزجتهم، والعكس صحيح : إذ من بين نساء هذا المسرح من يشبه مزاجهن مزاج الرجال.

وقد لاحظ بارط في هذا الصدد أن العلاقة الأساسية في مشاهد الحب والعشق هي علاقة التسلط. وهذه المشاهد ستعمل على إبراز هذه العلاقة وإجلاء ملامحها. ويترجم بارط هذه العلاقة السلطوية في المعادلة الآتية : «أ» يتمتع بالسلطة المطلقة على «ب»، و«أ» يحب «ب»، وهذا الأخير لا يحبه ولا يعشقه.

وهكذا يتحول مسرح راسين بموجب علاقة السلطة القائمة بين العاشقين من مسرح عشق وحب هادئ إلى مسرح عنف وتسلّط[70].

والتراجيديا هي المكان الذي تمارس فيه طقوس العنف بين المحبّين. وقد لاحظ بارط اختلاف ردود فعل الأبطال إزاء هذا العنف من بطل إلى آخر. ومن بين أهم هذه الردود : الشكوى عن الضعيف، والتهديد بالموت أحياناً، والتشهير بالظالم والإنتحار كعملية تعويضية، إلخ[71].

إن جهود بارط النقدية تجاوزت مجال الدرس النقدي في صورته اللغوية، وآنفتحت على آفاق سيميولوجية متنوعة. وبما أن اهتمامنا ينحصر في دائرة النقد الأدبي

---

(69) أنظر الفصل المعنون بـ«الإضطراب» (Le trouble) وخاصة الصفحة 46 من كتابه «**Sur Racine**».

(70) R. Barthes, **Sur Racine**, "La relation fondamentale", p. 34.

(71) **Ibid**, p. 54 sq.

عند بارط، فإننا نترك جانباً اهتماماته السميولوجية المتميزة فهي أحوج ما تكون إلى دراسة تفصيلية مستقلة.

ولعل ما يجب أن نُقرَّ به في هذا الباب هو أن بارط انتهى في أبحاثه السيميولوجية إلى إقرار حقيقة مفادها أن الهدف من وراء البحث السيميولوجي هو إعادة بناء أو توظيف الأنظمة الدلالية غير اللغة وفق مقتضيات كل نشاط بنيوي على حدة. وذلك بتركيب مزيج من الأشياء الملحوظة. وللقيام بهذا العمل، ينبغي القبول مبدئيّاً بأساس تحديدي. وهو أساس نَابع من اللسانيات، ويسمى مبدأ الملاءمة (le principe de pertinence)، إذ يجب الِاهتمام بمجموعة الوقائع المراد تحليلها من وجهة نظر واحدة. فالمتخصص في الفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات (la phonologie) لا يهمه من الأصوات سوى المعاني التي لها من حيث تركيبها الوظيفي، لا من حيث طريقة نطقها أو طبيعتها المادية وخصائصها الفيزيائية[72].

وقد طبق بارط مبدأ الملاءمة في دراساته السيميولوجية، فدرس بعض الظواهر والمظاهر الِاجتماعية والحضارية من زاوية نظر واحدة :

> فالموضة والتقليعة مثلًا لها آنعكاسات اقتصادية واجتماعية. غير أن عالِم السيمولوجيا (Sémiologue) لن يهتم بالِاقتصاد ولا بالسوسيولوجيا في ظواهر الموضة أو التقليعة، وإنما سيقول فقط وبوضوح، في أي مستوى من النظام الدلالي للموضة سيرتبط الِاقتصاد أو السوسيولوجيا بالملاءمة السيميولوجية (la pertinence sémiologique)[73].

هكذا يقدم بارط منهجاً نقديّاً يستفيد من منجزاته الدراسة اللسانية والسيميائية، ويجهز على النقد الجامعي المحافظ الذي اتجه في دراساته اتجاهاً دغمائيّاً وإيديولوجيّاً سافراً، متوهما أنه يخلق الحقيقة النقدية في حين تظل هذه الأخيرة في نظر بارط هباء لا يمكن القبض عليه أو ضبطه بصورة نهائية.

فالحقيقة النقدية بمفهومها الكلاسيكي والجامعي حقيقة مثالية تمثل نمطاً من الحقيقة الطوباوية (utopique) التي يستحيل الوصول إليها. ذلك بأن النقد إنما هو قراءة للنص تتلذّذ به وتشتهيه وتقرأه عبر شغف بالمقروء في نظر بارط.

(72) R. Barthes, **L'aventure sémiologique**, p. 80.

(73) وقارن مع رأي مونان في : G. Mounin, **Introduction à la sémiologie**, coll. Sens Commun, éd. Minuit, Paris, 1970.

بعد هذه الرحلة مع فصول من واقع الحركات النقدية الحديثة والمعاصرة، ماذا يجوز لنا أن نقول عن المشكلة الرئيسية التي أثرناها في بداية هذه الدراسة، ألا وهي مشكلة العلاقة بين النقد الأدبي والعلوم الإنسانية ؟

1 ـ من خلال النماذج النقدية السابقة يظهر أن العلوم الإنسانية، ظلّت توجِّه النقد الأدبي في العصر الحديث في مختلف ٱلِاتجاهات النقديَّة المعاصرة.

وتتفاوت درجةُ قوَّة هذا التوجيه وضعفه من منهج نقديٍّ إلى آخر ومن ناقد إلى آخر. بيد أن الطابع العام المسيطر على الجهود النقدية المعاصرة هو بناء النظريات والمناهج النقدية على أساس العلوم الإنسانية التي لها علاقة وثيقة بتنظيم الفعالية البشرية وقراءتها وتحليلها على شتى الأصعدة والمستويات كعلوم النفس والِاجتماع والتاريخ واللغة، إلخ.

2 ـ ويتبيَّن من الدراسة السابقة أن المناهج النقدية التي تهتم بتحليل النصوص الأدبية، استمدَّت معظم مناهجها من حقول العلوم الإنسانية بصورة ذكيَّة، إذ حاولت أن تلائم بين حاجيات هذه النصوص وبعض الأدوات من جنس تلك العلوم. وتهدف هذه الملاءمة إلى المحافظة على خصوصيات هذه العلوم والنص الأدبي.

3 ـ ومهما قيل عن علاقة النقد الأدبي ومناهج تحليل النصوص بالعلوم الإنسانية، فإنها سوف تظل علاقة وثيقة لسبب أساسي يتمثل في كون النص الأدبي إبداعاً إنسانيّاً تتدخَّل في إبداعه عواملُ إنسانيَّةٌ متفرقة تظهر آثارها الظاهرة أو الخفيَّة أثناءَ تحليلها بأجهزة ومناهج تستقي أصولها النظرية والتطبيقيَّة من مجالات العلوم الإنسانية التي تزيح النقاب عن مستويات الفعالية الإنسانية سواء في حقل التعبير اللغوي والأدبي أم في سائر الحقول المعرفية المرتبطة بالفعالية الحيوية للإنسان.

4 ـ إن أهم ما يميز هذه العلاقة بين العلوم الإنسانية ومناهج تحليل النصوص ومناهج النقد الأدبي هو مفهوم التكامل والِانسجام. فهذه العلوم تتكامل في أفق تحليل النص الأدبي، وتقدم مجموعة من التصورات والأطر النظرية والأدوات التطبيقيَّة التي تنسجم مع طبيعة النص الأدبي وخصوصياته الإنسانية، وتساهم بذلك في بناء الأنساق النقدية في مضمار النقد الأدبي كعلم من العلوم الإنسانية.

III – بعض الإنجازات العربية

لم يشذّ النقاد العرب عن غيرهم في الشعور بضرورة البحث عن أصول نظريَّة للفكر النقدي تتكامل فيها عناصر الحقيقة الأدبيَّة. فكانت الممارسة النقدية وتحليل النصوص الأدبيّة معتمدين لدى النقاد العرب على تصورات ونظريات فكريّة عامّة لها علاقة بالعلوم الإنسانية من لغوية واجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة وغيرها. وسنحاول في هذا الجزء من دراستنا أن نقدم بعض ملامح التكامل بين النقد الأدبي العربي والمناهج الإنسانية التي وظفها الناقد العربي بغية التوصل إلى الحقيقة الأدبيَّة في النص المحلل.

وسوف نعتمد في جولتنا العلمية هاته على النظر الوصفي والتحليلي لبعض ملامح المناهج النقديَّة التي اهتم بها النقد العربي منذ عصر النهضة إلى أيَّامنا. وأهم هذه المناهج :

- أوائل النقد الأدبي في عصر النهضة أو المنهج المحافظ.
- المنهج التاريخي (في النقد).
- المنهج الاِجتماعي (في النقد).
- المنهج النفسي.
- المنهج البنيوي.

III.1. أوائل النقد الأدبي في عصر النهضة أو المنهج المحافظ :

لقد بدأ النقد في عصر النهضة في البلاد العربيَّة كغيره من العلوم، بالرجوع إلى التراث العربيّ للاِمتتاح منه. فكان النقاد في تلك الفترة يستلهمون طرق النقاد القدماء مثل الجرجاني وابن رشيق وقدامة بن جعفر. وكان النظر النَّقدي يتأرجح عند دارسي النصوص العربية في مطلع القرن العشرين بين النظرة الاِنطباعيَّة والنظر المحافظة التي تقول على المنهج التقليدي البيانيّ في صورته العباسيَّة. ولعلّ أبرز من مثَّل هذا النَّوع من النظر النقديّ المحافظ، الشيخ حسين المرصفي الذي وضع عمله الشّهير الموسوم بـ«**الوسيلة الأدبيَّة**»[74]. ويُعَدُّ هذا الكتاب أصلًا من أصول النقد العربي التقليدي. إن لغة الخطاب النقدي في كتاب «**الوسيلة**» تعتمد على الصياغة القديمة

(74) توفي الشيخ المرصفي عام 1890. وكتابه «**الوسيلة الأدبية**»، مجموعة من المحاضرات كان يلقيها على طلبة دار العلوم.

وحشد المصطلحات النقديَّة من سجلات ٱلنقد العربي ٱلقديم. فهو يذكر ما يحتاج إليه من ينشُد صناعة الإنشاء : «لابُدَّ أن يحفظ كثيراً من الأمثال العربيَّة وغيرها من الأقوال الصادرة عن ٱلحكماء : فإنها خزائن الحِكَم ومستودعات المعاني، ومنها تعرف حسن الإيجار وبراعة العبارات[75].

III.2. المنهج التاريخي في ٱلنقد .

يصعب الحديث عن المنهج التاريخي في النقد العربي، لأن البحث التاريخي العربي انصبَّ في بداياته الأولى على دراسة العصور الأدبيَّة العربيَّة، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث. وقامت بين الدارسين في هذا ٱلصدد كثير من الخلافات ٱلتي كان أسَاسُها نظرة كل واحد وكل اتجاه إلى علاقة للأدب بالتاريخ ومكوِّناته الأساس كٱلسياسة والإقتصاد وٱلفكر[76].

وقد كان طه حسين أوَّل من أفادَ من ٱلمنهج التاريخي ٱلذي تعلّمه من المستشرقين وغيرهم من أساتذته في ٱلجامعة المصريَّة والفرنسيّة. ويظهر أثر هذا المنهج التاريخي عند طه حسين في إثارته لمشكلة ٱلسياسة ودورها في قضية النَّحل في تاريخ الشعر العربي ٱلجاهلي، وذلك في كتابه «**في الأدب الجاهلي**»[77].

ويظهر أثر هذا الحس ٱلتاريخي في كتابه «**مع المتنّبي**»، حيث حرص طه حسين على جمع مكوّنات التاريخ الحياتي والأدبي للمتنبي من خلال شعره، وكانت تحكم الباحث نظرة تاريخية إلى فضاء المتنبي في سائر فصول الكتاب[78]. وإذا كان طه حسين قد أفاد من نظرته التاريخية في دراسته للمتنبي، فإنه أفاد منها أيضاً في

---

(75) «**الوسيلة الأدبية**»، ج 201/2؛ ٱنظر أيضا حديثه عن نقاد الشعر القدماء في «**الوسيلة الأدبية**»، ج 2، ص.429.

(76) ٱنظر حول هذه الخلافات تعليل المؤرخين لنظرتهم للعصور الأدبية في كتاب «**الأدب في ظل الخلافة العباسية**» للدكتور جميل مهنا.

(77) كتاب «**في الشعر الجاهلي**» الذي تحوَّل بعد توبة طه حسين إلى «**الأدب الجاهلي**»، ط. دار المعارف، مصر، القاهرة.

(78) صنيع طه حسين التاريخي يظهر في تعقبه لجزئيات كثيرة من حياة المتنبي الخاصة وحياته الإجتماعية العامة، فيمزج الباحث بين حس المؤرخ الأدبي ومؤرخ الحضارة في كتابه ذلك. وللتفصيل، انظر: «**الخطاب النقدي عند طه حسين**» لأحمد بو حسن، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص. 107–134.

دراسته لأبي العلاء المعرّي حيث كان عمله أشبه بمُونوغرافية تاريخية عن المرحلة العبَّاسية من خلال علم من أعلاميها الثقافية في كتابه «**تجديد ذكرى أبي العلاء**».

ويُعتبر الدكتور البهبيتي بدوره أحد روَّاد هذه النظرة التاريخية التي بيَّن فيها أن التاريخ مفتاح لفهم كثير من ٱلألغاز ٱلمحيطة بظواهر ٱلثقافة والأدب لدى الأمم. وكان مشروعُ ٱلبَهبيتي يشمل النظر إلى تاريخ ٱلنصوص الجاهلية، القديمة من زاوية ٱلتحقيب للأوضاع الحضاريَّة للعرب ٱلقدماء. وسواء في كتابه عن حياة الشعر الجاهلي أم في كتابه عن الجذور التاريخيَّة للمعلَّقة العربيَّة[79]، فإنّ الحسَّ التَّاريخي قويٌّ لدى الباحث ويتَّسِمُ نظره بٱلنفاذ إلى أعمق طبقات تاريخ ٱلنَّص الجاهلي ٱلقديم. ولا يلبث ٱلبهبيتي أن يصرِّح بمنهجه ٱلتاريخي في ٱلدِّراسة فيقول : «ومن يوم أخذت أنظر نفسي في تاريخ ٱلأدب كنت أرى التاريخ السياسي والِاجتماعي هو ٱلْإطار الذي يعيش فيه ٱلأدب فليس يُفهم أحدهما دون فهم الآخر»[80].

وقد سار على هذا ٱلنهج التاريخي في دراسة ٱلأدب العربي الدكتور شوقي ضيف في موسُوعته حول العصور الأدبيَّة من العصر الجاهلي إلى العهد ٱلمعاصر، وقد تحكمت في مشروع ضيف نظرةٌ تحكمت من قبل من أحمد أمين في موسوعته الإسلامية التي أرَّخَ فيها للثَّقافة الإسلاميَّة والفكر العربي الإسلامي في مراحله ٱلمختلفة. ويُفهَمُ من نص في مقدّمة شوقي ضيف لكتابه «**فصول في الشعر ونقده**» أن الشعر وثيق الصِّلة بالتاريخ، بل إن دورهما متكاملان. يقول : «... أما الشعر، فإنه يعرض علينا الماضي بكل جوانبه وكأنه مجاميع من شهود شاهدوه بأبصارهم بل هو نفس هذا الماضي ارتسم في كلمات وأنغام»[81].

ويُستفاد من التصور ٱلتاريخي في هذا الِاتجاه أن ٱلنقد الأدبي للنصوص أو الظواهر الأدبيَّة يلزمه الِاعتماد على قرائن السياسة والمجتمع لرصد خواصّ البيئة الأدبيَّة أو اللغويّة ولضبط الحساسية الشعريَّة أو ٱلنثرية في مرحلة من مراحل التاريخ العربي، من العصر الجاهلي إلى العهد ٱلمعاصر.

---

(79) نجيب محمد البهبيتي، «**تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري**»، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، 1961. انظر «**المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ**»، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1981.

(80) **المرجع نفسه**، ص. 17.

(81) شوقي ضيف، «**فصول في الشعر ونقده**»، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971، ص. 9–10.

ويؤخذ على أصحاب هذا ٱلتصور تفاوتهم في تقويم ٱلآثار الأدبيّة في ضوء الإعتبارات التاريخية والحضاريّة ٱلتي ليست العامل الوحيد الموجّه للنص الأدبي ولا الفاعلة فيه دون غيرها. فالإنجاز العربي في حقل النقد التاريخي كان يترسَّمُ خطَى الدرس الِاستشراقي الذي أفاد من نهضة الحس التاريخي في بلدان الغرب كما هو عند شارل بلا ومرجليوي وأندري ميكيل، فٱنتقلت هذه العدوى إلى الثقافة النقدية العربيَّة بصور متفاوتة.

III.3. المنهج الِاجتماعي في النقد :

لقد تبلور الِاتجاه الِاجتماعي في النقد الأدبي العربي بعد ظهور عدد من النظريات الِاجتماعية التي غذت علم الِاجتماع العربي، من خلال بحوث دوركايم وكورتالڤين وماكس ڤيبر، وروسُّو حول أسس الِاجتماع المدني وعلاقة ٱلمجتمع بالسياسة وعلاقة الأدب والفكر بالصيرورة الِاجتماعية.

وقد ٱنتقل التفكير الِاجتماعي إلى مجال ٱلأدب على يد مفكّري الإصلاح في عصر النهضة، مثل سلامة موسَى الذي ٱستهواه ٱلنظر الِاجتماعي، ففسَّر ظواهر النهضة العربية تفسيراً ٱجتماعيّاً يعتمد على النظرة التقدّمية والِاشتراكية وقدْ رَدَّد مبادئ نظرته النقدية في كتاب سَمَّاه «**ٱلأدب للشعب**». وخلاصتها أن الأدب كفاح على حدٍّ تعبيره[82]. وقد بلغ التطرف بسلامَة موسى درجة كبيرة في دراسته الأدب العربي وظاهر اللغة والبلاغة العربيين، فرفض سائر الظواهر القديمة بحجَّة أنها غير قابلة للتطور مع المجتمع العربي ٱلذي يدخل في صيرورة من التحول الِاجتماعي لا نهاية لها. وهكذا نبذ كل التقاليد اللغوية والأدبيَّة وأجهز على البلاغة التقليدية والإعراب. ويعرض سلامة موسى موقفه في وضوح تام عندما يصف الأدب بأنه «حركة انتهاضيَّة إيجابية نحو المستقبل، وهو ولاء للإنسان وليس ولاء للتقاليد، وهو أبكر من الصنعة (...) والأدب للشعب كلّه ولطبقة منه، أي للإنسانيَّة»[83].

ويبدو سلامة موسى في نظرته الِاجتماعية في الكتاب المذكور، وفي كتاب «**البلاغة العصرية**» وكتاب «**الأدب والحياة**» حَادّ النبْرَة، ضعيف الحجَّة العقلية، إذ يُشبه كلامُه كلام البيانات الشيوعيَّة والخطب السياسيَّة المستفِزَّة ؛ ولذا يصعب

(82) سلامة موسى، «**الأدب للشعب**»، د.ت، ص. 54.

(83) **المرجع نفسه**، ص. 38.

تصنيفه ضمن نقاد الأدب في الِاتجاه الِاجتماعي، لأن الِاعتبارات الحزبيَّة الضيّقة والأهداف السياسيّة في إطار مشروع النهضة والإصلاح الحضاري كانت تُبْعِدُه عن النظر المنهجي إلى النصوص الأدبيَّة.

ولَعَلّ أبرز ناقد في الِاتجاه الِاجتماعي التقليدي في صورته الِاشتراكية، الدكتور محمَّد مندُور الذي منحَ الِاتجاه النقدي الِاجتماعي للأدب، بعداً إيديولوجيّاً واضحاً، وهو يصرِّحُ بهذا المنحى في النقد الأدبي حينما يحدّد مهام المنهج الإيديولوجي في آلنقد في ما يأتي :

«1 ــ تفسير الأعمال آلأدبيّة والفنية وتحليلها مساعدة لعامَّة القراء على فهمها (...)؛ 2 ــ تقويم العمل الأدبي والفني في مستوياته المختلفة (...)؛ 3 ــ توجيه الأدباء والفنَّانين في غير تعسف ولا إملال، ولكن في حدود آلتَّبصُّر بقيم العصر وحاجات البشر ومطالبهم وما ينتظرون من الأدباء والفنانين»[84].

وقد وضع مندُور مجموعة، من الدراسات آلتي ظل فيها وفيّاً لِمبادئه في النقد الأدبي الِاجتماعي في صورته الإديولوجيَّة. فمند أطروحته حول «**النقد المنهجيّ عند العرب**» سنة (1943) إلى كتابه «**النقد والنقاد المعاصرون**»، ما فتئ مندُور يرسم الخطوط آلكبرى لنظريته في النقد الأدبي الِاجتماعي والإديولوجي. ففي كتابه «**في الميزان الجديد**» يُجْهِزُ مندُور على أصحاب النزعة آلنفسيَّة في تفسير آلأدب، فينتقد آراء كل من أمين الخولي وأحمد خلف آلله في الأدب ومضامينه آلنفسيَّة. فمندُور يتعجَّبُ مثلًا من مركّب النقص آلذي حما أبا آلعلاء على آعتزال آلناس كما يقول آلخولي، في حين أنَّ هذا المركّب نفسه هو الذي جعل بَشَّاراً يندمج في آلمجتمع في نوع من المغامرة والِاستهتار[85].

وقد صرَّح مندُور بنزعته آلإديولوجيَّة في نقده الِاجتماعي للأدب، فقال في إحدى مقالاته كلاماً يدلُّ على أن آلأدب يواكب حياة آلأمم :

> وكان مرآة لها حيناً وقائداً لها حيناً آخر، ولذلك يمكن آلقول إنَّه قد كان دائماً ملتزماً بقضايا آلعصر (...) وليس من العسير أن يتبين كيف أن تطور الأدب بفنونه المختلفة قد ساير تطور الحياة السياسية والِاجتماعية للشعوب[86].

(84) محمد منذُور، «**النقد والنقاد المعاصرون**»، مطبعة نهضة مصر، د. ت، ص. 237–238.
(85) محمد منذُور، «**في الميزان الجديد**»، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1930، ص. 133.
(86) «**مجلة الكتاب**»، عدد 132، نونبر 1963 ؛ وعنوان المقال، «الأدب ووحدة الفكر العربي»، ص. 4.

وقد تطوَّرت هذه النزعة الاِجتماعية في صورتها الإديولوجيَّة، فأسفَرت، بعد مخاض طويل في كتابات هؤلاء الرُّوَّاد، عن معالِمَ أخذها مفكِّرون عرب ونقاد الثقافة والأدب العربيّ فصاغوها بِصور مختلفة. ومن ذلك محاولة الدكتور غالي شكري تطبيق المنهج الاِجتماعي على دراسة الظاهرة النقدية في «**سوسيولوجيا النقد العربي الحديث**» الذي يتأرجح فيه بين النظريَّة السوسيولوجيَّة العامَّة والسُّوسيولوجيا الثقافية. فهو يفهم السوسيولوجيا فهماً مُوَحَّداً وإن كان يضيف إليها نعوتاً أخرى كـ«الواقعيّة» و«الثقافية» وغيْرها. ومن كلامه عن علاقة النقد بالمجتمع قوله في كتابه «**مذكّرات ثقافة تحتضر**» : «ولقد مضى تطور النَّقد في أدبنا الحديث إلى حدٍّ ما في خط مُواز لحركة التطور الاِجتماعي في بلادنا»[87].

وينتهي الدكتور غالي شكري في كتابه «**أزمة الجنس في القصة العربيَّة**» إلى خلاصة مفادها أن النَّقد الاِجتماعي لظواهر الأدب هو الطريقة المثلى لانتزاع أسرار النصوص الأدبيَّة وأنه :

> سوف يؤثِّر التطور الاِجتماعي في حياتنا تأثيراً مباشراً. ومن ثم لابدَّ أن يتطوَّر فكرنا الفنِّيُّ بحيث يلحق بالمشكلات الوافدة مع المجتمع الجديد (...) ومن هنا أعتقد جازماً أن ثمة تغيرات حاسمة تطرأ على مفهوماتنا لأزمة الجنس والتعبير عنها، للدَّرجة التي لا يمكن معها لأي ناقد أو باحث أن يتنبَّأ بأبعادِهَا[88].

وقد ظهرت النزعة السوسيولوجيَّة في دراسة أدب توفيق الحكيم واضحة لدى غالي شكري في كتابه «**ثورة المعتزل**». وهو عمل أفرده شكري لأدب توفيق الحكيم، لا سيما أعماله المسرحيّة ذات الطابع الاِجتماعي. ويكاد يجزم شكري بضرورة اتخاذ المنهج الاِجتماعي وسيلة للتحليل حتى نراه يتراجع عن ذلك في قوله : «(...) هنا يبدو لنا قصور التفسير الاِجتماعي بمفرده لتكوين توفيق الحكيم. فليست وقفته الإديولوجيَّة على يمين الثورة من داخل دائرتها، هي السبب في رفضه التنظيم السياسي»[89].

---

(87) غالي شكري، «**مذكرات ثقافة تحتضر**»، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1984، ص. 121.

(88) «**أزمة الجنس في القصة العربية**»، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1978، ص. 1320.

(89) غالي شكري، «**ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم**»، مكتبة الأنجلو ــ المصرية، القاهرة، 1966، ص. 39.

ومن الملاحظ أن النقد الحديث في المشرق في صورته الاجتماعية قد طغت عليه النزعة السوسيولوجيّة العامّة التي تخلط بين علم الاجتماع وعلم الاجتماع الثقافي ؛ كما أن النزوع إلى الواقعيّة والاشتراكية في تصور علاقة الأدب بالمجتمع كان يطغى على الدراسات المشار إليها. غير أن الدراسات النقديّة في المغرب على قلّتها على مستوى التراكم الفكري والثقافي والنقدي كانت لها وقفات متميّزة في تطبيق بعض مبادئ سوسيولوجيا النقد على ظواهر الأدب قصةً وشعراً وروايَة، وسوف نكتفي بالإشارة إلى نموذج في نقد بعض هذه الفنون، مع العلم أن النزعة الكولدمانية في سوسيولوجيا الأدب هي القاسم المشترك بين المحاولات المغربيّة في النقد الاجتماعي لا سيّما ذات الطابع الأكاديمي والمرتبطة بالتكوين الجامعي، وهي على سبيل التمثيل لا الحصر :

ـ «**الرواية العربيّة الحديثة بين سنتي 1960 و1980**» لعبد الرحمن بوعلي. ويصرّحُ الباحث في عمله هذا باقتناعه بنجاعة المنهجيّة البنيوية التكوينية في ثوبها الكولدماني في دراسة الرواية الجديدة، غير أنه أشبع نهمه المنهجي بضيافة منهجين آخرين إلى منهج كولدمان، وهما الشعرية والتيماتيكا (Thématique) على حد تعبيره في كتابه[90].

ـ كتاب «**الرواية المغربيّة ورؤية الواقع الاجتماعي**» لحميد الحمداني. وهو بدوره محاولة جامعية لتطبيق بعض مفاهيم البنيوية التكوينية في حقل الخطاب الروائي المغربي.

ـ كتاب «**ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب : مقاربة بنيويّة تكوينية**» لمحمد بنيس. والكتاب دراسة جامعيّة تتوخى تطبيق المنهج البنيويّ التكويني.

ـ وفي هذا السياق أيضاً يندرج كتاب نجيب العوفي «**مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربيّة**».

وأيّاً كان الهمُّ النقديُّ في هذه الدراسات، فإن ما يجمع بينها هو محاولة التطبيق الإجرائي لمستويات النّصِّ الأدبي انطلاقاً من مقولات الفهم والتفسير ورؤية العالم للنقاد الأدبي لوسيان كولدمان. على أن الدراسة المتأنّيّة لهذه الإنجازات المغربيّة وغيرها مِمَّا يشبهها في حقل النقد الأدبي، هي الكفيلة ببيان أوجه الاتفاق والاختلاف في التفاصيل النقدية والمنهجيّة والتطبيقية. كما نلاحظ أيضاً أن التراكم الحاصل في مجال

(90) الصفحة ي من «المقدمة».

النقد الأدبي في اتجاهاته الإجتماعية غير كاف في صورته الحالية لاستخلاص توجّه مغربي عربي أصيل في الدراسة النقدية للأدب من وجهة آجتماعية. فما بين يدينا تطبيقات جزئيَّة لمناهج مستوردة، وليس محاولات جريئة لاختراق الآفاق في سبيل إيجاد نظرية آجتماعية أصيلة للنقد الأدبي.

III. 4. المنهج آلنفسي :

ظهر الإتجاه النفسي في نقد الأدب في المشرق مع ظهور الدِّراسات آلنفسيَّة للشخصيَّات مع العقاد في كتبه التي أفردها لدراسة العبقريات آلمشهورة. وقد أثرت هذه النَّظرة في **مدرسة الديوان**، في عبد الرحمن شكري وفي المازني ؛ غيْر أن تصورهما لعلاقة الأدب بعلم النفس لم تكن بالوضوح الذي كانت به عند العقاد.

فالمازني درس شخصيّة ابن الرومي دراسة نفسيَّة وعلّل تمَرُّدَه على المجتمع بأن الشاعر كان «مصقول النفس مثقف العقاد تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع آلحال وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع»[91].

وقد درس العقاد بدوره آبن الرومي في كتاب مسقل، وآعتبره إنسانا مختلّ العقل وذا ملكة شعرية قويّة مع ذلك، فهو عبقري في تصويره وتشخيصه على حدّ تعبير العقاد[92].

وإذا عرّجنا على منهج العقاد في دراسة العبقريّات، فإنّنا نلفيه منهجاً نفسيّاً لا يخلو من آلجرأة والأصالة في آلغوص وراء آلمعاني العميقة في حياة هؤلاء العباقرة. وإن كانت كتب العبقريات لا تدخل في مجال النقد الأدبي، فإنها تبرز جانبا من آلتطبيق الفعلي للمنهج النفسي في آلتحليل لدى آلعقّاد.

ولَعَلّ أبرز ناقد أدبي آهتمَّ بالدراسة آلنفسيَّة للأدب هو الدكتور محمد النويهي آلذي ظل وفيّاً في كتاباته النقديَّة للتفسير آلنفسي للشعر وظواهر الأدب عموماً. فقد ظل النويهي، منذ كتابه «**ثقافة الناقد الأدبي**» (1949)، يصرِّحُ بآلتزامه بآلمنهج النفسي في التحليل ولا يتخفّف تحت أي قناع. وقد أصدر كتابَهُ «**شخصية بشّار**» سنة 1951، وأخضع هذا آلشاعر للإستبارات النفسيَّة الدقيقة : إذ كشف عن

---

(91) إبراهيم عبد القادر المازني، «**حصاد الهشيم**»، الدار القومية، الطبعة الأولى، 1925، ص. 264.

(92) عباس محمود العقاد، «**ابن الرومي : حياته من شعره**»، الطبعة الثانية، القاهرة، 1938، ص. 296.

عوامل التركيب النفسي لشخصيَّة بشار، وأشار إلى آلعوامل الوراثية آلمتأصِّلة في لا شعوره، ثم بحث في الأحوال المزاجيَّة للشاعر. فهو يشير إلى نبذ آلمجتمع لبشّار وطردهم له بسبب عماه وقبح صورته وأصله غير العربي، وينتهي إلى القول بأن الشاعر قد ظلمه هذا المجتمع الذي لم يرحمه فحمله على أن يكون عدوانيّاً شديد المواجهة سليط آللسان. فهو قد «تعَمَّد أن يزيد الناسَ كرهاً له وخوفاً منه وآتخذ هذا سلاحاً يحميه من عدوانهم»[93].

وفي كتابه «**نفسيَّة أبي نواس**» (1953)، طَوَّر النويهي أدوات التحليل آلنفسي لديه، ووظَّف مفاهيم متنوِّعة من علم آلنفس العام وعلم النفس التحليلي، وتحدَّث عن عقدة أوديب وآللاشعور الجمعي لا سيما في تفسيره لمبدإ تعظيم الخمرة عند أبي نواس إلى درجة عبادتها في صورة معبود فِتِيشِيّ تتعلّق به آلذات، «والمتأمّل في شعر أبي نواس يستكشف أن ما يصف العلماء حدوثه للذهن البشري البدائي هو عين ما حدث له. فأبو نواس قد أحيا آلخمر، أي عدّها كائناً حيّاً»[94].

وقد سعى الباحث الكبير أمين الخولي إلى توثيق الصّلة بين آللغة والبلاغة والحياة آلنفسيّة، وذلك في مقال له عنوانه «**البلاغة وعلم النفس**» سنة 1939. وسار على هذا آلنهج رعيلٌ من تلامذته في الجامعة المصريَّة. وبعد الخولي، نشر محمد خَلَف الله كتاباً يصرِّح فيه بنزوعه النفسي في تفسير الأدب، وعنوانه : «**من الوجهة النفسيَّة في دراسة الأدب ونقده**».

وفي سنة 1959، وضع مصطفى سويف عمله الموسوم «**الأسس النفسيّة للإبداع الفني في الشعر خاصة**».

ولعل الرائد الكبير للمنهج آلنفسي في دراسة الأدب وظواهره، هو عز الدين إسماعيل الذي وضع كتابين أساسيين في هذا الإتجاه، هما : «**الأسس الجمالية في النقد العربي**» و«**التفسير النفسي للأدب**». وفي الكتاب الأخير جهد علميٌّ دقيق لتحديد مصطلحات آلتحليل النفسي للنصوص الأدبيَّة. فبعد تحديده للمراد من مفاهيم كالعصاب والنرجسيَّة والعبقرية وآلدافع إلى آلإبداع، إلخ.، ينتهي إلى أن

(93) محمد النويهي، «**شخصية بشار**»، دار الفكر، بيروت، 1971، ص. 90.

(94) محمد النويهي، «**نفسية أبي نواس**»، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ص. 17.

التفسير النفسي للأدب لابُدَّ أن يعتمد على ما آنتهت إليه الدراسات الميدانية في التحليل النفسي وأبحاث الذكاء وأنواع الشخصية والتوافق الإجتماعي[95].

نلاحظ من خلال ما سبق أن المنهج آلنفسي قد أثر في الدرس آلنقدي العربي الحديث. وقد تفاوت النقاد في استمداد أدواتهم آلمنهجيَّة وتصوراتهم النظريَّة من حقول علم النفس المتشبِّعة، مع ما يواكب ذلك من مشكلات تتعلّق بالمفاهيم والمصطلحات المترجمة.

III. 5. آلمنهج البنيويّ :

لقد ظهر آلإهتمام بالتحليل الشكلي وآلهيكلي في آلدراسات العربية مع تطور أنساق الدراسة البنوية في أوروبا وأمريكا. ولقد كانت آثار آلتوجُّه اللساني في الدِّراسة الأدبية والنقدية راجعةً إلى تطور آليات آلتحليل في آللسانيات آلتطبيقية، فظهرت عدوى هذا آلتطوُّر في حقل آلنقد آلأدبي عند رواده في الغرب كبارط وكورتيس وغيرهما. وقد تتلمذ رعيل من آلنقاد آلمحدثين على يد هؤلاء آلرُّوَّاد إن بصورة مباشرة من خلال حضور حلقات آلدرس النقدي البنيوي واللساني آلمعاصر في جامعات أوروبية وأمريكية أو بطريقة غير مباشرة من خلال قراءة أبحاث هؤلاء آلمفكرين والمحللين البنيويين أو ترجمتها إلى اللغة العربية.

وسنحاول فيما يأتي أن نقف على نماذج من النقد البنيوي آلعربي من خلال بعض أعمال كمال أبو ديب بآعتباره رائد هذا الإتجاه منذ السبعينيات.

يحدِّد أبو ديب البنيويَّة تحديداً يخرجها عن الأعراف آلفلسفية حيث يقول: «ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود»[96]. فالناقد أبو ديب يرفض أن تكون البنيويَّة مذهباً في الفلسفة، ويعتبرها منهجاً في النَّظر إلى آلوجود. إنها «فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة، بل يطمح إلى تحديد المكوِّنات الأساسيَّة للظواهر في الثقافة والمجتمع والشعر، ثم إلى اقتناص شبكة آلعلاقات التي تشِعُّ منها وإليها»[97].

---

(95) عز الدين إسماعيل، «**التفسير النفسي للأدب**»، 1963، ص. 49.

(96) كمال أبو ديب، «**جدلية الخفاء والتجلي: دراسات بنيوية في الشعر**»، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1979، بيروت، لبنان، ص. 7.

(97) **المرجع نفسه**، 11.

والنقد البنيوي الذي يؤسسه أبو ديب في كتابه «**جدلية الخفاء والتجلي**» نقد تطبيقي لا يرمي إلى تحديد الأسس النظرية للمنهَج البنيوي الذي يدعو الباحث إليه. وقد عزَف أبو ديب عن تحديد بعض الأسس النظريَّة للمنهج البنيوي قصداً، بسبب قصور القارئ العربي في نظره عن فهم هذه الأصول حيث يقول : «يُصبح غير ذي جدْوى كبيرة أن تُقَدِّم البنيوية على مستوى نظري صرف، لأن طبيعة المنهج وخصائصه ستظل عصية الفهم على القارئ العربي الذي سيخفق لذلك في إدراك القيمة الثوريَّة البنيويَّة»[98]. وهذا الكلام مع ما قد يبدو فيه من حسن النيَّة يخفي نوعاً من الحكم الذي لا تبرير له، لأن الناقد عليه أن يضع الأسس النظريَّة لمنهجه البنيوي، وأن يترك للقارئ العربي مهما كان مستوى إدراكه أن يتعامل مع هذه الأسس بطريقة إيجابيَّة أو سلبيَّة كأن يرضاها أو يرفضها ويلفظها. فأسلوب أبي ديب في مقدمة كتابه يدُلّ على شعوره بقصور مشروعه النقدي، لأنه اقتصر فيه على الجانب التطبيقي وأهمل الأصول النظرية الضروريّة لأيِّ خطوة تطبيقيَّة. وهو يُعَلِّل اعتماده على التطبيق دون التنظير بقوله مضيفاً إلى ما سبق «... أما تقديم المنهج من خلال تجلِّيه في تحليل نصوص مألوفة لدى القارئ العربي، فإنه ــ فيما يُرجى ــ سيتيح له الفرصة لإدراك الهوَّة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية»[99].

وهكذا اهتم أبو ديب بدراسة الصورة الشعرية والفضاء الشعري والإيقاع انطلاقاً من هذه النظرة البنيويَّة التفكيكيَّة في كتابه «**جدلية الخفاء والتجلِّي**»[100].

وقد أفرد أبو ديب الفصل الخامس من كتابه «**جدلية الخفاء والتجلي**»، للحديث عن إمكان تطبيق المنهج البنيوي في دراسة الشعر العباسي عند أبي نواس وأبي تمام. وأطلق على هذا الفصْل عنواناً دالًا على مقصده وهو : «نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر : دراسات، بنيوية في شعر أبي نواس وأبي تمام»[101].

وقد بنَى النَّاقد تصوُّره للبنيويَّة على مستوى منهجه التحليلي وطريقته في التناول، على مبدإ العلاقة والثنائيات، ومبدإ التضاد ومبدإ التقابل. فعن مبدإ التَّضادِّ أو

(98) المرجع نفسه.

(99) المرجع نفسه.

(100) انظر الصفحات: 12، 64، 93، 108 من الكتاب المذكور.

(101) الصفحة 168 وما بعدها.

آلتناقض يقول عن شعر أبي نواس مثلا : «أظهر التحليل البنيوي لنصٍّ أبي نواس الأول أن الشاعر يعاين آلأطلال بوصفها تجَسِّدُ عالماً هو النقيض آلمطلق لعالم الخمرة»[102].

وعن مفهوم آلعلاقة آلضدِّيَّة التي هي أساس هذه الثنائية في شعر أبي نواس مثلًا، يقول أبو ديب : «تتحدَّد العلاقة بين طرفي الثنائية الضدية، الطلول/الخمرة، بعاملين رئيسيين : الأول هو حجم الحيِّز آلمكاني الذي تشغله كل منهما في بنيَة القصيدة، والثاني هو سياق الحيِّز المكاني لكل منهما»[103].

ويسير الناقد على النهج ذاته في دراسته آلموسَّعة في كتابه «**الرؤى المقَنَّعة : نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي**»[104]. ومشروع أبي ديب في هذا الكتاب أعمق من صنيعه في كتاب «**جدلية الخفاء والتجلي**»، إذ يريد أن يكون كتاب «**آلرؤى المقنَّعة...**» دراسة تهدف إلى «آقتراح الخطوط العامة لمنهج نقدي جديد هو، من حيث الطاقات آلكامنة فيه، أغنى مردوداً وأعمق قدرة على إضاءة بنية آلقصيدة من المناهج السابقة. ويفيد هذا المنهج من النظريَّات النقدية الحديثة ومن البنيويَّة، وبشكل خاص من منهج آلتحليل البنيوي للأسطورة كما طوَّره وآستخدمه كلود ليفي ــ سْتروس»[105].

ومن آلمفروض أن يتبع هذا آلكلام دراسة للأساطير العربيَّة أو نشر آلحكاية أو أي سرد عربيّ يُشبه سرد الأسطورة الذي آعتنى به ليڤي ــ ستروس. غير أنّ أبا ديب شخص الدراسات آلتطبيقية في كتاب «**آلرُّؤى المقنَّعَة...**». ويصرِّح الناقد «بأن القضيَّة الأساسيَّة التي تدور حولها آلدِّراسة الحاضرة هي بنية القصيدة. في القصيدة الجاهلية، يبرز التنوُّع في الخطوط آلمضمونيَّة بروزاً واضحاً ويتميَّز مشكِّلًا ملمعاً يسهل إدراك كونه أحد الملامح الأساسيَّة للقصيدة»[106]. إن هذا آلهَمَّ آلبنيويّ الطاغي على الدراسات آلتطبيقية عند أبي ديب لم يخل من بعض الشوائب آلتي

---

(102) المرجع نفسه، ص. 191.
(103) المرجع نفسه، ص. 196.
(104) الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.
(105) المرجع نفسه، ص. 46.
(106) المرجع نفسه، ص. 50.

علقَت به من المناهج آلنفسية أو التاريخية أحياناً. فهو يتحدَّث عن بنية قصيدة آلمدح مثلًا، فيقول :

لعل دراسة تاريخيَّة لتطور بروز وحدة المديح أن تسمح بإعطاء الفرضية المطروحة. هنا صيغة متماسكة، لكن الدراسة التاريخية للنص الجاهلي وتطوره تصطدم بمعوقات وصعوبات (...). غير أن ملاحظة أولية قد تجدي هنا، هي أن معظم نصوص المديح في «**المفضليات**» و«**الأصْمعيات**» مثلا، مرتبطة ببلاطي الغساسنة والمناذرة، أي بمواقع السلطة والثراء المادِّي، آلمدني والسيطرة الِاقتصادية في مرحلة تاريخية سابقة مباشرة عن آلإسلام[107].

ويستطرد الناقد في حديث طويل عن الثروة والسلطة ودورهما في تشكيل بنية القصيدة المدحية وفضاءاتها. ويكاد ينسى منهجه الوصفي آلبنيوي آلهيكلي.

ونجدُ الناقد في دراسة لبنية الِانفصام والخروج، في شعر الصعاليك الجاهليين، يفسح آلمجال لنفسه في حديث طويل عن الصراع الطبقي وآلتناقض الثقافي في عالم الجاهلية : «فإذا كانت الرؤيا المركزيَّة للثقافة تتكون وتتجلى في إطار وحدة آجتماعيَّة اقتصادية سياسية محدَّدة هي القبيلة، من حيث هي بنية كلية متماكسة، فإن رؤيا الثقافة المضادة تتشكل وتتجلى في مسافة الخروج عن هذه البنية في رفض للقبيلة»[108].

إلى جانب مشروع كمال أبو ديب آلبنيوي، ظهرت كتابات بنَيَوِيَّة أخرى في النقد العربي الحديث نذكرها هنا على سبيل التمثيل لا آلحصر، مع آلعلم أنَّها تمتح من تجربَة أبي ديب ولا تختلف عنها إلا في جزئيات من آلتحليل، بينما تظل آلنزعة في آلتحليل البنيوي متشابهة لدى زمرة من الدارسين البنيويين وأهمهم : إلياس خوري في كتابه «**دراسات في نقد الشعر**»[109] وموريس أبو ناضر في كتابه «**الألسنية والنقد الأدبي في النظرة والممارسة**»[110] وخالدة سعيد في كتابها «**حركية الإبداع : دراسات في الأدب العربي الحديث**»[111].

هكذا يظهر أن الإنجازات النقدية العربية في الِاتجاه البنيوي لم تحقق بعد

(107) **المرجع نفسه**، ص. 507.

(108) **المرجع نفسه**، ص. 575.

(109) دار بن رشد، الطبعة الأولى، 1979.

(110) دون تاريخ.

(111) دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979.

تراكماً كبيراً يمكن ٱلدارسين من الضبط ٱلدقيق لمفاهيمها وفكر أصحابها. كما أن ٱلتطبيقات العربية الجزئيّة تعترضها صعوبات ترجمة المصطلحات وتوحيد ما تمت ترجمته منها حتى يكون ٱلبحث ٱلتطبيقي البنيوي في النقد العربي متجانساً يُمْكِنُ النظر إليه كوحدة منهجيَّة قائمة على أساليب متجانسة في المنهج التحليل وٱلِاصطلاح.

IV ـ خلاصة حول أزمة المنهج في تحليل النص الأدبي : قراءة في الأصول الفكرية والحدود التطبيقية (آفاق وٱقتراح)

IV.1. حول أزمة المنهج :

إن الحديث عن الأزمة الخانقة التي يعاني منها تحليلُ النص الأدبي يستدعي الحديث عن مواصفات هذه الأزمة. فكل أزمة، أيّاً كان نوعها، تسبب خللاً وٱضطراباً وتعكس تطلُّعاً نحو ٱلجديد وسعياً حثيثاً نحو الكمال في حدوده الممكنة.

إن تاريخ الأزمة في تحليل النص الأدبي، وفي مضمار النقد الأدبي عموما، هو تاريخ التجاوز الحاصل في تاريخ النقد من نظرية لأخرى ومن منهج إلى آخر.

وهكذا يبدو أن الأزمة قَدَرٌ لا مفرَّ منه على أية حال. وهذا يستدعي تشخيصها في الوقت الراهن. ويمكن القيام بذلك على ثلاثة مستويات تظهر فيها أزمة المنهج في النقد الأدبي وتحليل النص.

IV.1.1. مستوى الذات القارئة : لا منهج بلا ذات فاعلة ومنفعلة ومتفاعلة. فالذات هي التي تتبنى المنهج وتختاره دون غيره لمواجهة نص من النصوص.

فالذات في تعاملها مع المنهج إما أن تنحو منحى الموضوعية والحياد وإما أن تنحو منحى الذاتية وٱلِارتباط النفسي والشوفيني المعروف بالتعصب.

وبالنظر إلى تعامل الذات العربية مع المنهج في تحليل النص الأدبي، نلفيها قد راوحت بين النظرة الموضوعية والنظرة الذاتية في حال تبنِّيها لمنهج نقدي عربي قديم أو منهج غربيّ معاصر. واستمر هذا الوضع المتميز من التعامل منذ عصر النهضة العربية إلى ٱلآن.

فالمعضلة النقدية على مستوى الِاختيار المنهجي تبدو معضلة إنسانية تفرض حلًّا لا يتعالى عن الإنسان وكفاءاته. فالذات تخلق حلّها آنطلاقاً من تفاعلها مع المنهج، فتتبنَّاه من سبيل موضوعية أو من طريق ذاتية.

IV.1.2. مستوى الموضوع : لا منهج بلا موضوع. فالنص الأدبي هو موضوع المنهج النقدي ومنهج تحليل النصوص. فالمنهج التحليلي منهج إنساني يتميز بجملة خواص باعتبار موضوعه، وهو النص الأدبي. وأهم هذه الخواص :

ـ النص/موضوع المنهج : إنتاجية أدبية مؤطرة بإنتاجيات ثقافية واجتماعية أكبر.

ـ النص فضاء شكلي وفضاء دلالي. فهو لعبة مؤلَّفة من المبنى والمعنى. إنه مركب يشتمل على أجزاء تمثل دلائل تفصيلية على قدرة الإنسان وكفايته (compétence) الإبداعية ضمن تاريخ الأشكال الأدبية وتاريخ الأنواع والأغراض. وهذا النِّتاج آلإبداعي تؤطره مجموعة من استراتيجيَّات التواصل ومقصديَّات الإبلاغ.

ـ إن الموضوع الأدبي، وهو النَّص، موضوع إنسانيٌّ متعالٍ عن الضبط الصارم والتحديد المطلق. لهذا لزم انتقاء الأدوات الإجرائية الكفيلة بالتلاؤم مع نوعية الموضوع أو النص المراد تحليله.

IV.1.3. مستوى المنهج : إن المنهج، كطريقة للتناول والتحليل الأدبي، لا يقوم دون عناصر تدعمه وتكمل وظيفته التحليلية. وأهم هذه العناصر عنصر النظرية والتصور (la conception).

فالنظرية ضرورية للمنهج، وبدونها لا وجود للمنهج. فهما مترابطان. فالمنهج يخرج من رحم النظرية. فهي تضبط مكتسباته وتحدد فضاءات اشتغاله. وتحدد مستوياته التطبيقية في حومة المناهج والطرق التحليلية. وتاريخ النظريات والتصورات الإنسانية يعكس مدى التحام المناهج بالنظريات والآفاق التصورية :

أ ـ فالنظرية الِاجتماعية في القرن التاسع عشر قد فسحت المجال للمنهج الِاجتماعي في دراسة الظواهر الِاجتماعية مع أوغست كونت (Auguste Comte). وتطورت تطبيقات هذا المنهج الِاجتماعي فانتقلت إلى الدراسة الأدبية والفكرية فشملت اجتهادات كثيرة تلائم بين النظرية الِاجتماعية وأنواع من الكتابة الأدبية.

فلوكاتش يطبق النظرية الاجتماعية على الرواية، وكولدمان يطبق منهجه الاجتماعي البنيوي التكويني على المسرح الراسيني والرواية عند مالرو والفكر عند پاسكال.

ب ــ والنظرية النفسية الفرويدية الكلاسيكية فتحت باباً كبيراً أمام تطوير المنهج النفسي في دراسة الأدب. وهكذا آستغلّ جاك لاكان بنية اللاشعور في منهجه لدراسة الكتابة الأدبية، وطور شارل مورون (Charles Mauron) مفهوم الأسطورة الشخصية للكاتب والأديب، واعتمد باشلار (Bachelard) على مفاهيم الإيحاء النفسي لعناصر نشأة الكون ومفاهيم إيحاءات الأحلام في مجال تحليل الظواهر الأدبية، ومال جان پيير ريشار إلى الاهتمام بأعماق الكاتب (les profondeurs de l'écrivain) في تحليل النصوص الأدبية.

ج ــ النظريَّة اللسانية والتصورات اللغوية ذات الطابع اللساني صارت بدورها في اللحظة الراهنة إحدى النظريات النقدية البارزة التي رفدت سوق المناهج النصية بأنماط متعددة من مناهج تحليل النص الأدبي. ويتم التمييز في النظرية اللسانية بين نوعين من المناهج :

* منهج ينبثق من النظرية اللسانية باعتبارها دراسة واصفة (Etude descriptive) للغة. وهو منهج يعتمد على التحليل الذري للعناصر الدنيا والوحدات اللسانية الصغرى كالصوت (son) والفونيم (phonème) والكلمة (mot). وقد يعتمد على التحليل الشمولي الذي يهتم بالجملة ويقيم دعائم نحو الجملة (grammaire de la phrase) مثل النحو التوليدي (La grammaire générative) والنحو الوظيفي (grammaire fonctionnelle).

وقد يميل التحليل إلى زاوية من زوايا الخطاب كالزاوية الدلالية، كما نلاحظه في مناهج التحليل الدلالي ذات الطابع اللساني. وهي مناهج تهتم بتحليل مستويات الدلالة التصوريَّة (La sémantique conceptuelle) ومستويات الدلالة المعجميَّة (La sémantique lexicale) ومستويات الدلالة التركيبيَّة (La sémantique syntaxique).

* منهج ينبثق من النظرية اللسانية ذات الطابع التداولي الشمولي. وهو منهج يهتم بتحليل مقصدية الخطاب ونواياه (les intentions du discours) واستراتيجيات التواصل في ظل السياقات الأدبية واللغوية.

فالمنهج التداولي يخرج من نطاق الضبط الصارم للوحدات الدنيا للخطاب الأدبي، ولينفتح على تعددية الأصوات في النص الأدبي وتداخل فعالياته الإنتاجية.

تلك إذن مجموعة من النظريات التي رفدت مناهج تحليل النص الأدبي بمجموعة من الخلفيات الفكرية التي لا يستقيم العمل التحليل المنهجي دونها.

بعد أن وقفنا على بعض مشخصات الأزمة وعناصرها، على مستوى الذات القارئة ومستوى الموضوع/النص الأدبي، سنحاول أن نبرز سلبيات كثيرة لا يخلو منها منهج تبشر به هذه النظرية أو تلك من النظريات السابقة في عرضنا. وسنحاول فيما يلي تقديم اقتراحات لحل الأزمة المنهجية الراهنة.

IV.2. سلبيات المنهج في النظريات الإجتماعية والنفسية :

نختصر هذه السلبيات المنهجية في العناصر الآتية :

IV.2.1. النزعة التفسيرية : هذه الإتجاهات الإجتماعية والنفسية تبحث عن مسلمات جاهزة غير قابلة للتغيير مهما تعددت فضاءات النصوص المحلّلة. فالمنهج أداة إجرائية تبريرية يستجيب لمتطلبات النظرية ومقتضياتها على جميع مستويات التحليل. ففي كل منهج اجتماعي مثلا أصولٌ ثابتة قد تتغير استراتيجيات التعامل معها، ولكنها تظل أصولًا ثابتة تفرض ميسطرتها التوجيهية على المنهج وتطوعه لنزعتها التفسيرية. ومن مسلَّمات المنهج الإجتماعي أن الأديب ابن بيئته وأن الكاتب يعبِّر عن طائفته الإجتماعية وفكرها (كولدمان ولوكاش)، وأن الإطار الإجتماعي والثقافي يحدد أدبية الكتابة في السياق الإجتماعي (روبير إسكاربيت R. Escarpit)، والأدب يعكس أوضاعا اجتماعية واقعية (النظرية الإنعكاسية والمنهج الإجتماعي الكلاسيكي في صورته الستالينية).

IV.2.2. السرعة في الإستنتاج : إن المناهج الإجتماعية والنفسية تتسرع في الإستنتاج، وتكتفي بالحكم على النص الأدبي من خلال الحكم على جزء منه. ففي النظرية النفسية ابتسارٌ كبير لحقيقة النص، إذ تختزل هذه الحقيقة في المعطى النفسي سواء آتخذ هذا الشكل أم ذاك في إطار العمل التحليلي. فاللاشعور في النص هو المحرك الأول والأخير للفعالية الإبداعية عند فرويد، واللّاشعور يتخذ شكل بنية في تحليل لاكان، واللّاشعور هو أعماق الكاتب عند پيير ريشار، واللّاشعور وتمظهراته تجد تعبيرها الأمثل في الأسطورة الشّخصية للأديب في منهج شارل مورون التحليليّ.

IV.2.3. تشابه الدراسة النقدية على مستوى النتائج والتأويلات : وهذا التشابه الملحوظ في النظرية الإجتماعية أو النظريَّة النفسيَّة ليس راجعاً إلى علة منهجية،

لأنّ المنهج ليس دقيقاً ولا رياضيّاً ينتظر معه أن تكون التطبيقات المختلفة منفتحة على النتائج نفسها، وإنما هو راجع إلى كون المسلمات والمسبقات ذات الطابع التفسيري والإيديولوجي تفرض ذلك.

ونظرة عجلى إلى المتن النقدي الروائي عندنا تدل على مدى تشابه النتائج التي يفضي إليها التحليل بالمنهج الِاجتماعي للرواية. وهذا لا يدلُّ على تشابهِ الروايات وتماثل فضاءاتها وأزمنتها السرديَّة، بقدرما يدلُّ على تشابه المنطلقات التفسيريَّة والمسلَّمات الإيديولوجيَّة، التي تعبث بمجموعة كبيرة من الظواهر الروائيَّة التي تظل ناتئة تتأبَّى على التفسير الساذج، وتنتظر منهجاً يحترم خصوصية العمل الأدبي وتفرُّده الذاتيّ.

IV.2.4. انعدام الضَّبط الصَّارم والدقيق للمصطلحات الإجرائية، وذلك من جهتين :

ـ الجهة الأولى : انعدام الضَّبط المصطلحي في مهد النظرية نفسها، بحيث يتعامل النُّقَّاد مع الرؤية والتصور الواحد بمصطلحات كثيرة ومتنوعة، تضيع معها وحدة المنهج والطريقة التحليليَّة.

ـ الجهة الثانية : انعدام الضبط المصطلحي في البلاد العربية التي تستورد كثيراً من بضاعتها المنهجية من الغرب. ويظهر انعدام الضبط المصطلحي في هذا الجانب. ويمكن أن نقف على صورة لهذا الخلط الحاصل في الكتابات النقدية العربية المعاصرة من خلال ملاحقة ترجمة مصطلحات منهجيّة ونقدية كرؤية العالم ورؤية الكون والفهم والتفسير والشرح والأسطورة الشخصيّة والأسطورة الملحَّة والأسطورة الخفيَّة واللّاشعور وما فوق الشعور واللّاوعي.

فهذه ترجمات متعددة ومتباينة لمصطلحات وافدة من النظريَّات الغربية في حقول النقد الأدبي. ولا يخفى ما تشكو منه أوضاع الترجمة النقدية والضبط المصطلحي عندنا من خلط واضطراب وسوء استعمال.

IV.3. سلبيات الِاتجاهات الوصفيَّة واللسانية وآفاق حل الأزمة من خلال اقتراح منهج نقديّ :

نختصر سلبيات الِاتجاهات الوصفية واللسانية في نواقص هي مصدر أزمة المنهج في تحليل النص الأدبي من وجهة وصفية ولسانية. وأهم هذه النواقص :

IV.3.1. الهاجس العلمي : لقد استقلّت اللسانيات (linguistique) انطلاقا من عهد صوسّير الذي أعلن انفصال العلم اللساني عن غيره من الظواهر الاِجتماعية والأدبية والفكرية في مطلع هذا القرن. وصارت اللسانيات تطالب بوضع قانونيّ يسمح لها بآستقلال شخصيتها بين العلوم الأخرى. وكان هذا الوضع من المطالبة بالاِستقلال التام مصدر وعي شقي كان يشكو منه النقاد اللسانيون في كل فترات حياتهم العملية والعلمية.

فقد تشكلت حركة براغ (Prague) ورفعت لواء الشكلانية (Le formalisme) لصدّ المد الواقعي الذي اكتسح الساحة الأدبية والنقدية واللسانية زمناً طويلًا.

IV.3.2. ارتباط النظرية اللسانية بالكلام العادي لا الكلام الأدبي : تأزم المنهج اللساني في تحليل النص الأدبي لشعور المحللين اللسانيين بأن منهجهم قد وضع لمعالجة الكلام العادي وهو الخطاب اليومي، لا لتحليل النصوص الأدبية ذات الرقي الجمالي والبلاغي. وأمام هذا الوضع، ظهرت انعكاسات أهمها :

أ ــ البحث عن صيغ تبيح شرعية البحث اللساني في النص الأدبي، كتقسيم مجالات الخطاب وبنياته حسب مجالات البحث اللساني وشعبه وتخصُّصاته التي تشمل الأصوات والتركيب والدلالة والمعجم وتداوليات الخطاب.

ب ــ نقل المصطلح اللساني إلى النقد الأدبي، وقد تمَّت عمليَّة النقل أول الأمر من طرف لسانيِّين مثل صوسير الذي يشير بالي (Ch. Balley) إلى أنّ له دراسات في الشعر والأدب. ومثل ياكبسن الذي اشتغل بمسائل الشعرية وكتب حول علاقة اللسانيات والنقد. ثم ظهر التطبيق اللساني على نطاق أوسع مع النقاد بعد ذلك.

ج ــ تكسير طوق النفوذ اللساني الأكاديمي وتطويع المصطلح اللساني للتطبيق الأدبي والنقدي.

ويظهر ذلك من خلال محاولات المناهج البنيوية الأدبية، والمناهج الإحصائية ومناهج دراسة الأنساق الدلالية ودراسة السرد وتطبيق التحليل النحوي والبلاغي لدراسة منطق النص وتحليل فضاءاته وأزمنته.

تلك هي مشكلات المناهج التفسيرية والوصفية واللسانية في مجال تحليل النص الأدبي. فما هي بعض آفاق حل الأزمة الراهنة يا ترى ؟

إن المنهج التحليليّ الذي من شأنه أن يتجاوز سلبيات المناهج المشار إليها في ثنايا الكلام السابق ينبغي أن يكون منهجاً يمثّل نمطاً من التركيب الضروري بين ما هو وصفي وما هو تفسيري. وقد قادنا النظر في مشكلة المنهج في تحليل النص إلى اختيار منهج وصفي تفسيري يحاول أن يفي بحقيقة النص الأدبي من جميع الجهات، وأطلقنا على هذا المنهج السيميائي التداولي (La méthode sémio-pragmatique). ومن خصائص هذا المنهج أنه يهتم بالتواصل في صوره اللغوية والأدبية جميعاً. فهو منهج سيميائيّ تواصلي أدبي يقوم على أساس سيميائيَّات التواصل الأدبي (Sémiotique de la communication littéraire)، وهي في نظرنا تتمم المشروع الذي بدأته نظرية التقبل الأدبي (La théorie de la réception littéraire) التي تعتمد على الذوق والإنطباع والإيحاء. في حين أن المنهج السيميائي التواصلي (التداولي) الأدبي الذي نقترحه يضيف إلى عناصر نظرية التقبل الأدبي عناصر النظرية اللسانية والتداولية. فهو منهج يقترح تحليل النص من زواياه اللسانية والتداولية والتواصلية الأدبية. وبذلك فهو يجمع بين حسنات المناهج التفسيرية والمناهج الوصفية اللسانية، ويقترح دمجاً رائعاً بين مستويات التحليل المذكورة يوازي تكامل مستويات البناء الفني والفضاء الدلالي والطاقة الإشارية والإيحائية في النص الأدبي كفعالية متعددة الواجهات.

ولهذا الإختيار الذي لجأنا إليه مبررات نختصرها في المبررات التالية :

1 ـ إن النص الأدبي فضاء لتقاطع ثقافات وأشكال من الوعي الفكري والفني. ولهذا يلزم أن تتدخّل فاعليّات وصفيّة وتفسيريّة لتفكيك عناصر إنتاجيّة النص من أجل إعادة تركيبها في أفق نظرة سيميائية تداولية أرحب.

2 ـ إن المنهج السيميائي التداولي يبحث في قضايا المبنى وقضايا المعنى، ويؤسس فهماً عميقاً ودقيقاً لمستويات العلاقة بين الشكل والمضمون في سياق تداولي شمولي.

3 ـ إن النص الأدبي تركيب معقد لفضاءات متباينة منها الإجتماعي والنفسي واللساني والإيديولوجي ولا يمكن فهم حقيقته الأدبية في نظرنا إلا بتشغيل سائر الطاقات التحليلية الإنسانية الممكنة لا على سبيل الإنتقاء الإعتباطي أو التسليم المسبق، وإنما عن طريق الوعي بالإنتاجية الأدبية في النص والسعي إلى الكشف عن العناصر المتحكمة فيها والموجهة لها على سائر مستويات البناء الظاهري أو البناء الفكري والتصوري الخفي للنص.

4 ـ إن المنهج السميائي التداولي الأدبي الذي ندعو له ليس اقتداء بگريماص (Greimas) أو پروپ (Propp) أو پورس (Peirce) أو پريطو (Prieto) أو يالمسليف (Hjelmslev)، وإنما هو رؤية منهَجيَّة تسعى إلى آقتراح متواضع لحل أزمة المنهج في تحليل النص في بحوثنا ودراساتنا الأكاديمية. وهي أزمة تدخل في صميم همومنا العربيَّة الراهنة على مستوى الدرس والبحث الجامعيِّين على وجه أساسيّ. ولا يتأتّى الخروج من الأزمة المنهجيَّة الخانقة إلّا بالإستفادة من سائر المناهج النقديَّة القديمة والحديثة مع السعي إلى الإنفتاح على تركيب منهجيٍّ يستجيب لتركيب بنيات النص الأدبيِّ وتداخل مستويات فعاليته الإنتاجيَّة.

وإذا جاز لنا أن نختار لمنهجنا المقترح خلفية نظرية وفكرية يعتمد عليها في استمداد تصوراته كلما كان ذلك ممكناً ـ وليس بصورة ضرورية كما هو الشأن في المناهج التفسيرية التي آنتقدناها في كلام سابق ـ، فإننا نرشح نظرية آلأنثربولوجيا الثقافية للقيام بهذا الدور التأطيريّ للمنهج السيميائيّ التداوليّ الأدبي الذي قد يخلصنا من كثير من سلبيات المناهج التي درجنا عليها في صورتها التفسيرية والوصفية اللسانية.

جزيرة سيرني
بين المصادر المكتوبة والمصادر الأثرية[1]

البضاوية بلكامل
كلية الآداب ــ الرباط

تثير «جزيرة سيرني» إشكالًا يمكن أن ينطبق على كل المواقع المندرسة، وبالأساس تلك التي يصعب تحديد مواضعها بشكل مضبوط. وبذلك نود أن نشير من خلال هذا الإسهام المتواضع إلى بعض القضايا التي يتخبط فيها الباحث في التاريخ القديم. وأسبابها عديدة نذكر منها : آنعدام المصادر المكتوبة المحلية أو نُدْرتها، قلة الأدبيات الأجنبية وتناقضها. وهذه الأمور تدفع به إلى آعتماد علوم شتى ومصادر مادية بكل أنواعها في محاولة للإحاطة بتلك الفترات الموغلة في القدم بآعتبارها جزءاً من كينونته وأيضا صيرورته.

ويندرج الموضوع المقترح للدرس ضمن سلسلة أعمال أولية شاركنا بها في ندوات وملتقيات علمية بدءا من سنة 1989، وآخترنا عناوين لا شك في أنها معبرة[2]. ونروم من وراء ذلك تبيان شح النوع الأول وحدود العلم الثاني. وهدفنا

(1) أصل هذا الموضوع مساهمة متواضعة ألقيت في المتحف الأثري في الرباط، بمناسبة اليوم العالمي للمتاحف بتاريخ 18ـ5ـ1995. وقد وقع تنقيحه بعد ذلك.

(2) عناوين بعض مداخلاتنا ــ التي يسير الموضوع الحالي في نسقها، ويستمد منها بعض عناصره ــ هي كالتالي : «الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الإغريقية ــ الرومانية»، ضمن الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الخريفية، الريصاني (1989)، منشورات وزارة الثقافة ؛ «مدن مغاربية من خلال المصدرين الأدبي والأثري (وليلي ــ شرشل ــ قرطاج)»، القنيطرة، 1990 (غير منشور) ؛ «الصويرة في عصورها القديمة من خلال الكتابات التاريخية : إشكال التسميات»، أعمال ندوة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في أكَادير ؛ «الهوية المحلية من خلال نموذج أثري : فسيفساء أعمال هرقل بوليلي»، ندوة مدينة الكاف في تونس، 1992، غير منشور؛ «مفارقات المصادر المكتوبة والمصادر الأثرية حول مواقع ما قبل الإسلام بالمغرب : إشكال نص هيرودوت حول المقايضة»، ندوة في المحمدية، 1993 (غير منشور).

الأساسي هو: رصد الإمكانات المتاحة لنا لدراسة تاريخنا القديم بآرتكازنا على المصدرين الأدبي والأثري معا ؛ ودعوة كل المتخصصين ـ ولم لا؟ ـ لسبر أغوار ماضينا. وبتظافر كل المجهودات وكافة العلوم، لا ريب أننا سنتعرف على الحلقات المفقودة.

نسلم مؤقتا بشح النصوص الأدبية. فهل معنى ذلك أننا بآعتمادنا العلم الجديد[3]، نستطيع أن نملأ ثغرات تاريخية عديدة نفتقد حولها المصادر المحلية وتسكت عنها الأدبيات الأجنبية، القرطاجية والإغريقية ـ الرومانية ؟ هل نعتبر علم الآثار بمثابة الخاتم السحري الذي سيحل إشكالات تاريخنا القديم ؟

طالما أكدنا لطلبتنا في الجامعة فائدة علم الآثار، ولكن لم تفتنا الإشارة إلى كون المعلومات التي نستقيها من الأدبيات حول المواقع يمكن أن نصنفها على الأقل إلى ثلاث مجموعات. وبذلك، فنجاعة الآثار تتأثر إلى حدما بهذه الأصناف المعلوماتية[4]، وهي :

1 ـ معلومات غزيرة وواضحة حول أعلام ومعالم قديمة، تتردد في أكثر من مصدر أدبي ويُكمل بعضها البعض ونجد حولها تطابقا جزئيا أو كليا في الآثار. من ذلك على سبيل المثال ما تذكره المصادر من أن المدينة المعينة كانت عاصمة في فترة محددة أو طيلة فترات وتوجد نقائش وآثار أخرى تؤكد ذلك.

2 ـ معلومات مكتملة نسبياً، قد نجد الإجابات الأكيدة عنها عندما تتقدم أبحاثنا الأثرية ويضحي المسح الأثري واسعا. وحتى عندما يندرس الموقع، فقطع الفخار كفيلة بتعريفنا بالتتابع الكرونولوجي للتعمير[5].

---

(3) علم الآثار وليد أواخر القرن XIX. ولكنه لم يتبلور ويصطبغ بالصبغة العلمية الصرفة إلا بحلول القرن XX. فهو بذلك من العلوم الجديدة التي تصاعد الإهتمام بها لدى جل الباحثين الذين كانوا يقتصرون أساسا على المصادر الأدبية.

(4) آعتمدنا في المقال الذي أسهمنا به في ندوة المحمدية (انظر هامش 2) على التصنيف المعلوماتي نفسه. وقد أفادنا المقال كثيرا في بلورة هذا المقال الجديد.

(5) لنتذكر القولة المأثورة لعلماء الفخار (les céramologues) بأن قطعة الفخار وحدها لها الخلود («le tesson, à lui seul l'éternité»). فصناعة الفخار قديمة ومرتبطة بآستقرار الإنسان وتعاطيه للزراعة منذ العصر الحجري الحديث (Néolithique). وبما أن لكل عصر خصوصياته ولكل بلد فخاره، فقد أضحى من آلسهل على المتخصصين في حالة اندراس المواقع أو بقائها، الإرتكاز على الفخار لتأريخ الطبقات الأثرية وتمييز الفخار المحلي والفخار المستورد.

3 ـ معلومات خيالية ـ أسطورية، أو غامضة ـ مقتضبة : قد نومن بأنْ ليس كل خيال وَهْماً، فنبحث عن مملكة العملاق أنطي (Antée)، وعن أطلس (Atlas) وسلالته، وعن حدائق الهسبريد الغناء ذات التفاحات الذهبية[6]، وبذلك ننحو منحى الأثري الألماني شليمان عندما أيقن أن طروادةَ ملحمةِ «**الإلياذة**» حقيقة وليست من نسج خيال هُومِيرُوسْ. وكان الكشف عنها في نظره أمرا حتميا وأفلح.

أما المعلومات الغامضة المقتضبة، فسواء آعتمدنا طرق البحث التاريخي أم الأثري أم غيرهما من العلوم، فلن نصل إلى حل قاطع بل ستبقى إجاباتنا مجرد آفتراضات[7].

إذن، أين يمكن إدراج المعطيات التي وردت في النصوص الأجنبية حول «جزيرة سيرني»؟ هل يمكن دمج المعلومات واستخلاص مؤشرات تساعد على ضبط موقع هذه الجزيرة؟ هل نعتبر «جزيرة سيرني» من وحي خيال القدماء، لا ارتباط لها بالواقع ولا وجود لها على أرضه، وبالتالي لا نضيع وقتنا ولا وقت الأثري في البحث عنها ؟

كما هو معلوم لدى المتخصصين في التاريخ القديم، طالما تطرقت المصادر المكتوبة لـ«ـجزيرة سيرني» وأقدمها على الإطلاق رحلة حانون (Hannow) القرطاجي في القرن الخامس قبل الميلاد. وتكرر ذكرها بعده في كتب التاريخ وفي تقارير الرحالة والجغرافيين[8].

ما هي أبرز المعلومات حول «سيرني» من خلال كل مصدر على حدة ؟

---

(6) حول أنطي وأطلس، آنظر: **المعلمة**، العدد 3، ص.847ـ848؛ **المعلمة**، العدد 2، ص.491ـ493.

(7) يدخل مقالنا الذي شاركنا به في المحمدية في هذا الإطار.

(8) انظر عن الرحلات القديمة، المرجع التالي : **J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (IVᵉ av. JC-IVᵉ ap. JC)**, Rome, 1978, 427 p.

1 ـ «سيرني» حانون :

تقع «سيرني»حانون[9] وراء أعمدة هرقل[10]، وهي عبارة عن جزيرة صغيرة يقدر محيطها بخمس سطادات وتقابل قرطاج، إذ أن المسافة التي تفصل قرطاج عن الأعمدة هي نفسها التي تفصل الأعمدة عن «سيرني» : 12 يوما من الإبحار. وللإشارة فالقرطاجيون ـ حسب الرحلة دائما ـ هم الذين أطلقوا عليها هذه التسمية[11]؛ وقد ترك فيها حانون معمرين قرطاجيين على غرار مستعمراته الأخرى التي تقع جميعها وراء **رأس سولوييس** (Cap Soloeis)[12].

سيعتقد القارئ أن عملية ضبط موقع هذه الجزيرة عملية هينة ما دام حانون قد أعطانا سلسلة أرقام؛ إذ يكفي القيام بعمليات حسابية، وذلك بتحويل أيام الإبحار إلى أميال بحرية أو كلمترات لمعرفة مدى بعد الجزيرة المذكورة عن أعمدة هرقل.

وحتى إذا سلّمنا بأن المقصود بأعمدة هرقل هما عمودا أبيلا (Abila) وكالبّي (Calpé)، ويوافقان سبتة وجبل طارق عند مدخل البحر الأبيض المتوسط، فلا نعرف بيقين كم يعادل معدل يوم إبحار عند حانون : هل 65 كلم في اليوم أو أقل أو أكثر ؟ وهل الإبحار في البحر الداخلي، أي البحر المتوسط ـ الذي تعود البحارة الفنيقيون وغيرهم ركوب مخاطره ـ سيشبهه الإبحار في البحر الخارجي، أي الأطلسي ؟

لا ننسى أن مراكب القدماء كانت بسيطة، تتحرك بالتجديف، ويستعين عليه البحارة بالرياح، ولا تبتعد أعينهم عن تتبع السواحل ؛ كما لا تفوتنا أن نذكر أنه

---

(9) **حانون** يقابله **هانئ** في المصادر العربية. وقد تكرر نص **«رحلة حانون»** ضمن العديد من المراجع، نذكر منها : F. Decret, **Carthage ou l'Empire de la mer**, éditions du Seuil, 1977, pp. 123-128 ; R. Roget, **Le Maroc chez les auteurs anciens**, éd. Les «Belles Lettres», Paris, 1924, pp. 17-18. ولتيسير الإحالات، سنعتمد بخصوص هذه الرحلة وباقي الرحلات على كتاب رايموند روجي المشار إليه أعلاه. وللتنبيه، سنورد المعلومات من المصادر بتصرف، ولكن التصرف سيحفظ للنص القديم معناه الجوهري.

(10) حول أعمدة هرقل، انظر : **المعلمة**، العدد 2، ص. 523ـ524.

(11) يعرف المصطلح تعاريف مختلفة، منها إرجاعه لأصل سامي **قرن** (KRN) وآعتباره رأسا من الرؤوس البحرية (Cap) أو Cernaa، أي «الدار الأخيرة»، وبمعنى آخر: آخر محطة تجارية قرطاجية.

(12) حول المصطلح، آنظر على سبيل المثال المقال الآتي : G. Marcy, «Notes linguistiques autour du peuple d'Hannon», **Hesperis**, XX, 1935, pp. 29-31.

خلال عصر حانون كان الشاعر بندر (Pindare)[13]، لسان عصره، يعتبر الإبحار وراء الأعمدة ضربا من المخاطرة. فهو يقول في مقطع أول : «لا يمكن للعاقل أو الأحمق أن يتخطى أعمدة هرقل التي تشكل الحد الأقصى للعالم المأهول». ويقول في مقطع ثان : «ليس بالأمر السهل عبور البحر الذي لا يمكن أن يُعبر والذي يمتد بعيدا وراء أعمدة هرقل». ويقول في مقطع أخير : «لا طريق فيما وراء قادس (Gadir)».

نشير إلى أن رأس سولوييس الذي توجد «سيرني» على بعد سبعة أيام منه لا يزال بدوره مثار نقاش بين الباحثين المعاصرين. فهو يعرف عند مجموعة أولى بأنه رأس سبارطيل (Cap Spartel)، وهو يوافق عند الأغلبية رأس كانتان (Cap Cantin) أي رأس بدوزة قرب آسفي.

فكيف سيتأتّى لنا ضبط «سيرني» حانون بشكل دقيق ما دامت نقط تحديدها متحركة وغير قارة ؟

2 ـ «سيرني» الرحالة الإغريقي سيلاكس المزعوم (Pseudo-Scylax) (القرن IV ق.م)[14] :

تقع على المسافة نفسها من أعمدة هرقل، ولكنها أهم محطة في نظر سيلاكس المزعوم، فضلا عن أنه ليس من الممكن الإبحار وراءها لوجود المنخفضات والطحالب. ويستوطنها ـ حسب سيلاكس ـ **الأثيوبيون المقدسون** (Les Ethiopiens sacrés)[15] الذين يتاجرون مع الفنيقيين فيزودونهم بجلود الأسود والفهود وجلود الفيلة وأنيابها، ويأكل الأثيوبيون اللحم ويشربون اللبن، ويصنعون الكثير من الخمور من كرومهم التي يصدرها الفنيقيون. وللإثيوبيين أيضا مدينة كبيرة تصل إليها زوارق التجار الفنيقيين.

---

(13) سبق أن أحلنا على أشعاره ضمن المقال المشترك الذي أسهما به حلال لقاء الريصاني، 1989، ص. 346ـ 347 (انظر الهامش 2 من هدا المقال). وهده مناسبة لتنبيه القراء الكرام إلى أنه وقع إقحام فقرتين (الأخيرة، ص. 345، والأولى، ص. 346) من مقال الزميلين مقدون وواحيدي ضمن مقالنا. فالمرجو تلافي الخطإ المطبعي !

(14) R. Roget, **Le Maroc chez les auteurs anciens...**, pp. 18-20. وننقل النصوص بتصرف كما أسلفنا ذكره.

(15) سنشير لِمَاماً إلى بعض العناصر الأثيوبية ضمن هذا المقال. وللمزيد، انظر: J. Desanges, **Catalogue des tribus Africaines de l'Antiquité à l'ouest du Nil**, Dakar, 1962.

إذا كانت معظم المواد المستبدلة ـ التي آستعرضها سيلاكس ـ لا تطرح أدنى إشكال، بما أنها موارد طبيعية تَمُتُّ بصلة وطيدة لقارة ليبيا (شمال إفريقيا)، قارة الحيوانات الضارية[16]، فمجال الحيوانات الضارية هو أساسا مجال الجيتول (Gétules)، وليس الأثيوبيين. وإلى عصر بلين القديم (القرن الأول الميلادي)، ظلت الفيلة وعناصر الأطولول (Autololes)، تهدد مدينة سالا (شالة بالرباط). والأطولول ـ كما هو معروف لدى المختصين في التاريخ القديم ـ فرع من الجيتول، وكانت مواطنهم تمتد على طول المحيط الأطلسي من سالا إلى موكَادور (الصويرة)[17]. إذن، فماذا عن ديار الأثيوبيين؟

تتوزع هذه العناصر بدورها إلى عدة قبائل. فهم حسب المؤرخ الإغريقي هيرودوت، كانوا يستقرون في مجال الرمال والواحات الدراتيت (Daratites) على اعتبار أنهم عناصر من الأثيوبيين حدد الجغرافيون سكناهم على ضفاف واد درعة (مثلا بوليب (Polybe) وبطوليمي (Ptolémée)). فهل نعتبر واد درعة (Darat) هو الحد الفاصل بين الجيتول والإثيوبيين؟

يظهر من تتبع المصادر أن عناصر أثيوبية أخرى مثل البرورسيين والنكَريت والفاروسيين كانوا يستوطنون شمال هذا النهر. فالبرورسيون يستوطنون ما بين واد نون وواد سوس ؛ والنكَريت يستوطنون سهل سوس ؛ والفاروسيون يستوطنون وادي تانسيفت وأم الربيع، بل ربما أيضا منطقة تافيلالت.

وهكذا فمصطلح «الأثيوبيون» فضفاض هو الآخر. فهذه المجموعة القبلية الهامة كانت تتوزع إلى عدة فروع، ويمتد مجال بعضها شمال وادي درعة ؛ وربطت علاقات المصاهرة والتعاون مع الجيتول؛ وتنم عن هذا الإمتزاج عناصر الأثيوبيين البيض (Leuko-Aethiopes)[18].

وبالرغم ممّا ذكرناه، لا ندعي أنه بآستطاعتنا الحديث بتدقيق عن كيفية آنشطار القبائل وتصاهرها وصراعاتها ؛ كما أننا لم نضبط بعد أشكال تحركاتها خلال

(16) انظر كتاب جزيل (S. Gsell) الذي يستعرض ضمنه معظم المصادر التي تتطرق للموضوع، بما في ذلك هيرودوت، صاحب تصنيف قارة ليبيا إلى عدة مجالات.

S. Gsell, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, Osnabruck, 1972, Tome I, pp. 100-137.

(17) للمزيد عن الأطولول (Autololes)، انظر : **المعلمة**، العدد 2، ص. 509–510.

(18) أوردنا تعاريف عامة حول مختلف العناصر الأثيوبية ضمن أعمال الجامعة الخريفية للريصاني، 1989.

التاريخ القديم. وبذلك لا يمكننا في الوقت الراهن آعتماد مؤشر «الأثيوبيين» لتحديد موقع «جزيرة سيرني»، ما دام المصطلح ذا حمولة كبرى.

3 ـ «سيرني» بلايفاطوس (Palaiphatos) :

بلايفاطوس[19] هو تلميذ الفيلسوف الإغريقي أرسطو (القرن IV ق. م)، تحدث في مؤلفه «**حكايات لا تصدق**» (Histoires incroyables)، عن السيرنيين. قال : «السيرنيون [نسبة إلى السيرنيين] الذين هم أثيوبيو الأصل، يسكنون خارج أعمدة هرقل، ويستوطنون الجزء الليبي الواقع على طول [نهر أنون (Annon) ؟] في مقابل قرطاج». ويؤكد بلايفاطوس أن الذهب وفير عند السيرنيين. وبما أنه تكرر أن «**سيرني تقع مقابل قرطاج**»، فسنقف عند هذا المؤشر المتكرر من خلال أكثر من مصدر.

سبق لكاركوبينو (Carcopino)[20] أن توقف عند المؤشر نفسه، وقام بسلسلة مقاييس وحسابات بمساعدة متخصصين وأفضت أبحاثه إلى ما يلي :

حسب خريطة من 1/5.000.000، فالمسافات من قرطاج إلى قادس، ومن قادس إلى وادي الذهب خطيا هي 1800 كلم ؛ وبتتبع مترو على الواقع، آحتسب 1785 كلم من قرطاج إلى قادس و1975 كلم من قادس إلى وادي الذهب. وبرر كاركوبينو الفرق بأن حانون لم يكن واضع خرائط: فلم يقس بشكل مباشر الفرق الموجود بين قرطاج والأعمدة، ولا الفرق الذي يوجد فعلاً بين الأعمدة ووادي الذهب، وبلا شك فحانون آستخلص المسافتين آنطلاقا من التكافؤ الزمني[21]. وبذلك دعا كاركوبينو إلى مطابقة سيرني حانون بجزيرة صغيرة مقابل واد الذهب وهي جزيرة هرني (Herné).

ولا شك في أن من سبق كاركوبينو أو لحق به من الباحثين كانت لهم تبريراتهم

---

(19) بلايفاطوس من خلال كتاب كاركوبينو : J. Carcopino, **Le Maroc Antique**, éd. Gallimard, Paris, 1943, p. 118.

(20) أفاض كاركوبينو في معالجة إشكالية «سيرني» ضمن مؤلفه المشار إليه أعلاه، ص. 105-163.

(21) يعني التكافؤ الزمني أن المدة الزمنية التي أمضاها حانون لقطع المسافة الرابطة بين قرطاج وأعمدة هرقل هي نفسها التي وصل فيها إلى «جزيرة سيرني». والأرقام التي نوردها مأخوذة من مؤلف كاركوبينو (الهامش 19).

لِاختيار نقط أخرى على الأطلسي وموافقتها بسيرني، وبذلك تعددت المراكز بدءاً من جزيرة فضالة وانتهاءً بجواناهاني (سان سالفادور) على الضفة الأخرى للأطلسي التي حملت اسم سيرني ! [22].

وبلا ريب، فدعاة البحث عن الحقيقة في الميدان لن يتفقوا مع ما ذكر. فهم يرون أنه لا يلزم أن نقتنع إلا بما تشهد أعيننا : فإذا أكدت بقايا بونية مستخرجة من الأرض، كان آستنتاجنا مؤكدا.

4 ـ سيرني أوسطاط (Eustathe) :

جاء أوسطاط[23] (في مؤلفه **Les commentaires**) بمعلومات ورد بعضها عند كتاب قدماء سبقوه. قال : «يحكي لنا هيرودوت أن الأثيوبيين هم أكبر الناس وأجملهم، وأنهم يأكلون اللحم المطبوخ، ويشربون اللبن، وأن الذهب وفير عندهم».

ونعرف أن الذي نعت الأثيوبيين بتلك الأوصاف (الطول، الجمال...) هو سيلاكس ـ المزعوم، وليس هيرودوت. صحيح أن هيرودوت تحدث عن الذهب الذي كان يستورده الفنيقيون من نقطة ما وراء أعمدة هرقل، وهو لم يحددها بدقة ولا تحدث عن العنصر الآخر، المقايض، بل آستعمل مصطلحات عامة للدلالة عليه كمصطلح «هؤلاء البشر» ومصطلح «الأهالي» ؛ ثم إنه لم يعرّفنا بنوعية البضائع التي كان الفنيقيون يجلبونها مقابل حصولهم على الذهب (أي التبر)[24].

هل بعد هذا نعطي لنص أوسطاط مصداقية ما ؟ ماذا نعرف بعد ذلك عن سيرني ؟

يذكر بلين القديم نقلا عن المؤرخ والرحالة الإغريقي بُوليب (Polybe) من القرن الثاني قبل الميلاد، أن سيرني توجد في حدود موريطانيا (التي هي الاسم الذي

---

(22) يلخص جاك رامان ويستعرض مختلف الآراء التي توطن «سيرني» في نقط مختلفة على الساحل الأطلسي بدءا من فضالة وانتهاءً بساحل غينيا. إلا أن نجيب محمد البهيتي هو صاحب الرأي الذي مفاده أن جوانا هاني على الضفة الأخرى للأطلسي هي «سيرني حانون» (المعرف عنده تحت **هانيْ**). للمزيد، انظر : J. Ramin, «Le périple d'Hannon», **B.A.R**, Supplementary, 3 series, 1976, p. 26, p. 32 ؛ محمد نجيب البهيتي، **المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ**، 1981، القسم الأول.

(23) نورد نص أوسطاط نقلا عن كاركوبينو : J. Carcopino, **Le Maroc Antique**..., p. 116-117.

(24) نحيل على كتاب رايموند روجي لمقارنة نصي هيرودوت وسيلاكس المزعوم وتبين مصطلحاتهما (R. Roget, **Le Maroc chez les Auteurs Anciens**..., p. 18-20).

كانَ يطلق على المغرب قديماً)، مقابل **الأطلس**، وعلى بعد ثمانية سطادات من اليابسة[25].

سنتخذ هذه المرة مؤشراً هو مصطلح «**أطلس**». وكما هو معلوم، فنص بُوليب يعرف بالنص المقلوب (le texte controversé)، لأن الرحالة بدأ عدَّ المسافات بين كل نقطة وأخرى على الأطلسي آنطلاقا من الأطلس وليس آنطلاقا من أعمدة هرقل كما كان مألوفا.

فماذا يعني الأطلس عند بُوليب ؟

يوافق أطلس ـ بُوليب، عند معظم المختصين، الأطلس الكبير الغربي الذي يظهر بدءا من رأس غير، وهو السفح الذي سبق أن تحدث عنه بلين القديم؛ والمسافة التي تفصله عن الأعمدة حسب بلين القديم 497 ميلا (745 كلم)، ولكن الصحيح أن نقول 477 ميلا: فهي المسافة الحقيقية التي تفصل مضيق الأعمدة عن الأطلس عند نقطة رأس غير[26].

وبهذا المعطى الجديد نحصر «سيرني» في شمال الخط الأطلسي ـ المغربي المعروف عند الأثريين بوفرة آثاره الفنيقية ـ القرطاجية، وإن كانت معظم تلك الآثار تتركز بالنسبة لما وراء الليمس (Limes) عند جزيرة الصويرة.

نعود إلى مصطلح «ذهب» لنرى هل سننجح بآعتماده في ضبط محطة سيرني بشكل يقيني.

إذا آستحضرنا المصادر القديمة ـ القرطاجية ثم الإغريقية ـ الرومانية، تبيَّن لنا أن المؤرخ الإغريقي هيرودوت، المعاصر للرحالة حانون، كان أول وأقدم من تحدث عن مادة ''ذهب''، وَمَوْضَعَ النقطة التي يجلب منها الفنيقيون ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ وراء الأعمدة، دون أن يعطي آسم المحطة أو تسمية مستوطنيها، ولا حتى المسافة التقريبية التي تفصلهم عن الأعمدة[27].

---

(25) حول رحلة بُوليب (Polybe) انظر : **المعلمة**، العدد 6، ص. 1854ـ1858.

(26) المقال نفسه، العدد 6 وأساسا ص. 1855ـ1856. ومن خلال هذا المقال (في «**معلمة المغرب**») أجرينا سلسلة عمليات حسابية أفضت بنا إلى آختيار مسافة 477 ميلاً عوض 497 ميلاً.

(27) نص هيرودوت حول المقايضة من خلال رايموند روجي، ص. 18.

يعتبر صمت هيرودوت محيرا. فهل نرجع سبب ذلك إلى الرواة القرطاجيين الذين تجنبوا إعطاء هيرودوت تحديدات مضبوطة خوفا من منافسة غيرهم من الشعوب المرتادة للبحر بحثا عن المنتوجات والمعادن؟ هل نسي هيرودوت ذكر آسم المحطة؟

يعتقد الباحث موني (Mauny)[28] أن صمت المصادر القديمة عن ذكر مادة «الذهب» هو تكذيب للمقولات التي نصل بالبحارة القرطاجيين إلى خليج غينيا أو تلك التي تعتبر المغرب سوقاً لذهب السودان.

ما هي النتائج التي سنستخلصها إذا حاولنا التوفيق بين الأدبيات والأبحاث الأثرية ؟

كرر جل الباحثين وعلماء الآثار ألاّ وجود لمحطات بونية ورومانية وراء موكَادور. ومن الأثريين الذين قاموا بمسح شامل ـ وبطبيعة الحال، لا يعد عملهم نهائيا ـ للخط الممتد من هذا الموقع إلى هرني، نذكر : لوكي (Luquet)، أوزينا (Euzennat)، أيمريش (Aymerich) وغيرهم[29].

ويظهر أن جل الأعمال الأثرية تدعم رأي الباحثين الذين يشيرون إلى موقع موكَادور بصفته أهم وآخر محطة قرطاجية وراء الأعمدة تستدعي أن يتم مطابقتها بـ«سيرني». فهذه الجزيرة تتوفر على لقى أثرية، تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد[30]. ويذهب جودان (Jodin)[31] إلى القول إن عملية المقايضة بين القرطاجيين و«الأهالي» تمت في هذا الموقع، ويستدل على ذلك بحبوب الرماد التي

(28) R. Mauny, «La navigation sur les côtes du Sahara pendant l'Antiquité», **Revue des Etudes Anciennes**, LVII, 1955, p. 101.

(29) من المقالات التي لها صبغة أثرية، نذكر : A. Luquet, «Prospections puniques de la côte atlantique du Maroc», **Hespéris**, 1956, pp. 117-132 ; M. Euzennat, «L'archéologie marocaine de 1958 à 1960», **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, T. V, 1960, pp. 523-564; J.G. Aymerich, «Prospections archéologiques au Sahara atlantique (Rio de Oro et Seguiet El Amra)», **Antiquités Africaines**, 13, 1979, pp. 7-21 ؛ ألا يكون وجود لآثار بونية ورومانية، لا يعني أن المواقع فارغة. فوجود مواد تعود إلى ما قبل التاريخ، أمر مؤكد.

(30) انظر على سبيل المثال : F. Villard, «Céramique grecque du Maroc», **Bulletin d'Archéologie Marocaine** IV, 1960, pp. 1-26 ; M. Euzennat, «L'archéologie marocaine de 1958 à 1960», **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, LV, 1960, pp. 523-564.

(31) A. Jodin, **Mogador, Comptoir phénicien du Maroc atlantique**, 1966, p. 29.

كشف عنها في سوية تقع مباشرة فوق الأرض البكر (la terre arable) ؛ ويفسر بأن تلك الجيوب هي نتاج بقايا الأشجار التي لم يتولد عنها سوى الكربون الخالص واللهيب المسود الذي ظل مستعملا الليل بأكمله ليظهر من بعيد. وفعلا آرتكزت صيغة التعامل حسب هيرودوت على النار، وليس اللغة. وبذلك، فالمقايضة من نوع التجارة الخرساء لغويا ولكن لها بصماتها المادية!

هل نخلص بعد آستحضار مختلف الآراء ومناقشتها وفق إمكاناتنا إلى القول إن «سيرني» هي جزيرة الصويرة ؟ لكن سيظل إشكال «الذهب» مطروحا ما دامت المنطقة لا تتوفر ضمن طبقاتها الجيولوجية على هذا المعدن النفيس.

هل نفترض أن جزيرة الصويرة لعبت دور الوسيط بين المراكز التي تمتلك التبر والشعوب التي تستورده ؟ يظهر أنها كانت مؤهلة أكثر من غيرها للعب دور الوسيط التجاري الضروري. فإلى غاية القرن الأول قبل الميلاد ظل الكتاب القدماء يعددون مزاياها[32] : من ذلك أنها خصبة، ومروية، وقريبة من الساحل...[33].

إشكال «سيرني» سيظل مفتوحا وقابلا للمناقشة؛ فلم نتوغل فيه توغلا. وليس عملنا هذا إلاّ نبشاً أولياً لإثارة قضايا مرتبطة بأسباب صعوبة البحث في التاريخ القديم ؛ وهو تكملة لأعمال سابقة[34] ؛ وهو أيضا محاولة للتنبيه إلى جدوى العمل الميداني ؛ وهو كذلك تذكير بمدخرات المتاحف التي تزخر بها بلادنا والتي تعد التتمة الطبيعية لما يوجد في بطون الكتب.

وهكذا يعتبر المؤرخون في أمسِّ الحاجة إلى معول الأثري، وعالم الآثار لا مناص له من تكوين الملف التاريخي؛ وتساؤلاتهما وفرضياتهما خطوة أساسية في البحث عن ماضينا التليد الذي هو لبنة أساسية في صيرورتنا ونظرتنا المتفائلة للمستقبل.

---

(32) عثر جودان على قوالب فخارية تستخدم لصهر المعادن، وعلى بعض شظايا المعادن المشتتة في الطبقة الأركيولوجية الفنيقية. ثم إن الصويرة ـ حسب الأستاذ رضوان العزيفي ـ لم تكن بعيدة عن مناجم الأطلس الكبير وسوس؛ وهناك دلائل على استغلال هذه المناجم منذ القدم. انظر : محمد رضوان العزيفي، «الفينيقيون في جزيرة الصويرة»، **الصويرة**، 1990، ص. 73 هامش 27.

(33) نتتبع الأوصاف التي نعت بها أريان (Arrien) الصويرة من خلال المرجع الآتي : J. Desanges, **Recherches...**, p. 69.

(34) إلى جانب آهتمامنا بأعلام المغرب القديم ومواقعه، وددنا أن نشرك طلبتنا في هذا التطلع واقترحنا موضوع «سيرني» في إطار أبحاث الإجازة. ومع ذلك، فالملف قابل بآستمرار لتتبُّعه وإضافة المستجدات إليه.

عُلَمَاءُ بِلَادِ شنقيط وَرِحْلَات الحَجِّ في القرون الماضية

محمد بن أحمد بن المحبوبي
ثانوية البنين ـ نواكشوط

إن الموضوع الذي تسعى هذه الصفحات إلى محاورته هو : (علماء البلد ورحلة الحج في القرون الماضية). والجدير بالتسطير أن هذه الصياغة تثير عظيم الإشكال وعديد المباحث.

فمن هم أبرز العلماء الذين ارتحلوا وأثروا في غيرهم ؟ وما الحواضر التي توقفوا بساحتها ؟ وكيف كانت علاقاتهم بنظرائهم في المشرق والمغرب ؟ وبِمَ امتازت رحلاتهم العلمية ؟ وما البصمات الثقافية التي أبقوها على جبين المعارف الشرقية والمغاربية ؟ وما الأسس التي انطلقوا منها في بث المعارف ونشر العلوم ؟

ذلك ما تروم هذه السطور استجلاءه جائسة خلال المصادر حتى تقف على القصد من آرتحال القوم وظعنهم. فمن أوجه التميز البارزة في المنتوج الشنقيطي أنه منتوج مرتحل ظاعن يستجيب لمشاغل بدو رحل يتخذون من ظهور العيس مدرسة، فالثقافة الشنقيطية تكاد تنفرد من بين مثيلاتها في العالم الإسلامي بالظعن والمسير حيث أبدع القوم نصوصهم وهم يضربون في الأرض ناشرين الإسلام مبتغين من فضل الله. فإذا كانت الثقافة وليدة الحضارة والتمدن وربيبة الإقامة والتحضر، فإن قومنا استطاعوا أن يظهروا هذا التقليد ويعكسوا الآية حيث أنتجوا ثقافة متميزة اكتنفها الظعن والمسير وأظلتها الحركية والإرتحال وذلك ما أوضحه المختار بن بونة الجكني بقوله[1] :

(1) محمد المختار بن أباه، **الشعر والشعراء في موريتانيا**، الدار التونسية للتوزيع والنشر، 1978، ص. 275.

ونحن ركب من الأشراف منتظـــم أجل ذا العصر قدرا دون أدنانـا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين شرع الله تبيانـــا

بوادر رحلات العلماء الشناقطة

لقد أجمع البحثة والدارسون على أن بوادر الرحلات الشنقيطية ترجع إلى بداية القرن الخامس الهجري حيث كانت حَجَّة يحيى بن إبراهيم الكدالي التي أدرك من خلالها حاجة قومه إلى مرشد ديني يبصرهم بأمر الشرع ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأرسل معه وجاج بن زلو تلميذ أبي عمران الفقيه الماجد عبد الله بن ياسين، وبذلك اصطحب الكدالي معه أول معلم حفظ لنا التاريخ ذكره[2]. فكانت حجة هذا الرجل رشدا وخيرا لأهل الصحراء. ويسود المصادر التاريخية صمت طويل يمتد إلى غاية القرن العاشر لنسمع عن حجة الشيخ سيدي أعمر الذي مر في رحلته إلى الحج بالإمام المغيلي والسيوطي، وأثناء عودته مر بالشام فأخذ عنه بعض أهلها، ثم لا تلبث الرحلة أن تنشط لتبلغ عند القوم مبلغا بعيدا، فقد تحج الدار منهم حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير، وآية ذلك أن بعد الشقة (7000 كلم تقريبا) وانقطاع السبيل ومخاطر الطريق (الأوبئة، اللصوص، المفاوز) لم يثن من سعي القوم ولم يصدهم عن سبيل الله، والأهم من ذلك أن الواحد منهم كان يخرج إلى الحج راجلا حتى يبلغ إلى مقصده وقد يعيد الكرة فيحج المرة تلو الأخرى كما فعل محمد بن سعيد جد ومحمد ابن محمد سالم الذي حج البيت سبع مرات وتوفي عائدا من حجته السابعة[3].

وتتضاعف الرحلات الشنقيطية وتزداد، ويكفي برهانا على ذلك أن أحد الباحثين أثبت في خاتمة بحثه ملحقا بأسماء الذين ارتحلوا إلى المشرق من العلماء أيام انقطاع السبيل فتجاوز عددهم الخمسين[4]، وبذلك تصبح الرحلة شريان الحياة العلمية وباعث الثقافة والفكر ورافد المعرفة والتصوف، فأكثر المرتحلين اشتغل بمشاغل العلم إلى جانب همه الناصب الذي هو الحج والعمرة فلم يرجع إلى البلاد إلا وهو محمل بإجازات القرآن وأسانيد الحديث والعلم وسلاسل التصوف، فقد حج عبد الله ابن محمد الحسني في القرن الحادي عشر ليرجع بإجازة في إضاءة الدجنة، وفي هذا

---

(2) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط**، ص. 216.
(3) **المرجع السابق**، وص.
(4) **المرجع السابق**، ص. 219.

القرن نفسه ارتحل القاضي عبد الله العلوي الذي لقي عليا الأجهوري بمصر وحاوره في بعض مسائل الفقه محاورة انتهت بتفوق صاحبنا الذي نبه طلبة الفقيه إلى فرع فاتهم وسقط من نسخة الحطاب التي بين أيديهم فعجبوا لسعة علم هذا الرجل. وحج الحاج أحمد ولد الحاج الأمين العلاوي التواتي مرات، وكان شيخ الركب من أرض شنقيط حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة[5]، وكان الحاج الأمين العلاوي قد حج واستقر هناك وهاجر معه عشرات من تلاميذه وأقربائه. وحج الحاج عثمان بن محمد بن الطالب الوافي العلاوي (ت 1121/1709) ثلاث مرات، وحج حامد ولد أحمد جد الشيخ محمد حامد الحسني راجلا وتوفي سنة (1311/1893)، وقد حج أحمد بن عمر ولد محمد اقيت بن أعمر الصنهاجي (جد أحمد باب التنبكتي) سنة (890هـ/ 1485) ولقي بمصر جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الأزهري وحج ابنه الحاج أحمد ولد أحمد ولقي جمعا كبيرا من العلماء وحج عبد الله بن محمد بن أحمد بنعيسى البوحسني (ق 11)، وقد حج عبيدي بن محمد بن ألفغ عبد الله أواسط القرن الثاني عشر الهجري ونزل بالمغرب بسجلماسة لطلب العلم[6]. ثم تأتي رحلة الحاج إبراهيم الذي حج وتوفي وهو في طريق العودة بمصر وخلف هناك مكتبة قدم بها اِبنه سيدي عبد الله الذي توقف بمصر أثناء رحلة العودة متصلا بأميرها الذي أتحفه بفرس من عتاق الخيل آثر أن يصرفه في العلم فاستبدله بشرح الحطاب[7]. ومن الذين ارتحلوا إلى المشرق أيضا نذكر محمد محمود التندغي الذي كان مفتي المالكية بمكة ومدرس الطلاب ببغداد فشهد له العلماء العراقيون بسرد الحديث ومعرفة رجاله. ونذكر كذلك الحاج الحسن بن اغبد الذي لقي الخرشي شارح خليل واستدرك عليه أربعين مسألة، وكذلك شيخ الشيوخ الفاضل بن أبي الفاضل الذي أخذ عن علي الأجهوري، ثم سيد عبد الله بن فاضل الباركي الذي مارس القضاء بالقاهرة عدة سنوات، وأخيرا عبد الرشيد الشنقيطي وقد ذكر الزبيدي أنه من جملة شيوخه[8].

وبعد أن ألممنا بمنطلقات الرحلات الشنقيطية نشير إلى أن الرحلة الحجازية اهتزت بعد ذلك وربت واستوت على سوقها مشكلة قناة واسعة للتواصل المعرفي والتبادل الثقافي. وقد انطلقت عبر طريقين نرتبهما تبعا فيما يلي :

(5) الصوفي بن محمد الأمين، **تطور المحاظر في موريتانيا**، جامعة الرياض، السعودية، 1986، ص. 415.

(6) الخليل النحوي، **مرجع سابق**، ص. 212.

(7) **المرجع السابق**، وص.

(8) **المرجع السابق**، ص. 225.

أ ـ **الطريق المالي** : وقد تمت عبره خمس رحلات منها أربعة مدونة وواجدة لم يكتبها منجزها سيدي مولود فال اليعقوبي (توفي 1267هـ).

1 ـ وسنبدأ بالحديث عن رحلة هذا الرجل منبهين إلى أنه ارتحل إلى فاس أولا بهدف زيارة الشيخ أحمد التيجاني غير أنه لقيه قد توفي فأقام بالزاوية التجانية هنالك محاورا العلماء ليرجع بنافع العلم وعظيم الأسرار الصوفية، وذلك ما حمل البعض على القول إن التيجانية وصلت البلاد مع الشيخ محمد الحافظ غير أن أسرارها وتقاليدها لم تتجذر في الربوع الشنقيطية إلا مع سيدي مولود فال[9]. وتأتي رحلته الثانية إلى المغرب لزيارة ضريح الشيخ أبي يعزي والتماسا لبركته وأملا في الإصابة من أسراره وقد أشار باب بن أحمد بيب العلوي إلى هاتين الرحلتين بقوله[10] :

سافـــــر مرتين نحو فـــــــاس   إلى الإمـــام الطـــيب الأنفـــاس
فجـــاء بالعلـــوم والأســـرار   من صحبــة الأئمــة الكبـــار

أما رحلته إلى الحج، فقد تمت سنة 1255هـ وقد حرصَ خلالها على ترسيخ الوعي الصوفي في الأذهان مخلفا بكل قرية مر بها بعضا من مريدي الطريقة التيجانية وبذلك يكون قد ساهم بشكل فعال في نشر هذه الطريقة بإفريقيا.

2 ـ أما رحلات محمد يحي بن أبوه الموسوي (1349/1930) فقد كانت مجالا خصبا للصلات المعرفية فقد سافر مرتين نحو السينغال مستأنسا بجوار الشيخ أحمد بمب الذي كان ينتدبه للتدريس مقدما إليه الكتاب في أسلوب .ن الدعابة طريف، فكثيرا ما خاطبه قائلا «يا يحيى خذ الكتاب بقوة».وقد كافأ صاحبنا هذا الصنيع بالثناء الحسن ممتدحا الشيخ، يقول[11] :

الشيخ أحمد ومن عنه الورىٰ حجبوا   ولا غرابة أن من كنهـه عجبـــوا
شمس البلاد فما للنـاس عنـه غنـى   كي يـدو طوراً وطـورا يحتــجب

وتأتي رحلته الحجازية لتجمعه بعدد من العلماء وتحمله على التدريس بأبرز

---

(9) الشيخ الولي، **دراسة شخصية سيدي مولود فال**، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، 1990، ص. 19.

(10) **المرجع السابق**، ص. 68.

(11) محمد الأمين بن ماء العينين، **تحقيق ديوان محمد يحي بن أبوه**، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، 1990، ص. 19.

الحواضر الإسلامية، فقد درس بحضرة آل الشيخ سيدي المختار الكنتي بأزواد كما توقف بتمبكتو توقفا معرفيا بث خلاله علوما كثيرة واستفاد أخرى كما تلبث بقرية كنو النيجرية محاورا خطيب مسجدها في مسائل الحديث، وقد أمده هذا الأخير برسالة إلى أحد الأعيان الذين سيمر بهم في ارتحاله يقول فيها «هو أعجوبة الزمان المشار إليه بالبنان ... نحب من فضلك أن تأخذ له التسريح من عند الإنكَليز»[12]. وبالجملة فإن رحلة محمد يحي تنطق علينا بتأثيره العلمي الواسع في القارة الإفريقية حيث مارس التدريس بأهم الحواضر الإسلامية التي مر بها : (تيمبكتو، كنو، فولامين...) لذلك استقبله أهل البلاد المزورة بشيء من الحفاوة غير قليل وتسابقوا يمدونه بنادر الكتاب وموفور المال حتى صرح أحدهم قائلا : «هو مني منزلة الرأس من الجسد والعينين من الرأس»[13].

3 ـ ونصل إلى رحلة محمد الأمين الجكني الشنقيطي المعروف (بآبه) وهي رحلة حجازية مفيدة ضمت الكثير من المباحث والمعارف واستعرضت بعض نشاطات الشيخ العلمية بالحجاز حيث كان يزاوج بين التأليف والتدريس والمحاضرة جامعا بين مختلف العلوم، مشرفا على تكوين عدد من العلماء في نجد والحجاز مقدما دروسا خصوصية يعم نفعها جعلت بعض طلابه يذهب إلى أنها «أشبه ما تكون بحديقة غناء احتوت أشهى الثمار وأجمل الأزهار»[14] وبذلك نال الحظوة عند أهل السلطان منحه الملك عبد العزيز أمرا بالجنسية لجميع من ينتمي إليه، وإلى جانب ذلك كان له دور فعال في تدعيم عرى الجامعة الإسلامية، ساعيا في الوقت نفسه إلى تأسيس رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع قوم آخرين[15]. وعلى طول الشريط الصحراوي الممتد من شنقيط إلى الحجاز مارس الشيخ التدريس متلبثا بأبرز الحواضر الإسلامية : تيمبوكتو، آنيامي، فولامين، أجنينان، الخرطوم. ففي معهد أم درمان بالخرطوم يرد على أسئلة الطلبة مفصلا القول في قصة الغرانيق، مفسرا بعض آيات القرآن، شارحا أبياتا من ألفية ابن مالك، خائضا مواضيع من عمق الأصول تتناول

---

(12) اتبيروبنت محمد عبد الرحمن، **تحقيق الجزء الثاني من رحلة محمد يحي بن أبوه**، المدرسة العليا للأساتذة 1988، ص. 65.

(13) **المرجع السابق**، ص. 68.

(14) محمد الأمين الشنقيطي، **مقدمة رحلة الحج إلى بيت الله الحرام**، ص. 20.

(15) **المرجع السابق**، ص. 3.

«السبر والتقسيم» و«المصالح المرسلة» ليتوج ذلك بدروس البلاغة. وفي يوم عرفة يلتقي بأميري أبها وتبوك ويقدم إليهما درسا أدبيا شرح خلاله إحدى قصائد جرير مركزا على إعراب بيت كان الأميران قد سألاه عنه[16]، وبذلك كانت هذه الرحلة شاهدة على تأثير الشناقطة في المشرق وحضورهم المعرفي المكثف حيث استودع الشيخ ضمن نصه بحوثا كثيرة وفقها فجاءت رحلته برهانا على فرادة العالم الشنقيطي وتمكنه من ناصية اللغة والأدب وأخذه زمام الأصول والفقه.

ونضيف هنا رحلتي عبد الودود بن سيد عبد الله اليعقوبي (1286هـ) وأحمد ابن يباه التندغي (ت 1374هـ) وهما رحلتان منظومتان، وكذلك رحلة محمد عال ولد فتى العلوي وهي رحلة مدونة ضائعة حسب ابنه الأستاذ محمد يحي، ورحلة العالم الجليل المختار بن الحسن وهي رحلة منظومة مفيدة تكشف عن جانب من حضور الشناقطة المعرفي وتأثيرهم في الحواضر الإسلامية. وكذلك رحلة الحاج محمدو أباه مؤسس مدارس الفلاح.

أما الرحلات غير المدونة المجتازة في المغرب فكثيرة وأبرزها :

ب ـ الطريق المغربي :

1 ـ رحلة كمال الدين المجيدري (1204 هـ/1787 م) ولقد التقى خلالها لفيفا من رجالات العلم والمعرفة فأصبح صديقا للمرتضى الزبيدي وخلا لأحمد بن الحاج الفاسي وتلميذاً لعبد الوهاب التازي فضلا عن علاقته الراسخة بالسلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله الذي اختارهُ لنفسه واتخذهُ من خاصة جلسائه[16مكرر]. وقد بلغت هذه الرحلة مبلغا متميزا جعل صاحبها يفرض سلطانه المعرفي على الحواضر الإسلامية التي مر بها مبرزا تفوقه العلمي وتمكنه من ناصية العلوم، مثبتا بذلك شرعية الثقافة الشنقيطية وقدرتها على منافسة مثيلاتها في المشرق والمغرب حيث امتاز حملتها بسعة المحفوظ وقوة الذاكرة، ومن خطورة هذه الرحلة وسيرورتها استوحىٰ الشناقطة مثلا شعبيا يجعل مردودها محط الأنظار ومبتغى المرتحل فنطق القوم في وسط البلاد وشمالها (أصل ماه امجيبت لمجيدري) وهذا المثل الشعبي

(16) **المرجع السابق**، ص. 195.

(16م) محمد الأمجد بن محمد الأمين السالم، **كمال الدين المجيدري حياته وآثاره**، جامعة نواكشوط، 1989، ص. 16.

يشير إلى أن الرجل قد رجع بالكثير من نفيس الكتاب وموفور المال[17].

2 ــ أما سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (1232هـ/1815م) فقد قام برحلة حجازية عاملا على اقتناء الكتاب العربي والتقاء العلماء متوقفا بأبرز الحواضر الإسلامية حيث لبث بفاس فترة لازم خلالها الفقيه البناني وأخذ عنه فروع الفقه، وفي مرحلة لاحقة انعكست الآية فكان البناني يستأنس برأي تلميذه أحيانا على ما ذكر صاحب الوسيط إذ يقول : «ثم أقام بفاس مدة كثيرة للنظر والتحرير وتلقى على البناني وتلقى البناني عنه أيضا»[18]، فأكسبه ذلك منزلة عظيمة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي رغب في محاورته باعثا إليه الرسل حتى قيل إنه كان لا يستريح إلا بمذاكرته ولا يستطيع لمفارقته صبرا[19].

2 ــ وتأتي رحلة الشيخ محمد الحافظ (1247هـ/1830م) لتغطي بعضا من النقص السائد في الأسانيد والإجازات، فبعد أن أدى المناسك حقها لبث في المدينة ليأخذ عن الشيخ الفلاني إجازة في رواية الحديث رجع بها إلى قومه لتصبح عماد شيوخ العلم ومرتكز الطلاب، ومن ثمرات هذه الرحلة أن أدخل الشيخ إلى بلاده الطريقة التيجانية، فقد مر في طريق عودته بالمغرب ليصحب الشيخ التيجاني آخذا عنه الطريقة مشافهة راجعا بها إلى أهله، فانتشرت هذه الطريقة بشنقيط على يده لتمتد إلى المناطق الإفريقية بجهوده[20].

3 ــ ونصل إلى رحلة التيجاني بن باب العلوي (ت 1257هـ/1836) الذي لبث بزاوية الشيخ التيجاني فترة لقي خلالها السيد العربي بن السائح الرباطي الذي ألف مؤلفا أسماه «**بغية المستفيد**» شرح ضمنه منظومة التيجاني «**منية المريد**» وقد أثنى في شرحه على هذا العلوي مشيرا إلى علو كعبه في العلوم مؤكدا أن له رحلة حجازية مدونة مفقودة، وفي الحرم المدني يلتقي صاحبنا بالأديب المشهور عبد الجليل برادة الذي أخبر صاحب الوسيط بعدد أيام عمر التيجاني وأطلعه على بعض منتوجه الأدبي[21].

---

(17) **نفس المرجع**، ص. 21.
(18) أحمد بن الأمين، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، ص. 38.
(19) **نفس المرجع والصفحة**.
(20) **المرجع نفسه**.
(21) أحمد بن الأمين، **الوسيط**، ص. 40.

4 ـ أما الشاعر محمد بن محمدي العلوي (1272هـ/1865)، فقد ارتحل إلى الحج متوقفا بالمغرب حيث امتدح السلطان مولاي عبد الرحمن بنصوص عديدة، والتقى بنظيره المغربي أحمد بن محمد الكنسوسي مؤلف كتاب «**الجواب المسكت**» في الرد على منكري التيجانية، وقد قرظ ابن محمدي هذا الكتاب ذاكرا فضل مؤلفه الذي أبان الحق وأوضح السبيل وجنب الناس الفتنة والخلاف يقول[22] :

أخمدت نار شقاق قد دعوك إلى	إيقادها فأبى الحلم الذي رجحا
أوضحت للناس ما صار الضلال به	هدى وصار به الليل البهيم ضحى
يا سيدي إننا جيران جاهكم	وإن لوى الوصل منا منزل نزحا
منا إليكم تحايا مثلما سمعت	آذاننا ذاكري المسك إذ نفحا
لا عاق ذهنك عن أمثالها أبدا	دهر بمثلك بين الناس ما سمحا

5 ـ ويأتي دور الشيخ ماء العينين (ت 1328 هـ/1907) الذي قام برحلة حجازية دشن خلالها جانبا من الروابط الثقافية التي نسجت علاقة شنقيط بالمغرب، فقد لبث هذا الشيخ بالصمارة فترة أصبح خلالها قطبا في التصوف لا يبارى فاشرأبّت نحوه الأعناق ومالت إليه النفوس فتسابق الطلبة والمريدون إلى حضرته التي صارت كهفا للضعيف وحمىً للمستضام ومرهما لمرضى القلوب، فأعانته هذه المكانة على تأسيس عدة زوايا عمت الصعيد المغربي «فكانت له بيوت خاصة للعلم وأخرى للتربية والذكر كما كانت له زوايا منتشرة، منها زاوية بتيزنيت وأخرى بكردوس وثالثة بمراكش ورابعة بالطالعة بفاس وخامسة بسلا إلى آخر الزوايا العينية بالمغرب»[23] وقد اشتد الوصال المعرفي بين الشيخ وبين ملوك الدولة العلوية خاصة أيام السلطان عبد العزيز حيث «كان يستقبل بتقدير لا حدود له أيام الوزير ابن موسى فتهتز الدولة متى ورد إلى المغرب والناس أتباع الملوك وأصداء لأصواتهم فمن تقرب إليه الملك شبرا تقرب إليه الناس باعا»[24].

وقد أصبح التواصل المعرفي بين الشيخ والعرش العلوي تقليدا مستمرا ربط الرجل بمعاصريه من الملوك العلويين. ولعل أبرز مثال على ذلك الحوار الذي دار بين

(22) محمد بن بدي، **تحقيق ديوان محمدي بن محمدو**، المدرسة العليا للأساتذة، 1984، ص. 67.

(23) الشيخ ماء العينين، **دليل الرفاق على شمس الإتفاق**، تحقيق البلعمشي يكن، ج 1، صفحة 5.

(24) محمد المختار السوسي، **المعسول**، ص. 56 و 5.

الشيخ وبين السلطان مولاي الحسن الأول حيث خاطب الشيخ السلطان قائلا «أدام الله ملك سيدي لقد أتيت جدك مولاي عبد الرحمن فجعلني اِبنا وأتيت أباك فجعلني أخا وأتيتك. قال السلطان : أنا أجعلك مكان أبي أيها الشيخ لشرفك وعلمك ودينك ونصحك لنا ونصرتك للحق»[25]. وبالجملة، فإن الشيخ ماء العينين كان وثيق الصلة بالبيت العلوي ذا حضور كبير وصيت منتشر في الأوساط المغربية فكان إذا توجه إلى مراكش تحرك المغرب بكامله وقامت الدنيا ولم تقعد في اِحتفالات متصلة فيتسابق الناس إليه بالهدايا كما تتسابق الشريفات إلى غسل ثوب من ثيابه[26].

6 ـ ونعرج على رحلة أحمد بن الأمين الشنقيطي العلوي (ت 1331هـ/ 1913) الذي لبث بالقاهرة عشر سنوات مثلت عصارة فكره وزبدة حياته، فكان يصل ليله بنهاره جامعا بين المطالعة والتأليف فبلغ بذلك أعلى الدرجات وتبوأ بين القوم هنالك مكانا عليا جعلهم يثنون عليه معترفين بفضله، فقد وصفه المصري فؤاد سيد قائلا : «إنه على فهم تام ومعرفة كبيرة بالعلوم الأصولية والفقهية، هذا فضلا عن علو كعبه في علوم العربية وآدابها»[27]، وأكثر من ذلك فإن هذا الباحث المصري رفع للرجل ذكره إذ قدم له ترجمة هامة في فاتحة «**الوسيط**» ويبلغ تقدير المصريين لهذا الرجل ذروته مع الشيخ سليم أبو الأقيال اليعقوبي الذي قرظ كتاب الشنقيطي «**الدرر في منع عمر**» قائلا : «إن من الفرص التي ينتهز العاقل في حياته مطالعة كتاب يأخذه إلى سماء الاِرتقاء فيجلسه على منصة أهل الفضل والفضلاء ولهذا أراني مولعا بمطالعة كتاب صديقي الشيخ أحمد أفندي الشنقيطي المسمى بـ«**سالدرر في منع عمر**».

كتـــــاب صاغـــــــه لسن	يحاكــــي نظمـــه الـــــدرر
فلا زيـــــد يضارعـــــــه	ولا عمـــــرو ولا عمـــــــر

فلله كتاب جمع فيه الفاضل بين رقة المعنى وجزالة المبنى، وبالجملة فقد بنى صاحبنا كتابه على أساس قويم»[28].

(25) المرجع السابق، ص. 96.
(26) نفس المرجع والصفحة.
(27) أحمد بن الأمين، مقدمة الوسيط.
(28) أحمد بن الأمين، الدرر في منع عمر، مطبعة الموسوعات بشارع الخلق بمصر، 1909، ص. 16.

7 ـ أما **محمد أمين الشنقيطي الحسني** (ت 1351هـ/1938) فقد لبث بأرض الحجاز فترة حج أثناءها وآطلع على بعض العلوم آخذا في السفر نحو الهند حيث آجتمع بعلمائها وحاورهم ليتجه إلى عمان ومنها إلى البحرين التي رجع منها إلى الحجاز مجتازا نحو الكويت وهنا تسابق الطلاب إلى حلقته ساعين إلى الِاقتباس من علومه وقد وصل بهم الأمر إلى الجلوس تحت أشعة الشمس حرصا على الِاستماع فأسس جمعية (النجاة) التي تهدف إلى توعية المسلمين وتبصرهم بأمور دينهم، ولما تم تأسيس هذه الجمعية أقيم حفل تكريم ألقيت خلاله القصائد التي تشيد بفضله وتعترف له بالجميل، يقول عبد اللطيف بن إبراهيم آل نصف[29] :

اليوم هللت الكويت وبكرت	لما أتاها العالم النحرير
واستبشرت فرحا بنابغة الهدى	حتى حسبنا أنها ستمور
أمعطر الإسلام من نفحاته	ومعيد روض الدين وهو نضير
بشرىٰ لهذا الثغر لما زرته	فلكم تمنت أن تراك ثغور

وبعد هذا التكريم الذي لقي بالكويت اتجه إلى مدينة الزبير بالعراق لينقطع للتوجيه والإرشاد مناديا بضرورة الجهاد مدافعا عن الخلافة العثمانية محاربا الإنكَليز وقد شارك هو بنفسه في معركة (الشعبية) مقاتلا إلى جانب العثمانيين محرضا المؤمنين على القتال داعيا إلى الصبر والِاستبسال[30]. وبالجملة فإن هذا الشيخ قد كان الوجه الثقافي المتميز الذي تعالى بالمشرق والصيحة التي تجاسرت في وجه المستعمر.

8 ـ ولنختم هذه الرحلات غير المدونة برحلة **محمد حبيب الله بن مايابي الجكني** (ت 1364هـ/1945) الذي اتصل بالسلطان مولاي عبد الحفيظ مقيما ببلاطه فترة توجت برحلة مشتركة إلى البقاع الطاهرة جمعت بين السلطان المغربي وبين العالم الشنقيطي وقد بقي ابن مايابي بالحرم المدني ناشرا المعارف والعلوم ناثرا على الطلبة الدرر الثمان ليتجه بعد ذلك إلى مصر حيث ألف الكتب وحاور العلماء[31].

أما **الرحلات المدونة**، فسنبدؤها :

---

(29) عبد اللطيف الدليشي الخالدي، **من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة**، الطبعة الأولى، 1981، ص. 111.

(30) **المرجع نفسه**، ص. 96.

(31) محمد حبيب الله بن مايابي، **دليل السالك إلى موطإ مالك**، الطبعة الأولى، 1354 هـ، ص. 205.

1 ـ برحلة المصطفى الطالب أحمد بن طوير الجنة الواداني (ت 1265هـ/ 1842) وهي رحلة حجازية مفيدة ألف الرجل خلالها كتبا عديدة من أبرزها «**فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان**» و«**الأجوبة المفحمة الكافية ومن تعنت كل متعنت شافية**» وهي عبارة عن ثلاثة عشر إشكالا في مختلف ميادين المعرفة وجهت إلى الرجل وهو في طرابلس فأجاب عَنها إجابة شافية تظهر تمكنه من الفنون وتفوقه على نظرائه في الحواضر الإسلامية يقول : «اجتمع المتعنتون من أهل طرابلس فألقوا إلي أسئلة تعنتٍ عنادا لا تفهم واسترشاداً وأنا على جناح السفر فاستعنت بالله وأجبت تلك الأسئلة كلها ولولا حرمة المراءِ والجدال في الدين لا سيما في حق الحاج لألقيت عليهم مسائل ينقضي عمر نوح عليه السلام ولم يقدروا لها على جواب»[32]. والظريف في الأمر أن هذا الرجل صادف لدَى أهل طرابلس احتفاء كبيرا بالوادانيين إذ سمعهم يرددون خلفا عن سلف جملا تؤكد أن «العلم واداني والتمر فزاني» وإن كان البعض يذهب إلى أن وادان التي يشير إليها الطرابلسيون غير التي بأرض شنقيط غير إن اِبن اطوير الجنة يرجح الرأي الأول ويعززه بالأدلة مرجحا سيرورة هذه المدينة إلى ازدهار الحركة العلمية حيث كانتِ وادان تضم يومئذ أربعين دارا متوالية كل واحدة فيها عالم[33] وقد أنشأ ابن اطوير الجنة زاوية بمراكش تحمل اسمه وذلك بالتعاون مع السلطان عبد الرحمن، يقول : (فتعاملنا معه في زاوية تكون وصلة بيننا وبينه وبيننا وبين أولاده)[34]. وقد التقى صاحبنا في رحلته عددا من العلماء غير يسير، ففي طريقه إلى مراكش حاور الولي الرباني سيدي التهامي الحميري، وفي مراكش استفاد من الولي سيدي ميمون الصحراوي، أما في فاس فقد حاور محمد التواتي، وفي طرابلس يلتقي بقاضي القضاة السيد التعازي، وفي تونس يتألف مع رجل يسمى سيدي محمد بن سلام[35]. ورحلة ابن اطوير الجنة تمثل باكورة التأليف الشنقيطي المرتجل المدون، فقد سعى صاحبها إلى تسطير مشاهداته فلم يمر بحاضرة من حواضر العلم إلا استفاد من علمائها مسجلا ملاحظاته بأسلوب أدبي واضح مبين.

---

(32) أحمد بن سيدينا، **شخصية المصطفى الطالب أحمد بن طوير الجنة**، المعهد العالي، 1987، ص. 82.

(33) زينب بنت الطالب أحمد، **تحقيق رحلة المنى والمنة**، للطالب أحمد بن طوير الجنة، جامعة انواكشوط، 1993، ص. 35.

(34) المرجع نفسه، 135.

(35) المرجع نفسه، 98.

2 ـ ونصل إلى رحلة الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي (1322 هـ/1904) الذي كان الصوت الشنقيطي المتعالي بالمشرق والوجه الثقافي الذي جادل القوم هنالك وحاورهم حوارا معرفيا ساخنا جعلهم يقنعون بفرادة الثقافة الشنقيطية وتميزها حيث جسد رسلها روحها الفذة القائمة على سعة المحفوظ وقوة الذاكرة فانبهر المشارقة لروعتها معترفين لها بالسبق وتجلى ذلك عبر شخصية محمد محمود التركزي الذي دانوا له بالتلمذة وأقبلوا على دروسه مسطرين شهاداتهم التي تكشف عن فذاذة هذا الشيخ الذي وصفه الزيات قائلا «هو آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأمثال لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند يتحدى رجال اللغة مستعينا على جهلهم بعلمه وعلى نسيانهم بحفظه حتى هابوا جنابه وكرهوا لقائه»[36]. أما أحمد علي فينوه بمكانة هذا الشيخ الجليل منبها إلى ازدهار الدرس النحوي بأرض شنقيط يقول : «.. وقد جاء ـ يعني محمد محمود ـ من قلب الصحراء الموريتانية وكان على حظ باهر من العلم والحفظ والفطنة وقد تخرج من مدرسة هنالك شابهت مدارس البصرة والكوفة وبغداد فكان درة خرجت من هذه المدرسة العلمية»[37]. أما طه حسين فيؤكد أن الطلاب الكبار كانوا يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث[38]. وأكثر من ذلك اعتبرته نعمات فؤاد وجها علميا بارزا وسطرته ضمن قممها الأدبية المتميزة، ففي معرض حديثها عن أحمد حسن الزيات تقول «... وعلى ذكر الأدب والأزهر تخايل الأدباء صورة الشيخ محمد عبده فهو أول من أدخل درس الأدب في الأزهر يظاهره رجلان هما الشيخ محمد محمود الشنقيطي والشيخ سيدي المرصفي»[39]. ومما يدل على علو كعبه وارتفاع مكانته العلمية نصادف الأديب اللبناني يوسف مقلد في كتابه «**شعراء موريتانيا المحدثون**» يصرح بفرادة الثقافة الشنقيطية مؤكدا أن القوم كانوا مصابيح المعارف والفنون ومشاعل الحضارة والعلوم ضاربا لذلك مثلا بشخصية التركزي الذي اعترف له أهل المشرق بالتمكن من علوم اللغة ومصطلح الحديث يقول على الرغم من بعد موريتانيا من المشرق فقد ظل علماؤها على اتصال به جيلا بعد جيل وكانوا أينما حلوا ونزلوا مصابيح علم وأدب، ومن هذا الرهط الشيخ محمد محمود

(36) أحمد حسن الزيات، **مجلة الأزهر**، سبتمبر 1961، ص. 291.
(37) أحمد علي، **طه حسين رجل وفكر وعصر**، دار الآداب، بيروت، 1985، ص. 144.
(38) طه حسين، **المجموعة الكاملة، المجلد الأول**، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص. 343.
(39) نعمات فؤاد، **قمم أدبية**، عالم الكتب، ص. 393.

بن التلاميد الشنقيطي الذي وصفه رشيد رضا بأنه «العلامة المحدث الذي انتهت إليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار ولاسيما علم الرواية للحديث ولأشعار العرب المخضرمين»[40].

3 ـ ونبلغ إلى رحلة محمد يحي الوالاتي (1330هـ/1912) وهي رحلة حجازية مدونة ضمنت الكثير من المباحث والعلوم فقد استودع الرجل خلالها واحدا وثلاثين فتوى تناولت مختلف جوانب الثقافة فنشر معارف قومه بذلك، مقدما للطلبة نافع العلم بمحطات توقفه طوال رحلته، ففي آغريجيت أخذ عنه مضيفه علم الحديث، وفي منطقة السوس قدم دروسا في البلاغة ليناظر بقرية (إيليغ) الفقيه محمد ابن العربي الأدوزي مناظرة علمية انتهت بتفوق صاحبنا الذي حرص كثيرا على ملاقاة العلماء فحاور ما يربو على الستين من صفوفهم بالحواضر الإسلامية وبذلك مثلت هذه الرحلة منبرا للتواصل العلمي والتأثير الصوفي بما تخللها من حرارة اللقاء مع الزوايا التيجانية المنتشرة بالرباط وتونس ومراكش والصويرة والتي كانت محط رحال الرجل ومركز إقامته فأثمرت رحلته بذلك ثمرا روحيا وثقافيا فدفعه الحوار مع العالم المغربي التادلاوي إلى نظم ثلاث مديحيات بالرباط وحملته حرارة الإستقبال التي لقي بزاوية إبراهيم الرياحي بتونس على نظم قصيدة تمتدح أهل الزاوية وتعرض لمحامد الشيخ أحمد التيجاني رضي الله عنه[41].

4 ـ ونمر على رحلة العالم محمد فال بن بابه العلوي (1349هـ/1930) منبهين إلى أنها كانت عنوانا للصلات المعرفية وبرهانا على مكانة الشناقطة العلمية وتأثيرهم البارز بالحواضر الإسلامية. فقد كان هم الرجل الناصب خلال الرحلة هو الإتصال بالعلماء والسعي إلى اقتناء الكتب. فقد التقى برجل مصري كريم يسمى عبد الفتاح أسف كثيرا لعدم علمه المسبق بقدوم الوفد الشنقيطي فقدم إليهم المعذرة مشيرا إلى أنه لو كان أحس بمجيء القوم لاستقبلهم استقبالا حارا وأنشد في ذلك قول الشاعر[42] :

لو علمنا مجيئكم لفرشنا ... مهج القلب أو سواد العيون

(40) يوسف مقلد، **شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون**، ص. 56.

(41) محمد يحي الوالاتي، **الرحلة الحجازية**، تحقيق محمد حجر، 1991، ص. 125

(42) محمد فال بن شماد، **تحقيق رحلة محمد فال بن بابه**، ص. 36.

وأكثر من ذلك يشير صاحبنا إلى أن هذا المصري مشارك في العلوم مطلع على معارف الشناقطة إذ أخرج للقوم كتبا عنده بخط الشيخ ماء العينين، وقد سعى معهم في استخلاص جوازات سفرهم ليرجع بهم إلى منزله حيث أخذ في التحضير لندوة أدبية تجمع الركب الشنقيطي بشيخ من علماء البدو هنالك اسمه أحمد حمزة كان حريصا على ملاقاة الشناقطة شغوفا بمحاورتهم فانطلق معهم إلى شاطئ البحر حيث لبثوا بعض يوم وهم ينشدون الأشعار ليتوج المجلس بالتنبيه إلى تفوق الشناقطة في الأدب حيث صرح ذلك المصري قائلا : «أنتم الذين ـ يعني الشناقطة ـ تعرفون علم الأدب أما أهل المغرب فإنما يعرفون أحكام الإستنجاء فقط»[43].

5 ـ ونختم برحلة البشير بن امباركي البهناوي (1354هـ/1932) وهي رحلة حجازية منظومة تشير إلى أن الرجل توقف بأبرز حواضر العلم (المغرب، مصر، الحجاز) محاورا العلماء مقتنيا الكتب متلبثا بحضرة الشيخ ماء العينين فترة توجه بعدها إلى فاس حيث التقى بعامل السلطان الحسن الأول وامتدحه وناوله قصيدة إلى الأمير فأعانه على الحج وكتب له بالركوب من طنجة إلى جدة يقول[44] :

وطـــلب الحاجب أن يلقانـــا	فجئتـــه بالليـــل والفتيانـــا
فاستقبـــل القـــوم بما يؤنس	وبعـــد ما طاب لديـــه المجلس
أنشدتـــه من الثنـــا شيئـــا يسير	ناولتـــه قصيـــدة إلى الأمير
فكـتب السلطـــان لي وصحبتـــي	في البحـر بالركـوب عنـد طنجـــة

خـــاتـمة

لقد سعينا خلال هذه الصفحات إلى تبيان جوانب مغمورة من حياة الشناقطة منبهين إلى صلاتهم الحميمة بالعالمين العربي والإفريقي مشيرين إلى علاقتهم المتميزة بالمغرب العربي حيث تنفتح الرحلة الشنقيطية على مصراعيها وتتجه عبر مختلف الإتجاهات شرقا وشمالا وجنوبا معربة عن العمق والثراء والحيوية والخصوبة حيث شملت حقولا معرفية شتى ضمت الفكر والأدب وغطت الجغرافية والتاريخ ولاذت بالسياسة والمجتمع ومست الإحصاء والسكان وكشفت بعض علاقات أهل الديار

(43) **نفس المرجع**، ص. 54.
(44) محمد امبارك، **تحقيق رحلة البشير بن امباركي**، المدرسة العليا للأساتذة، 1982، ص. 62.

الإسلامية بغربها منبهة إلى روابط الشيخ الشنقيطي بنظرائه في العالم الإسلامي، فالرحلات التي استعرضنا خلال هذه المشاركة قد قصت علينا من حياة المجتمع الشنقيطي وروت لنا من أنباء الحواضر الإسلامية، بل أطلعتنا على وسائل التعلم والتعليم وطرائق النظر والتفكير مقدمة أكمل مضمون حضاري مشكلة أغزر منتوج أدبي متميز، فكتابات المرتحلين من أرض شنقيط تعتبر مصدرا ثرا لعرض الثقافات والمعارف ومنطلقا لفهم النصوص الشرعية والأدبية ومجمعا للشعر والفتوى ومرصدا للعقائد وعلوم اللسان ومألفا للفقه والتفسير ومنتدى لمحاورة الرجال وملتقى لأهل الجاه والسلطان. فهي إذن موسوعات ثقافية تعمل على شد الربط بين المشرق والمغرب مشعة من نورها على الحواضر الإسلامية معربة عن تميز علماء القوم الذين آووا إلى ركن من المعرفة شديد وتبوأوا من العلم مكانا عليا.

وأكثر من ذلك استعرضت هذه الرحلات علاقات الشناقطة بالبلاط المغربي مدة قرون من الزمان ثلاثة : (ق 12، 13، 14هـ/ق 18، 19، 20) ظلت الروابط المعرفية تنمو خلالها وتتزايد مشكلة سلسلة من التبادل الثقافي متصلة الحلقات تشد الشيخ الشنقيطي بالسلطان المغربي حيث اتصل سيدي عبد الله بن محمد العلوي بالسلطان مولاي إسماعيل وبآبنه الأمير محمد العالم في حين التقى كمال الدين المجيدري وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله لتتسع دائرة هذا التواصل المعرفي فتبلغ أعلى درجاتها أيام السلطان مولاي عبد الرحمن ابن هشام الذي كان على صلة مع خمسة من علماء القوم أمدهم بأموال وأعانهم على الحج، وبالمقابل أثنوا عليه وامتدحوه وهؤلاء هم : المصطفى الطالب أحمد بن آطوير الجنة والشيخ سيدي الكبير ومحمدو بن محمدي العلوي ومحمد مولود بن أحمدو المباركي والشيخ ماء العينين. وتتواصل الروابط المعرفية مجسدة عبر اجتماع الفقيه الولاتي بالسلطان عبد العزيز وحلول البشير البهناوي بأعتاب السلطان مولاي الحسن الأول ونزول العالم الجكني محمد حبيب الله بن مايابي بجناب السلطان مولاي عبد الحفيظ وامتداح محمد يحيى ابن ابوه الموسوي اليعقوبي له كذلك وامتداح ماء العينين بن العتيق للملك محمد الخامس واصطحاب العالم محمد الأمين الجكني الشنقيطي له في صحبه حتى أدى المناسك حقها وبذلك ظل الرباط العلمي طابع علاقة المرتحل الشنقيطي بالبيت العلوي.

أما في المشرق، فإن هذه الرحلات رفعت لهذا البلد ذكره ونشرت فضله وفكره

فجلس التركزي بالأوساط المشرقية عقودا من الزمن مجادلا عن العلم خصيما، فكان بالبلاط السعودي مؤدبا محاضرا وبالديوان العثماني منقبا عن الكتاب متسائلا، وفي الصعيد المصري منظرا للنحو وفي اللغة مبارزا ومنازلا، وتواصل هذا التوجه من بعده بجهود ابن الأمين الشنقيطي الذي سعى جادا إلى انتشال التراث من الضياع ممحصا نصوصه معرفا بمنتوج القوم مسطرا تراجم بنى أرضه في كتابه «**الوسيط**»، وتتوج هذه الإسهامات المعرفية بنشاط الشيخ محمد أمين الشنقيطي الحسني الذي درس بالأوساط الكويتية والعراقية ومخلفا وراء ظهره هنالك آراء سلفية مستنيرة ومدارس إصلاحية كثيرة لا تزال تنطق علينا بعظمته.

وتأتي الرحلات المتجهة صوب الجنوب لتكشف عن عمق الصلات بين بلاد شنقيط وأرض السينغال، فرحلات القوم تعتبر عربون صداقة البلدين ورباط علاقتهما ممثلة نقاط التلاقي بين الشعبين وجذور التواصل معززة عرى الإتصال ناسجة وشائح الرحم المعرفي والقرابة العلمية وبذلك عملت هذه الرحلات على مد جسور الترابط بين مختلف الحواضر الإسلامية ساعية إلى ربط أواصر الثقافة والعلوم واستمرارها.

وصف الطريق الرابطة بين مدينتي زرهون وسلا

آقتباسا من رحلة

«غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود»

مُحمد المنوني

كلية الآداب ـ الرباط

تقديم

الرحلة التي نقتبس منها كتبها العالم والمؤلف المغربي الشهير، القاضي أحمد بن محمد العياشي سُكَيْرِج الأنصاري الخزرجي الفاسي، نزيل سطّات ودفين مراكش عام 1944/1363[1].

وقد دون فيها انطباعاته عن رحلته عام 1911/1329، من فاس إلى سلا والرباط، وكان فيها مرافقا لعميد الطائفة التجانية الشيخ محمود حفيد الشيخ أحمد التجاني[2]، وباسمه وسم المؤلف عمله بعنوان : «**غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود**»، أصلها محفوظ عند أسرة المؤلف، ومنها مصورة في «فيلم» بالخزانة العامة رقم 1029 : 202 لوحة بخطوط مغربية منوعة.

وليس من قصدنا تحليل الرحلة، وإنما نقتبس مقاطع منها تصف الطريق الرابطة لمدينة زرهون بسلا والرباط. ويرجع اختيار هذا المجال إلى ارتباطه بموضوع

---

(1) ممن ترجمه محمد بن العباس القباج: «**الأدب العربي في المغرب الأقصى**»، I، المطبعة الوطنية، الرباط، 1929/1347، 1/56ـ61 ؛ محمد الحافظ التجاني بالإشتراك مع ابن المترجم عبد الكريم سكيرج، في تصدير الطبعة المصرية لـ«**كشف الحجاب**»، ص. ز ـ ع ؛ عبد العزيز التمسماني خلّوق، «حياة القاضي أحمد سكيرج وآثاره»، مجلة **دار النيابة**، ع 9، 1986: ص. 49ـ57.

(2) يتسلسل نسبه إلى جده هكذا : محمود بن محمد البشير بن محمد الحبيب بن الشيخ أحمد التجاني.

«ندوة منطقة الغرب...» التي يحرر هذا التدخل برسمها، كما يعود اعتماد هذا المصدر بالذات إلى انفراده بين المصادر العربية ـ فيما أتذكر ـ بمعلومات مهمة عن هذا المجال والسكان في فترة هذه السياحة.

* * *

وهكذا يصف المؤلف الطريق ومحطاتها وأنهارها، ويُلِمّ بمزاراتها وبما تبقّى في جهات منها من آثار المباني الرومانية، معَ ما يغمر مساحات واسعة ـ في أرض بني حسن ـ من المستنقعات والضايات والحيوانات المتوحشة؛ وعندما يصل إلى «قصبة القنيطرة»، كما كانت تسمّى، يصف وضعها في بنايتها الجديدة كثكنة عسكرية.

وعن السكّان يتتبع القبائل في كل من «الشراردة» و«بني حسن»، فيحدد أسماءها ومواضع نزولها، ويستوعب فروع بعضها، كما يذكر القواد ومناطق حكمهم، فضلا عن ثُلّة من نُخَب السكان، وهو يهتم بوصف عاداتهم عند اقتبال الزائرين، دون أن ينسى الإشارة لانتشار المريدين التجانيين على امتداد مسار الرحلة.

ويزيد في أهمية هذه المعلومات، أنها دُونَت في شهر ذي الحجة 1329/ ديسمبر 1911، أيْ على عتبة التغيير الذي ستعرفه المنطقة، وشيكا بعد مارس سنة 1912.

إضافة إلى أن هذه المعلومات تفيد عند مقارنة الكتابات الأجنبية عن هذه الناحية، بما لدى الكتاب الوطنيين.

* * *

وقد جاءت هذه المقتبسات التي نقدم لها متفرقة خلال موضوعات منوعة، مما جعل بعضها يبتعد عن الآخر، ويتشتت في القسم الأخير من الرحلة : بين لوحات 171ـ199. وقد أشرت لمواضع هذا الفجوات، بإثبات ثلاث نقط متتابعة عقب انتهاء كل فقرة.

والآن نصل بعد هذا التقديم الوجيز، إلى عرض الفقرات المقتبسة من رحلة «**غاية المقصود**...».

* * *

نص المقتبسات من رحلة «غاية المقصود»

... ثم إننا سرنا قاصدين الشراردة ومررنا على عين الشكور، وشاهدنا في طريقنا أثر بناءات قديمة بالحجر المنجور، تشبه أثر بناءات القصر المذكور[3]. وقد تلقتنا بالطريق الأحباب والإخوان جماعة فجماعة راكبين على خيولهم المسومة، وكان اليوم خفيف المطر. وكادت الشراردة كلها أن تطير فرحا لقدومنا، إلى أن وصلنا لعين تاصلالت، وبها محل القائد الأسعد، الفاضل الأمجد، السيد المختار بن علي الشرادي الديلمي، وهذه العين من أعذب العيون ماء، ومحلها أطيب هواء، ذكر لنا القائد المذكور أن جميع من مرّ من الأجانب على طريقها يسقى منها ويثني عليها، ويصفها بأنه لا يوجد مثلها في العذوبة والخفة في قطر من الأقطار، ويوجهون من يسقي لهم منها من الأماكن البعيدة من نحو ساعتين، وذكر لنا أيضا أن هذه العين كانت تسمى بعين الصلاة، لكون المولى إدريس – رضي الله عنه – صلى بها يوم قدومه للمغرب، والله أعلم، وقد تلقانا القائد المذكور مع قبيلته التي كانت تحت حكمه...

وقد تلقانا أيضا القائد الأجل، الفاضل المبجل، الفقيه السيد منصور بن البشير الشرادي الديلمي الشكَلي – وهو القائد الآن على قبيلة الشراردة – مع وجهاء قبيلته التي يحكم عليها، ومعه كاتبه الفقيه الأجلّ، الفاضل المبجل، الشريف سيدي عبد السلام بن محمد بن العربي العمراني، وإيالة هذا القائد هي المعروفة بأولاد دليم، اشتملت على ثلاث عشرة فخذة يعبر عنها بالمائة، يحكم عليها وعلى فخذته الشناكَلة، وأولاد شاكر، وأولاد فضيلة، والعناترة، والعطاطفة، وأولاد المرابط، وأولاد ذراع، وأولاد عمر بفخذاتهم الثلاث، وهم أولاد جبارة وأولاد بوكير وأولاد يخلف بأولاد زيان، وأولاد مريم، وأولاد عمار، والسكارنة، ونصف عناترة خنيفرات...

إلى أن حططنا الرحال، أمام هؤلاء الرجال قرب العين المذكورة، ومن جملة من جاء لملاقاتنا المحب الأسعد، القائد الأمجد، السيد المكي بن المبارك العمري الشرادي...

وقد أصبح في وجهنا يوم الإثنين والأمطار هاطلة والضباب ساترا للأفق، وستر جميع الطرق، وبات معنا سيدنا النقيب[4] فطابت تلك الليلة بإيناسه...

---

(3) الإشارة إلى قصر وليلي الذي وصفته الرحلة سابقا.

(4) المؤرخ ابن زيدان.

وقد اقترح عليّ ـ أمنه الله ـ تخميس هذين البيتين، وفيهما من لطيف الوداع ما أوجب جريان دموع العينين، ونصُّهما مع التخميس :

أيها البدر الذي قلبي معك   جل مولى في كمال رفـعك   ردّ لي عقلي الذي قد تبعك
ودع الصبر محبـــا ودعك   شائع من سره ما استودعك

يا حبيبي مثل ما كنت فكن   وانظر الحال وبالعود فمُـن   سرت والعبد لسر لم يصن
يقرع السن على أن لم يكن   زاد في تلك الخطا إذ شيعك

ثم قام لوداعه ليرجع إلى مكناسة، فركب مع أصحابه فسار وعقلنا طائش معه، وكنا نتمنى أن لو سافر معنا فنجد به أنسا نتسلى به عن الوطن، وينجلي به عنا القنط والشجن.

وفي الساعة التاسعة من هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة، ركب سيدنا محمود بقصد السفر، وودعه جميع من حضر ما بين رجال ونساء ونسوان، وشرعنا في المسير والخيل المسومة محتفة من حولنا، وركب لموادعتنا المحب الأجل القائد سي منصور، مع جماعة من وجهاء قبيلته، وسرنا ونساء الدشور يتعرضون لسيدنا محمود بأواني الحليب، مظهرين للفرح بنشر أعلامهم الملونة، إلى أن وصلنا لعين سنّد (بتشديد النون)، ومنها رجع بعد موادعة سيدنا محمود، ونال من دعائه غاية المقصود، وبقي في رفقتنا القائد المكي العمري، وكنا نمر على طريق ذات انخفاض ونهوض، يكاد رائيها أن يجزم بأنه لا يقدر أحد على السلوك بها عند استرسال المطر، وانخمار طينتها التي صارت مزلقة للأقدام، من وراء وأمام، إلى أن وصلنا إلى الحجر المعروف بالصف، الذي كان يظهر لنا مثل المدينة المبيضة دورها، ومن هذا المحل رجع القائد المكي المذكور بعد موادعة سيدنا محمود، وطلبه تجديد الإذن له في الطريقة، فلقنها له مشافهة مع من حضر معه من الإخوان.

ومن هذا المحل دخلنا لباب التيوكة، وهو طريق بين جبلين يفضي الذاهب إليه من جهتي كدية ساترة لمنفذه، وهو خرق ضيق بين الجبلين، إلى أن أفضى بنا إلى أرض متسعة في فضاء واسع لا يقف النظر من جهة اليمين إلى جبل، وعن يسار الطريق رأينا ـ عن بعد ـ ضريح الولي الصالح سيدي الحاج العربي الفجلي من إخوان سيدي الزوين المشهور، وقد امتد قبالة الجنات الممتدة على الواد المعروف عند العامة بوادي رْضَمّ، وهناك رأينا المحلة الفرنسوية ضاربة قبابها، ولما رأوا كثرة الخيل التي جاءت لملاقاة سيدنا محمود أرسلوا من يأتيهم بالخبر، حتى لا يحصل من ذلك فتنة أو ضرر، وقد كانت الخيل في مضمار جَلَبات رجالها تركض ركضا، وأعلام الأفراح في أيدي نسائهم ترفرف ويزغرتون لإظهار السرور الحاصل لهم، وقد

تلقانا القائد السِّي الجيلالي بن التهامي الزيراري الشرادي أحد قواد أزغار مع وجهاء قبيلته التي يحكم عليها.

وإيالة هذا القائد من قبيلة الشراردة قبيلتان : وهما زرارة وتكنة، وعليهما يحكم، وقد نزلنا قرب ضريح الولي الصالح سيدي محمد بن أحمد المشهور قرب المقبرة التي هناك، ومحل القائد قبالتنا في الجهة الأخرى من الوادي المذكور، وقد بات معنا من الذين رافقونا من المحطة الأولى : القائد الأسعد السي المختار المتقدم، توجه معنا إلى أن نصل للرباط بحول الله، والمقدم الأجل، الشريف المبجل، ذو الأخلاق المرضية، والنفس الزكية، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله الوكيلي مقدم زاوية كرمت...

وفي قرب طلوع فجر يوم الأربعاء قدم لمحل نزولنا قاضي الشبانات : المقدم الأسعد، البركة الأمجد، سيدي العربي بن علي بن الكايسي الشباني، الساكن بالشبانات على طرف وادي رضم من أولاد بوغزوا، وقد كان قدم أولا مع جماعة من الإخوان بزرهون، وزار سيدنا محمود ثم رجع لمحله، ولما سمع بقدومه لِرْضَم جاء لملاقاتنا ليذهب معنا إلى المحطة بعد هذه، وجاء بهدية برسم النيابة في الزيارة عن قائد الشبانات القائد إدريس بن الطاهر الشباني...

ثم إننا أقمنا هذا اليوم بهذا البساط الفسيح، الذي يحصل به الِانبساط الذي به النفوس تستريح، وقد ذكروا لنا أن زرع هذه القبيلة المعروفة بأزغار يباع في الأسواق قبل بيع غيره لجودته، وأرضها يحصل فيها للمارين التلف والذهول، ولا يعرفون الخروج منها بعد الدخول، إلا لمن عرف الطريق معرفة تامة، حتى إن منهم من يبيت سائرا فإذا أصبح وجد نفسه رجع إلى المحل الذي سار منه...

ثم إننا أقمنا يوم الخميس بهذه المحطة زيادة في استراحة سيدنا محمود. وفي القرب منا أقيم سوق الخميس الذي تجعل عمارته بسوق قصبة سيدي قاسم، وهذان القصبتان بهما مبان، ويسكن إحداهما البخاري، والقصبة الثانية بها تقام الجمعة في جامع ضريح الولي الصالح سيدي قاسم أبو عسرية الذي تشد الرحال لزيارته، خصوصا الطائفة القاسمية المشهورة بفاس، فإنهم يشدون إليه الرحلة منها ومن كل ناحية في العيد النبوي من كل سنة...

وفي الساعة الثانية عشر من يوم الجمعة تاسع ذي الحجة الحرام ارتحلنا من هذه المحطة، قاصدين النزول بالدوار المعروف بتجينة، فسرنا مع الوادي على بساط بسيط يعجب الناظر، ويشفي الخاطر، بما اكتسى به من الحلة الخضراء. وكلما مررنا بمحل تلقانا أهله بأعلام الفرح لمرور سيدنا محمود على أماكنهم، والكل

يعتقد أن الأمان قد حل بأراضيهم بحلوله بها، وقد مررنا على ضريح الولي الصالح المعروف بسيدي كَدار، وبقربه بناءات من مُقدار الطين مهدومة السقف، ذكروا لنا أن المحَلّة الفرنسوية كانت هناك مقيمة إلى أن انتقلت قرب سيدي قاسم، يقال : إن سبب قيامهم انتشار الكليرة بهم من فساد الهواء، حتى أدى الحال إلى اتخاذ مقبرة وجعلوا عليها علامة وأحاطوها بأوتاد، وهذا المحل الذي به مدفن هذا الولي الصالح هو حد الشراردة وبني حسن.

وقد دخلنا لحدهم فرأيناها أرضا بسيطة لا نرى أمامنا إلا السراب من غير حد يمينا وشمالا، ولا زلنا ذاهبين على ذلك البساط المخضر حتى وصلنا لتجينه في الساعة الرابعة، فتلقانا مقدم الزاوية بها البركة الخير السيد إدريس بن المقدم البركة سيدي محمد بن الجيلالي الحسناوي التجيني، بعدما كان قدم لمُلاقات سيدنا محمود ونحن بالشراردة، وتقدم أمامنا لمحل النزول، وما قصر من الفرح والسرور، ومعه جميع الإخوان القاطنين بتجينة، وقد تلقى التقديم عن المقدم سلطان المقدمين سيدي محمد بن العربي العلوي، وقد ارتدى المقدم المذكور برداء الحياء، فلا يرفع رأسه عند مخاطبته لما فيه من الحياء الذي كساه نورا، فهو لين الجناب، خافض الجناح لكل من اجتمع به من الإخوان، وهو تجيني الأصل تجاني الطريقة، ذو جد واجتهاد، وتجينة المذكورة موقعها في بساط متسع جدا، وأرضها دائما ناعمة صيفا وشتاء لمجاورتها للمرجة المشهورة بمرجة بني حسَن، وهذه الفرحة اتسعت جدا بانتشار وادي رضم بها، وفيها وحوش برية متوحشة من خنازير وغيرها، وفي صباح يوم السبت وهو يوم عيد الأضحى أصبح البارود يسمع من نواحي تجينة، إعلاما بالعيد السعيد...

وفي الساعة التاسعة ركب سيدنا محمود وركبنا بقصد رؤية المرجة المذكورة، فلما قربنا منها رأينا عن بعد إثنى عشر فرسا بها متوحشة، ففرت هاربة أمامنا، وتقف تارة ثم تنفر أخرى وتجتمع ثم تفترق وتفترق ثم تجتمع، وهكذا إلى أن وصلنا لطرفها من جهة وادي رضم المنبسط على وجه أرضها، وقد افترقت ضاياتها، وامتدت مساحتها، حتى تكون في الشتاء ضاية واحدة، وتزداد اتساعا حتى أن طولها يبلغ مسيرة نحو إثني عشرة ساعة، وعرضها يقرب من ذلك، ولا يقدر أحد أن يقطعها لما فيها من المقاطع والخناديق البالغة، وقد ذكروا لنا أن بعض محلّات المولى الحسن رحمه الله حصل لها الغرق بها بعدتها وعددها من خيل ورجال ومدافع، ولم يجدوا من ينقذهم من ذلك ولا من عنهم يدافع، حين أحاطت بهم قبيلة بني حسن في بعض حركاته لهم في أول نصره، وهذه الضاية بها وحوش كثيرة، ودواب متوحشة من خيل وبغال وبقر من أيام المولى عبد الرحمن، وإذا احتاج المخزن إلى فرس من

تلك الخيل نصبوا لها الحبال، وأحاطت بها الرجال، إلى أن يقبضوا إحدى تلك الخيول وتجعل وسط الأنسية أياما، ثم توجه للأعتاب المخزنية.

ثم رجعنا لمحل النزول إلى قرب الساعة الثانية عشر، فارتحلنا عن هذه المحطة وقطعنا وادي رضم، وسرنا على بساط أراضي بني حسن الذي انبسط انبساطا يملأ العيون، ويسلي القلب المحزون، إلا أنه لا حرث بتلك الأراضي ولا غرس إلا فيما قل منها، وياللأسف على ضياع مثل هذه الأرض الناعمة، لو وجدت من يقوم بعمارتها حرثا وغرسا، فإنها تكون جنة الدنيا بالنعم التي تخرج منها للفلاحين، وتكون متجرة يتسارع إليها جميع الغراسين والحراثين، وكأني أنظر للمستقبل قد امتدت السكك الحديدية بها، والأرض مخضرة بالدوالي المنبسطة والأشجار المصطفة على الطريق يمينا وشمالا، حتى تصبح الأرض يانعة تجبي إليها الخيرات وتقتني منها، ويضرب بها المثل بين الأراضي فيما يخرج منها، خصوصا إذا انتشر الأمن فيها على الأموال والأنفس من اللصوص، ولا شك أنه إذا لم يسارع أهل هذا القطر المغربي إلى استعمال مثل هذا، فإنه يسبقهم إليه من يقوم بذلك، ويروا حسناتهم في ميزان الغير، ويفوتهم إبان استعمار أراضيهم بمثل هذا الخير.

ثم إننا سرنا والوادي عن يميننا إلى أن بعدنا عنه بمقدار ساعة زمانية، فدخلنا بين دوّارين انعطف من ورائهما الوادي المعروف بواد بهت انعطافا رجع به إلى أمام مسيرنا، فلوينا العنان وسرنا وهو عن يسارنا، وذلك المحل يعرف بالمريفق لشبهه لمرفق اليد في الإنعطاف، ولا زلنا مجدين في السير، وكلما تراءينا لمحل سكنى سارع أهله لملاقاتنا، وأعلام الأفراح في أيدي نسوانهم منشورة، ومن لم تجد منهن ما تجعله علما أخذت سبنية رأسها وجعلتها على قصبة وتأتي مع رفقتها، ويزدحمن على المحفة وبلغة سيدنا محمود رضي الله عنه للتبرك بها، وهكذا إلى أن وصلنا للمحل المعروف بالدهس، فتلقانا الشاب الظريف السيد محمد بن القائد الأمجد السيد محمد الكَداري مع جماعة من إخوانه، وأقاموا ملاعب الخيل أمام سيدنا محمود، ولا زالوا كذلك حتى تلقانا أيضا القائد الكَداري المذكور، وهو من أكبر القياد الذين تصلح القبيلة بصلاحه، وتفسد بإشارته، وتنقاد إليه انقياد البهيمة لمن يسوقها بالزمام، وهو في قبيلته كالأمير في رعيته، له العزوة التامة، والصولة العامة، وإيالته التي يحكم عليها اشتملت على فخذات قبيلة كَدارة، وقبيلة أكرام المشهورين بأولاد احميد من أعلى قبيلة مختار، المشهورين في الطائفة العيساوية بالتجرد عن الثياب في وقت حضرتهم مع اختلاط النساء بالرجال، ومع ذلك يظهرون خرق العوائد : من إطلاق المقعدين المزمنين، مثل ما اشتهرت بذلك قبيلة سحيم المجاورين لهم، ومن إيالته قبيلة أولاد حساين، وأولاد غياث، وأولاد موسى حساين، والشرفاء أولاد بن

حمادى، والكبارثة، والعثامنة، وزوايا قبيلة مختار، من جملتهم زاوية الفجاشيم القاطنين بالجوطة هناك قرب وادي سبو، وبها مدفن سيدي حسون من أولاد المولى إدريس رضي الله عنه، وفيها آثار بناءات قديمة، ومنها فرقة الأعشاش من مختار القاطنين بشاطئ سبو بجوار الغرب، وعندهم بناءات قديمة من رخام وحجر منجور، منقوش عليها نقوش كتابات عجمية، وهناك دفائن يعثر عليها في بعض الأحيان، حتى حدثونا بأنه وجدوا هناك دفينة نحو المدين من السكة الفضية من سكة البرقيز، عليها صور أفيال وطيور ووحوش مما يتعجب الناظر إليها...

وقد أصبح في وجهنا يوم الأحد ثاني عيد الأضحى والناس في انبساط تام، في هذا البساط المنوط بالإنعام :

بساط يملأ الأبصار حسنـــــا ويسبي عقـل كل الناظريــــن

أصبح والجو مظلل علينا بمظلة السحاب، ونحن في وسط هذا البساط الذي لا نرى من حوالينا فيه إلا السراب، حتى كأننا في فضاء والبحر محيط بنا، وفي الحقيقة لا بحر إلا ما ينحصر البصر عنه من اتساع هذه المساحة المستوية أرضها، فسبحان من دحاها...

وفي الساعة 12 من يوم الإثنين ارتحلنا من هذه المحطة، ورافقنا للموادعة القائد الكَداري نحو الساعة زمانية ثم رجع مع بعض الأصحاب، وبقي في رفقتنا أولاده وجماعة من الأصحاب، والخيل تلعب أمام سيدنا محمود، إلى أن وصلنا بعد ساعتين ونصف لضريح الولية الصالحة لال يطو، وبها محل سكنى المريد التجاني، المحب الصادق السيد العربي بن عبد العالي الثوري من سكان هذه البقعة...

ثم واصلنا المسير حتى وصلنا لمشرع الرملة، بعدما تراءت لنا قبالتنا غابة بني حسن الممتدة من باب سلا إلى قبيلة كَروان، وعرضها نحو ثلاث سوائع، ومن ورائها قبيلة زمور ومن جاورهم، وقد وصلنا لهذا المشرع قرب الساعة الخامسة، وكان مسيرنا على أرض منبسطة من أول ابتدائنا للمسير، وقطعنا وادي بهت، ولكنها قليلة الحرث لكونها رملة تحتاج إلى تغيير، وعمارة وتدبير، إلا أن أرضها ناعمة بمرعى الأنعام، حتى وصلنا لوادي هذا المشرع ويعرف بوادي تيفلت، وماؤه عذب، ومن ورائها الوادي المسمى بالسمنطو، افترق ضايات وتلاقى مع الوادي المذكور قرب الولي الصالح سيدي عيسى بحر العلم المدفون بين الوادين هناك، وفي قرب الساعة الحادية عشر من يوم الثلاثاء ارتحلنا من هذه المحطة وقطعنا المشرع المذكور، ثم سرنا في أرض ذات انخفاض وصعود، وكلها رملة لم ينبت بها إلا العشب، وإذا انبسطت كانت مأوى الضايات، وقد مررنا والغابة عن يسارنا،

وتراءى لنا عن بعد يسارنا ــ بجنب الغابة ــ ضريح الولي الصالح سيدي يشوا، وبعده ضريح الولية الصالحة لال شحواطة، وعن يميننا ــ كذلك ــ ضريح الولي الصالح سيدي عياش، وضريح الولي الصالح سيدي العربي الصحراوي.

وقد مررنا بالطريق على دوار من أولاد بورحمة، فوجدنا جماعة من النساء قد اجتمعن يكفكفن ثم يضربن وجوههن ويندبن، فسألنا عما يفعلن بعدما ظننا أن اجتماعهن لفرح لقيامهن وفي وسطهن من يغني لهن، فإذا هن اجتمعن لجنازة والمنشدة في وسطهن تذكر محاسن الهالك التي هي في الحقيقة مساوئ، وفي حالة ذكرها يكفكفن، فإذا أشارت لهن بعلامة يضربن وجوههن، وذلك من عوائدهن الخبيثة، فسرنا ونحن نسخط لفعلهن الذي أغراهن الشيطان عليه وهن من حزبه.

ولا زلنا سائرين إلى أن انعطفنا عن يمين كدية رمل، فمررنا بجنب دوار القائد بوعزة بالحسن، وهو دوار محتف بشجر الهندية، وأحاطت به حَتى أنها ترى من بعد كأنها من الغابة، وبعده ــ بنحو ربع ساعة ــ سرنا في حجر الطين الموصل لقنطرة على وعدي المشهورة، وهي الموضوعة على الوادي المعروف بالفوارات، وهو واد داخل في وادي سبو المتصل بها، وسرنا فوق طينها نحو نصف ساعة، وقد وصلنا لقصبة هذه القنطرة فوجدناها محكمة الوضع، يقرب منها وادي سبو، بعد أن اجتمع فيه غالب ويدان المغرب، وهو هنا في غاية الِاتساع، وعلى حاشيته نزلنا وحططنا الرحال بين العشاءين، بعد أن دخلنا لهذه القصبة فوجدناها ساحة متسعة، قد اصطف بها ــ قبالة الباب ــ خمس وعشرون بيتا، وعن اليسار كذلك، وعن اليمين بيوت، وفي وسطهن الجامع الموضوعة هناك بصومعتها، وفي صف الباب ــ أيضا ــ بيوت[5]، وقد وجدناها منظفة مهيأة لنزول المحلة القادمة على طريق مهدية، وقد بتنا ليلتنا والأمطار هاطلة، والأرياح عاصفة، تجل عن الصفة، حتى أنها قد قلعت أوتاد قبة سيدنا محمود، وكادت أن تطير بها للجو لولا مساعدة الخدام والأصحاب إلى الأخذ بكل سبب ممدود، حتى ضربت أوتادها ضربا محكما، أما قبابنا فلا تسأل عن اضطرابها بالأرياح، إلا أنها في تلك الحالة مثل اضطراب أرواحنا في الأشباح، جزعا من سقوط القبة على الحريم الشريف، ولكن الله سلم، والحمد لله على ذلك.

وقد أصبح في وجهنا يوم الأربعاء والجو عابس، وعاصف الرياح غير ناعس، فتهيأنا للرحيل، وقام لوداعنا المقدم البركة السيد إدريس التجيني بعد ما كان رافقنا من محله، وما قصر في البرور، كثر الله من أمثاله بفضله...

---

(5) أنظر عن هذه القصبة حسب اسمها القديم : الملحقين 1 و2.

وفي قرب الساعة العاشرة في هذا اليوم ارتحلنا من هذه المحطة التي دوختنا بأرياحها القاصفة، وكادت أن تطير بقبابنا للجو بزفّاتها المترادفة، وقد أنشدت في الطريق هذين البيتين في هذه الصدمة :

وقائلة ما بال ذا الريح قد غدا   عصيفا إلى أن رام حمل قبابي
فقلت لها للجو شوق لحملها   لما حلّ فيها من كريم جناب

وقد جاء عند ارتحالنا لزيارة سيدنا محمود : القائد بن لّحسن من دواره المتقدم، وجاء معه بعض حاشيته، وعاد قرير العين بدعاء سيدنا محمود، وهو رجل من المحبين ولكنه غير مقيد بحبل طريقتنا التجانية، فجزاه الله عن نفسه خيرا في محبة هذا الجناب الأحمدي، وجزى أمثاله من المحبين، وقد استودعنا أيضا القائد المعطي بن المدني الصرغيني، الحالّ مع العسكر المقيم بقصبة علي وعدي، بعد أن كان تلاقانا وكاد أن يطير فرحا بقدوم سيدنا محمود، وما قصر في الإكرام على قدر طاقته، ثم إننا سرنا والجو يبدي البشاشة بعد العبوس، ونحن بمرافقة سيدنا محمود طيّبو النفوس، وأرواحنا ترتاح لقرب الِاجتماع بأحبابنا برباط وسلا، الذين بهم كل غريب عن أوطانه سلا.

فمررنا على أرض غير منبسطة في ارتفاع تارة وانخفاض أخرى، وعلى طريقها أبيار مياه للسقي، منها القريب العمق، ومنها العميق، وعن يسارنا في المسيرة ــ قبل الوصول للغابة ــ بير يعرف ببير الرامي، وبه كنا أردنا النزول قبل، إلا أنه لما كان أدركنا الليل والجو يرشنا بمراشه حططنا الرحال في المنزلة المتقدمة، وعن يسار هذا البير ــ على رأس الكدية ــ ضريح الولي الصالح سيدي البخاري، وقد مررنا على طرف من الغابة التي أشرنا لها وغالب أشجارها من حطب البلوط، وسرنا به نحو ثلث ساعة، وبعدها مررنا على بيرين توضأنا من مائهما وصلينا الظهر، وبعدهما أيضا بيران يقابلان حوش الولي الصالح سيدي الشافي، وقد وجدنا هناك بعض سكان تلك الجهة يسقون ويغسلون ثيابهم على صفحات حجر معدة لذلك، فاستعرنا من أحدهم الدلو لأخذ الماء للوضوء، فامتنع من نيل الحسنة التي تكتب للمعير، ولكن صدق فيه المثل : «أبخل من مادر على غدير»، ولعل هذا النحيس من الطائفة التي تتطير بالأذان وبالصلاة، فإن في هذه القبيلة التي هي بني حسن دوارا يقال له القساطلة، يتطيرون بذلك طيرة كبيرة، فلا ترى منهم من يصلي ولا من يؤذن، وهناك في هذه القبيلة من هو ناهج منهجهم المظلم، ومن عجيب تطيرهم أنه إذا حصلت مشاجرة بينهم يقول بعضهم لبعض إما أن تسكت وإلا صليت في محلك، يعتقدون أن المحل إذا وقعت الصلاة فيه خلا واجتاح أهله على ما حدثونا بذلك عنهم، عفا الله عنا وعنهم.

ولا زلنا مجدين في السير حتى وصلنا للمحل المعروف بعامر، فوجدنا الأحباب والإخوان قد خرجوا بقصد انتظار قدومنا، وضربوا قبابهم هناك عند جنان بير الحنشة، قبالة حوش الولي الصالح سيدي محمد بن الفاطمي، ويقال لذلك المحل أيضا بودبزة، ولما أقبلنا عليهم سارعوا لملاقاتنا، وأقبلوا علينا بوجوه تغشاها الأنوار، وصدور صافية من الأغيار، بما حصل لهم من الفرح بقدوم هذا السيد الجليل، وتسارعوا لتقبيل يديه، للتبرك به وبما لديه، فكانت ملاقاتهم ترتاح بها الأرواح، ظفروا به من القبول الذي تنشرح به الصدور أكمل انشراح، فحططنا الرحال هناك قرب الساعة الرابعة بعدما طلبوا منا الإستراحة هناك.

* * *

ملحق 1 : رسالة من الوزير الصدر أحماد بن موسى في موضوع الأشغال الجارية لتجديد قصبة القنيطرة

المهندس الطالب صالح بن محمد، وبعد. وصل كتابك منطويا على صورة بسيط القصبة السعيدة التي بالقنيطرة، معلما بكمال محيطها، وبروز بنائقها على وجه الأرض حتى لم يبق لسمكها إلا رفعه، وعرفنا المقبوّ منها من غيره، وما بقي من الجهات غير مخطط فيه بنائق، وأن الأمين لم يساعد على بناء الجامع المشتملة عليه الصورة إلا بإذن، كما رام تعذير الخدمة ـ الآن ـ إلى أن يطول النهار، مع أن بناءهما ـ الآن ـ أولى لما شرحت.

وأنهينا كتابك والصورة لمولانا ـ أعزه الله ـ فأحاط علمه الشريف بذلك كله، وأحال ـ أيده الله ـ على ما صدر به أمره الشريف لخليفة عامل سلا، من أمر الأمين بالشروع في الخدمة بالمال المنفذ بمرسى العدوتين، وأما الجامع الذي أشرت إليه، فقد كتب فيه ـ عن الأمر المولوي أسماه الله ـ لخليفة العامل المذكور، يأمر الأمين ببنائه وفق ما في الصورة، والسلام، 18 رمضان عام 1314.

(كناش مراسلات مخزنية خ. س 429، ص. 18)

ملحق 2 : شهادة بوجود عمران قديم في مكان قصبة القنيطرة

ينقلها المؤرخ محمد بن علي الدكالي عن معاينة صالح بن محمد التادلي، المهندس المخاطب برسالة الملحق الأول، فيسجل ذلك المؤرخ المنوه به قائلا :

«وفي صبيحة يوم الإثنين 13 من جمادى الأولى من عام 1320، أخبرني الطالب العارف، المهندس الحيي، السيد صالح بن المكرم السيد محمد التادلي بسلا

المحروسة، أنه لما وجهه السلطان الأسعد، أمير المومنين المولى عبد العزيز، حفظه الله وأدام نصره وتأييده، لرسم شكل القصبة التي أنشأها في قبلة المهدية، على شاطئ وادي سبو بالموضع المعروف بالقنيطرة، قال : إنه عثر على حجرة قديمة كانت منصوبة على قبر هنالك، بالموضع الذي أنشئت به القصبة، مكتوب فيها ما نصه : (يوم الجمعة الأخيرة من محرم عام 749 : تسع وأربعين وسبعمائة)، قال : فاستدل بذلك على أن القصبة الأصلية التي بقي جدارها معروفا هناك وبنيت هذه على أساسها : كانت موجودة في ذلك العهد، وصاحب هذا القبر من جملة سكانها حينئذ، فاَعرف ذلك، انتهى. قاله مقيده محمد بن علي، عامله الله بلطفه الخفي».

ذكر هذا في كناشته التي تحمل رقم خ. ع، د 4257، ص. 21

نظام ڤيشي و«فرنسا الحرة» والحركة الوطنية المغربية (1940 ـ 1944)

محمد كنبيب
كلية الآداب ـ الرباط

لعل أحد أسباب التعثُّر الحاصل في البحث التاريخي بخصوص عهد الاِستعمار يَكمن في صعوبة الحصول على الوثائق الرسمية، وفي مقدمتها أصناف معينة من أرشيف الإقامة العامة في الرباط والمفوضية العليا في تطوان. فمن الصعب مثلا تفحص المراسلات الأصلية المتبادلة بين المقيم العام ونظام ڤيشي في مرحلة أولى ثم بينه وبين اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية في مرحلة ثانية. أما أرشيف «مديرية المصالح الخاصة» والأمن العسكري، وهما مصدران أساسيان باعتبار دور هاتين المصلحتين في أحداث يناير 1944 وتلفيق تهمة «التواطؤ مع العدو» للقادة الوطنيين وفي مقدمتهم الحاج أحمد بلافريج، فيستحيل على الباحث المغربي على الأقل أن ينالهما في الظروف الراهنة[1].

وعلى أثر انهيار فرنسا تحت ضربات الجيوش الألمانية وغارات سلاحها الجوي، اختار الجنرال نوغيس، وهو المقيم العام بالرباط، الاِلتزام بما أسماه «المشروعية» وقرر الاِعتراف بالنظام الجديد، «الدولة الفرنسية»، والخضوع لسلطة رئيسها، المرشال بيتان، وذلك بالرغم من نداءات الجنرال دغول الذي وجه له فعلا عدة برقيات من

(1) في غالب الأحيان، لا تقدم مصلحة الوثائق التابعة لوزارة الخارجية الفرنسية (باريس) الملفات الخاصة بمرحلة ما بعد 1939 ـ أو على الأقل الأعداد «المفتوحة» للبحث ـ إلا على شكل أشرطة (ميكروفيلم).

لندن لحثه على متابعة القتال وأعرب له عن استعداده للإمتثال لأوامره بصفته القائد العام لمسرح العمليات في شمال إفريقيا[2].

وعلى أساس انحياز نوغيس لڤيشي، شأنه في هذا الباب شأن غالبية حكام المستعمرات الفرنسية في إفريقيا والهند الصينية، التزم المغرب باتفاقية الهدنة الفرنسية ـ الألمانية فيما بين يونيو 1940 ونونبر 1942. إلا أنه استأنف القتال ضد قوى المحور عقب الإنزال الأمريكي في السواحل المغربية (8 نونبر 1942) وإخضاع الإقامة العامة لسلطة اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني المحدثة في الجزائر. وذلك ما لم يمنع نظام ڤيشي من تتبع تطور الأوضاع في المغرب بواسطة قنصليته في طنجة وبعض المواطنين الفرنسيين المقيمين في المنطقة الفرنسية والمتشبثين بالولاء للمرشال بيتان بصفته بطل معركة ڤيردان (خلال الحرب العالمية الأولى) وقائد «الثورة الوطنية» منذ انكسار يونيو 1940[3].

فكيف تعامل نظام ڤيشي مع تطلعات المغاربة فيما بين 1940 ونونبر 1942 ؟ ثم ما هي السياسة التي نهجتها «فرنسا الحرة» تجاههم فيما بين 1942 و1944، لا سيما وأن دغول رفع شعار «الحرية» وأدلى في ندوة برازڤيل بتصريحات اعتُبِرت اعترافاً بمشروعية تطلعات الشعوب المستعمَرَة إلى الحرية والإنعتاق ـ وكان ذلك تأويلًا غير مطابق لحقيقة ما ورد في كلام دغول الذي آستبعد في واقع الأمر حتى فكرة استقلال ذاتي محدود، مما جعل من موقفه مفارقة تاريخية كبرى يمكن لمس مدى انسلاخها، عمَّا أحدثته الحرب من تغيُّرات، وذلك مثلًا بالقياس إلى ما قاله الجنرال ليوطي سنة 1921 حين اعترف صراحة بوجود طموحات واضحة لدى الشبان المغاربة، بل ودعا إلى إشراكهم في وقت لاحق في تسيير بلادهم ثم «الإستعداد

---

(2) أكد دغول لنوغيس في برقية بتاريخ *19 يونيو 1940*، أي مباشرة بعد «نداء يوم *18* يونيو» الموجه للشعب الفرنسي عبر أمواج هيئة الإذاعة البريطانية قائلاً : «إنني أضع نفسي رهن إشارتكم سواء للقتال تحت أوامركم أم لأي مسعى [آخر] تعتبرونه مجدياً» ؛ وأضاف في برقية أخرى (24 يونيو) قائلاً : «إن الجميع هنا يرى فيكم قائد المقاومة الفرنسية الكبير».

(3) **وثائق وزارة الخارجية الفرنسية** (و.م.خ.ف)، باريس، سلسلة الحرب العالمية الثانية، ڤيشي ـ المغرب، مراسلات وبرقيات بالواضح وبالمرموز موجهة من القنصل العام، في طنجة، إلى حكومة ڤيشي، 31 مارس 1944، 22 ماي 1943، 3 يوليوز 1943.

للفراق حتى تحافظ فرنسا على مودتهم [المغاربة] واعترافهم بالجميل»[4].

انطلاقا من صيف 1940، تمحورت أولويات نظام ڤيشي والإقامة العامة حول السبل الكفيلة بضمان الإستقرار في المغرب واتخاذ الإجراءات الأمنية والعسكرية اللازمة للتخفيف من حدة مخلفات انهيار فرنسا على سمعتها وإقناع «الأهالي» ـ بصيغة أو بأخرى ـ بأن انهزام «الدولة الحامية» فاجعة ظرفية لا يمكنهم استغلالها لتحقيق ولو جزء ضئيل من مطالبهم القومية.

وخدمة لهذا الغرض أيضا، كانت الإقامة العامة ترصد بدقة تحركات الضباط الألمان الموجودين في المغرب في إطار لجنة الهدنة المختلطة، وتُتابع عن كثب تنقلاتهم في الدار البيضاء وغيرها من المدن بهدف مراقبة مدى التزام سلطات الحماية بشروط الهدنة. وفعلا قام هؤلاء الضباط، وفي مقدمتهم رئيسهم الدكتور أور، بمحاولات متعددة للتقرب من المغاربة مباشرة أو بواسطة محميين ألمان سابقين جردتهم فرنسا من امتيازاتهم القضائية والجبائية، بقرار أحادي الجانب، إبان نشوب الحرب العالمية الأولى[5].

وكان الإقتناع السائد لدى الإقامة العامة أن تشديد القبضة الحديدية على المغاربة يشكل أنجع وسيلة لتفويت الفرصة على الوطنيين وتأمين استمرار الوجود الفرنسي في المغرب. وقد بذل الجنرال نوغيس قصارى جهده لإقناع الألمان بأن «الأهالي» يحبون فرنسا ويقدّرونها اعترافا لها بالجميل ومساهمتها في إنهاء ما أسماه «السيبة والفوضى»، وأكد، في مراسلة بعث بها إلى ڤيشي، أن «مصلحة ألمانيا وفرنسا معا تقتضي أن يسود الإستقرارُ في المغرب» وأن فرنسا عاقدة العزم على «صيانة حرمة البلاد الترابية [المغرب] إلى حين إبرام معاهدة السلام»[6].

(4) **Cf. «Il est à prévoir, et je le crois comme une vérité historique, que, dans un temps plus ou moins lointain, l'Afrique du Nord, évoluée, civilisée, vivant de sa vie autonome, se détachera de la métropole. Il faut qu'à ce moment là, et ce doit être le but suprême de notre politique, cette séparation se fasse sans douleur et que les regards des indigènes continuent toujours de se tourner avec affection vers la France».**

(5) الرباط، 1 مارس 1941، ملحق رقم 1، تقرير الإقامة العامة ومصالح المخابرات الفرنسية حول أنشطة وتحركات ضباط لجنة الهدنة المقيمين في الدار البيضاء.

(6) **وثائق وزارة الخارجية الفرنسية**، ڤيشي ـ المغرب، الرباط، 12 مارس 1941.

وحاول نوغيس، من جهة أخرى، حث ألمانيا على عدم الإستجابة لضغوط إسبانيا ومطالِبها، وذلك لأن الجنرال فرنكو قد اشترط على هتلر، خلال لقاء هنداي، أن يسمح له بالزحف على المنطقة الفرنسية مقابل انضمام إسبانيا صراحة إلى قوى المحور، وذلك بالرغم من إدراكه لمدى تشبث الزعيم النازي بالهدنة مع فرنسا. فهل تعمد الكوديو صياغة شروط تعجيزية لضمان حياد بلاده واجتناب تسديد «ديونه» للنظام النازي، بحيث استفاد من دعم هتلر العسكري خلال الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939)؟[7].

وكيفما كان الحال، فإن الملاحظ أن الدعاية الإسبانية الموجهة للمغاربة عبر إذاعة مدريد وتطوان على الخصوص وبواسطة الجرائد، ارتكزت على انتقادات شديدة اللهجة للإستغلال الإستعماري الفرنسي وتدني أوضاع «الأهالي» الإقتصادية والإجتماعية بسببه، كما أنها رددت بكثرة شعار «وحدة المغرب الترابية»... تحت الراية الإسبانية ![8].

ونظرا لكثافة الدعاية الإسبانية وتقاطع بعض شعاراتها مع ما كانت تقوله إذاعة برلين، فقد كانت بعض الأوساط الفرنسية تعتبر أن تأثر المغاربة بـ«خطاب» الأنظمة الفاشية إمكان وارد. لذلك قرر نظام ڤيشي، مباشرة بعد يونيو 1940، تكليف ضباط سامين بمهمة آستطلاعية في المغرب لمعرفة وتقويم ردود فعل المغاربة تجاه انهزام فرنسا وإقدامها على «سياسة التعامل» مع العدو الذي هزمها واحتل نصف ترابها ؛ ويمكن قياس ما ورد في تقارير هؤلاء الضباط بما قيل وكتب بعد أحداث يناير 1944 وإلقاء القبض على الزعماء الوطنيين، وفي مقدمتهم الحاج أحمد بلافريج.

وبعد قيام العقيد دي بوسنجي وزميله غورستارزو مثلا ببحوث وتحريات ميدانية، أكدا في تقرير لهما بتاريخ 17 شتنبر 1940 :

> لقد تضررت سمعة فرنسا من جراء انهزامنا... غير أن الأهالي ما زالوا على ولائهم ... [إلا أن] بعضهم يتساءل عن إمكان احتفاظ فرنسا بالمغرب وقدرتها على الوقوف في وجه (أطماع) إسبانيا وألمانيا ... فباشا مكناس مثلا يلح على

---

(7) J.B. Duroselle, **Politique étrangère de la France. L'abîme, 1939-1944**, Paris, 1986, p. 342.

(8) الرباط، 31 دجنبر 1941، تقرير مصالح التصنت الفرنسية عن برامج إذاعة مدريد باللغة العربية وعن مقالات الصحف الإسبانية وانتقاداتها لمعاناة «الأهالي من نير الإستعمار الفرنسي» وتحاملها على اليهود.

ضرورة إدخال إصلاحات لكن باحتراس شديد وبالتدريج، لأن كل تسرع من شأنه (تسهيل) الطعن في كفاءة الإدارة (الفرنسية) السابقة وإعطاء الانطباع بأنها لا تتحكم في الوضع[9].

وفي مرحلة لاحقة، أضاف مبعوث خاص آخر هو دوميسيني، في تقرير سري، قائلًا : «إن انهزام فرنسا أذهل الأهالي ... إلا أن الأغلبية الساحقة تتفادى التشفي وتلتزم بالولاء وباحتشام مؤثر (وكأنها) تشارك فرنسا عزاءها ... وذلك ما لم يلتزم به حتى بعض الفرنسيين، إذ أنهم أبانوا عن سلوك غير لائق (إطلاقا)» ــ والواقع أن بعض المغاربة اعتبروا انكسار فرنسا «عقاباً إلاهياً» لها على تصرفاتها المتشددة في المغرب، على حد تعبير صاحب مقال «ماذا يجري بفاس ؟» الصادر في جريدة «**الوحدة المغربية**» (تطوان، 14 فبراير 1941)[10].

وقد أكدت الإقامة العامة، من جهتها، في دوريتها الشهرية الخاصة برصد وتحليل أنشطة ضباط اللجنة الألمانية للهدنة، آلتزام المغاربة آلحيطة والحذر، وآعتبرت «سلوكهم الحالي لا يعكس أي شعور عميق بالتعاطف مع ألمانيا أو محبتها ... بل إنهم يخشون العواقب الوخيمة والمفاسد المحتملة في شمال إفريقيا لو خُرقت الهدنة ... ولا يبدو أن الدعاية الألمانية توفقت في إقناع الأوساط الوطنية أو (جذبها)»[11].

وذلك ما سجله أيضا رجال المخابرات الأمريكية، التابعون لمكتب تنسيق المعلومات، والموجودون في المغرب تحت غطاء وظائف قنصلية بمقتضى اتفاق مورفي ــ ڤيكان، الذي حدد شروط تزويد شمال إفريقيا بمنتوجات أمريكية بهدف التخفيف من حدة الأزمة الغذائية وبؤس «الأهالي» في أقطارها الثلاثة، كما حدد إطار وجود «قناصل» أمريكيين إضافيين في كل من المغرب والجزائر وتونس اعترفت لهم السلطات الفرنسية بصلاحية مراقبة توزيع هذه المنتوجات وعدم إعادة تصديرها إلى فرنسا أو ألمانيا. فاغتنمت الولايات المتحدة الفرصة لإرسال فرق للمخابرات أشرف على تنسيق أنشطتها روبرت مورفي، الممثل الخاص للرئيس فرنكلين د. روزڤلت في شمال إفريقيا. وقد أعطيت الأولوية لجمع المعلومات ذات الطابع السياسي والعسكري

(9) و.و.خ.**ف**، سلسلة ف.م.
(10) و.و.خ.**ف**، سلسلة ف.م، شتنبر 1940.
(11) **المرجع نفسه**، 1 مارس 1941.

ولتهيىء الرأي العام «المحلي» لضمان تعاون السكان في حالة إقدام الحلفاء على تنظيم إنزال قواتهم في سواحل شمال إفريقيا[12].

ويذكر كنيت بندار، رئيس الفرقة الأمريكية العاملة في المغرب، يذكر فيما يخص موقف المغاربة أنهم كانوا «ينصتون بقلق لكلام عملاء المحور ويناقشونه بإسهاب ... لكنهم، في نهاية المطاف، لا يؤمنون به إلا قليلا أو يرفضونه رفضا باتا»[13].

وتحفُّظ المغاربة هذا لا يجوز اعتباره رفضاً قاطعاً لكل ما كانت تقوله الدعاية الألمانية. فقد كان من المستحيل مثلا إنكار حقيقة تصريحاتها حول انهيار فرنسا وضعفها. وذلك ما اعترفت به الإقامة العامة في تقريرها بتاريخ 6 ـ 12 أبريل 1941، حيث أكدت «أن الهزيمة لم تصب سمعة فرنسا فحسب، بل مست أيضا ثقة الأهالي بها ... وإننا لنلمس هنا تأثير المندوبية الألمانية للهدنة المؤذي ومهارتها في استغلال انتصارات ألمانيا العسكرية ومصاعب المغرب الاقتصادية الراهنة»[14].

وبصرف النظر عما خلفه انهزام فرنسا واحتلالها من انطباعات لدى المغاربة، فإن فكرة استغلال الظرفية الأوربية والدولية لتحقيق المطالب الوطنية كانت واردة في أذهان الزعماء الوطنيين، سواء الموجودون منهم على الساحة أم أولئك الذين نُفُوا أو زُجَّ بهم في السجون عقب مظاهرات خريف 1937. ففي سياق حديثه عن المتغيرات الجوهرية المترتبة عن الحرب، أشار المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان بكثير من السخرية إلى ما أثارته فكرة قيام اتصالات بين بعض الوطنيين المغاربة وقوى المحور من صراخ ومزايدات بين مواطنيه، واعتبر أنه من حق هؤلاء التفكير في صيغ من شأنها الضغط على المستعمِر لإرغامه على الاستجابة لمطالبهم المشروعة[15].

وبالرغم من قيام بعض الوطنيين باتصالات أولية مع ألمانيا وإيطاليا، فإنهم لم يتحركوا بجد في الواقع للتقرب من قوى المحور ولم يعلنوا عن أي تأييد لمعسكرها، وذلك لاعتبارات شتى، منها مثلا استنكارهم للإيديولوجيا النازية وعنصريتها الجوهرية ولسياسة هتلر التوسعية. وقد سبق لبعضهم، أمثال الزعيم علال الفاسي، الوقوف في

(12) K. Pendar, **Le Dilemme France-Etats-Unis, une aventure diplomatique**, Paris, 1948.

(13) المرجع نفسه.

(14) و.و.خ.ف، ف.م.

(15) Ch.-A. Julien, **Le Maroc face aux impérialismes**, Paris, 1978.

أواسط الثلاثينيات بجانب العصبة العالمية ضد مناهضة السامية والمساهمة في مهرجانات مشتركة تم تنظيمها في المدن المغربية الكبرى وتناول الكلمة خلالها برنارد لوكاش، رئيس هذه الجمعية المحدثة في باريس[16].

ولا شك في أن الوطنيين أخذوا بعين الاِعتبار أيضا سياسة ألمانيا في المشرق ونوعية تعاملها مع العرب والمسلمين، إذ اكتفت، عموماً، باستقبال مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، في برلين بعبارات تطغى عليها المجاملة وينقصها أي التزام سياسي ملموس، بل تطغى عليها محاولة مغالطة الرأي العام الدولي، وذلك بتوظيف «خطاب» يخلط بين معاداة اليهودية وموقف العرب الرافض للصهيونية ولاستحواذ يهود أجانب على فلسطين[17].

كما استخلص الوطنيون الدرس من موقف ألمانيا الاِنتظاري وتهربها بعد آندلاع مجابهة مباشرة بين إنجلترا والعراق في أبريل ـ ماي 1941، وقيام سلاح الجو البريطاني بقصف مكثف لمدينة بغداد، ولطمس حقيقة موقف الحكومة الألمانية وتغطية «حيادها»، واصلت إذاعة برلين حملاتها الدعائية مركزة على تعاطف النظام النازي مع قضايا العرب وانشغالاتهم ؛ وفي نشرتها الإخبارية باللغة العربية ليوم 25 ماي 1941، أشارت إلى استنكار مختلف أنحاء العالم للغارات الجوية البريطانية على بغداد وقالت : «إن صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف وجه برقية مواساة للحكومة العراقية عبر فيها عن تضامن الشعب المغربي مع العراق واستنكاره للعدوان الإنجليزي الغاشم». وذلك ما أذاعته أيضا محطة تطوان، حيث تحدثت عن «تضامنْ العرب مع العراق الذي يكافح من أجل استقلاله واستقلال العرب» وأهابت بالعرب لمساعدته على الاِستعمار الإنجليزي[18].

---

(16) ساند الوطنيون، وفي مقدمتهم علال الفاسي، ب. لوكاش انطلاقا من تعاطفهم مع برنامجه وكذلك لحثه على التدخل لدى ليون بلوم لفائدة القضية المغربية. وقد رفض محمد الحسن الوزاني تزكية هذا المنهج.

(17) حول علاقات الحاج أمين الحسيني بألمانيا ومقابلته في برلين لوزير الخارجية فون ريبنتروب (20 نونبر 1941) ثم هتلر (28 نونبر) وإلحاحه على تشكيل «مفرزة عربية» لمقاومة الجيوش الإنجليزية في الأقطار العربية، انظر : T. Jbara, **Palestinian Leader Hajj Amin Al-Husayni Mufti of Jerusalem**, Princeton, 1985, pp. 184-185.

(18) حول ظروف اندلاع الحرب بين العراق وإنجلترا وأهم أطوارها، انظر : A. Al-Qassaz, «The Iraqi-British War of 1941: A Review Article», in **International Journal of Middle East Studies**, 4, 1976, pp. 591-596.

وأشارت مصالح الإستعلامات الفرنسية، من جهتها، في تقرير لها بتاريخ 3 شتنبر 1941، إلى أن «ألمانيا ستظهر، في حالة تدخلها في العراق، بمظهر المدافع عن الإسلام» ؛ وأكدت أيضا، في سياق تحليلها لردود فعل المغاربة، أنهم يتبعون أحداث العراق وأنه من المحتمل قيامهم بتنظيم «حملة لجمع التبرعات المالية لفائدة العراقيين»[19].

وفي محاولة لتدارك الموقف، كثّفت بريطانيا مساهمتها في دعاية الحلفاء الموجهة للعرب والمسلمين من إذاعة لندن. كما أن طائراتها كانت تلقي من حين لآخر بمناشير فوق المدن والقرى المغربية، مؤكدة في إحدى الأوراق الموزعة بهذه الكيفية : «إن المذهب البريطاني يحارب فكرة إحلال القوة الغاشمة محل القانون الذي هو أساس التحكيم بين الدول»[20].

ونظرا لتخوف الحلفاء من ردود فعل المغاربة تجاه إنجلترا بسبب هجومها على العراق وانحيازها السافر للصهاينة في فلسطين، قرروا إقصاء الوحدات البريطانية من صفوف القوات التي تمَّ إنزالها، في سواحل المغرب في فجر 8 نونبر 1942[21].

ويمكن إدراج موقف الوزير الأول البريطاني، ونسطون تشرشل، أثناء انعقاد مؤتمر أنفا حتى بداية 1943، ضمن تصوره العام للسياسة اللازم اتباعها تجاه شعوب المستعمرات بصفة عامة والأقطار العربية بصفة خاصة ؛ ذلك بأنه حاول إشعار الرئيس روزفلت بضرورة تفادي اتخاذ أي التزام تجاه السلطان سيدي محمد بن يوسف والاكتفاء بعبارات المجاملة[22].

(19) و.و.خ.ف، ف.م.

(20) المرجع نفسه.

(21) G.F. Howe, **United States Army in World War II. The Mediterranean Theater of Operations. Northwest Africa : Seizing the Initiative in the West**, Washington D.C., 1957, pp. 89-181.

(22) «The President began the serious conversations by expressing sympathy with colonial aspirations for independence, and soon he was proposing to the Sultan cooperation. Noguès, who had devoted his career to fortifying the French position in Morocco could not conceal his outraged feelings ... From the point of view of any imperialist- including De Gaulle and Churchill- the President's conversation with the Sultan could seem subversive» (R. Murphy, **Diplomat Among Warriors**, New York, 1964, p. 173).

وقد سبق لنوغيس أن حذّر الأمريكيين، قبل ثامن نونبر 1942، من مغبة إقدامهم على أي تدخل عسكري في المغرب. وبعد قيامهم بذلك، أمر القوات الفرنسية فعلا بصد ما أسماه «العدوان الأنجلو ـ سكسوني». إلا أنه سرعان ما غير أساليبه نحوهم، وتكيف مع الوضع الجديد، فعمل على قطع الطريق أمام الوطنيين والحيلولة دون ربط اتصالات بينهم وبين الأمريكيين. ولذلك قام بمساعٍ لدى الجنرال باتون بصفته قائد «قوات التدخل الغربيَّة»، وحاول إقناعه وإقناع غيره من الضباط السامين بضرورة تفادي كل ما من شأنه المس بالوضع القائم في المغرب[23].

ولحثهم على تزكية الوجود الفرنسي ودعم نظام الحماية، لم يتردد نوغيس في تضخيم تأثير الألمان على المغاربة واستجابتهم للدعاية النازية، ملحّاً على وجود أعوان لقوى المحور بين «الأهالي» وقيامهم بتخطيطات لإنجاز أعمال تخريبية بهدف شل خطوط الحلفاء اللوجستيكية في المغرب وعرقلة تقدم قواتهم نحو تونس وليبيا، والاستعداد للهجوم على أحياء اليهود في المدن الكبرى[24].

وقد اقتنع الجنرال دوايت أيزنهور فعلا بهذه الادعاءات، واعتبر أن اندلاع اضطراباتٍ وزعزعةَ السلطة الفرنسية في المغرب سيستوجب مرابطة ما لا يقل عن 60.000 جندي أمريكي في المنطقة الممتدة بين الدار البيضاء ووجدة على الخصوص، وذلك تأميناً للمواصلات[25].

وبذلك انحازت القيادة العليا الأمريكية للطرف الفرنسي وتجاهلت معاناة المغاربة من النير الاستعماري ومن النقص الفادح في التموين، بل وتعرضهم للمجاعة والأوبئة الفتاكة. وقد عبر الجنرال باتون عن قابلية الوضع للانفجار بقوله «إن دولارا واحدا يكفي لإيقاد نار ثورة هنا» ؛ كما أنه لم يخف استهزاءه بترددات نوغيس No-Yes [نو ـ ياس، لا ـ نعم] على حد تعبير بعض الضباط الأمريكيين ـ ونعته بـ«المحتال» و«الخَدَّاع» نظراً لاشتباهه في أنه يحافظ على اتصالات سرية بالألمان ؛ غير أن

---

(23) **المرجع نفسه**، ص. 112، مقابلة بين المقيم العام وروبرت مورفي ممثل روزفلت الخاص.

(24) «Without a strong French Government, we would be forced to undertake military occupation. The cost in time and ressources would be tremendous. In Morocco alone General Patton believes that it would require 60.000 troops to keep the tribes pacified» (D.D. Eisenhower, **Crusade in Europe**, New York, 1948, p. 110).

(25) **المرجع نفسه**.

الأولويات الإستراتيجية أقنعت باتون بضرورة اجتناب توريط بلاده «في المطبخ العربي ـ الفرنسي» (على حد تعبيره)[26].

وقد استطاعت الولايات المتحدة، انطلاقاً من موقفها هذا، أن تحقق مكتسبات إضافية هي : إرغام الإقامة العامة على فسح المجال للشركات الأمريكية حتى تقوّي مكانتها في السوق المغربية وترفع مستوى استثماراتها، لا سيما وأن مبدأي المساواة الإقتصادية و«الباب المفتوح» المنصوص عليهما في اتفاقية الجزيرة الخضراء (1906) كانا لا يزالان ساريي المفعول من الناحية القانونية النظرية ـ وذلك بالرغم ممّا اتخذته الإقامة العامة من إجراءات «تقنية» وتحايلها بهدف تحويل المغرب إلى سوق فرنسية صرفة والإنفراد باستغلال موارد البلاد الطبيعية (إحداث المكتب الشريف للفوسفاط مثلا)[27].

وقد إنكب اهتمام الأمريكيين بالدرجة الأولى على قطاع المناجم المغربية وفي مقدمتها المعادن، وبصفة خاصة المعادن التي لها ارتباط بالصناعة الحربية، كآلمولبدان الذي هو مهمّ لمكونات محركات الطائرات. وكان المغرب آنذاك يحتل الدرجة الثالثة في العالم في إنتاج هذه المادة مباشرة بعد الولايات المتحدة والنرويج. لذلك سبق لقوى أخرى أن آهتمت بإمكانات المغرب في هذا الباب. ففي سنة 1941 مثلا قام اليابان بمحاولات مكثفة للحصول على الكوبلت المغربي مقابل الشاي والقطن[28].

وبالرغم من مهارة نوغيس ونجاحه في خطته الرامية إلى إقناع الأمريكيين بعدم التدخل في «شؤون الحماية الداخلية»، فقد اضطر إلى التخلي عن مهامه خلال الأشهر الأولى من سنة 1943 واللجوء إلى البرتغال. ذلك بأن دغول لم يغفر له تشبثه بالولاء للمرشال بيتان وتزكيته لسياسة التعامل مع ألمانيا. إلا أن خلفه في الرباط، جبريال بيبو (Gabriel Puaux)، لم يدخل أي تغيير على السياسة المتبعة تجاه «الأهالي»، بل عمل كل ما في وسعه لإفشال المجهودات التي استمر الوطنيون في

(26) M. Blumenson, **The Patton Papers**, 1940-1945, 1974, pp. 117-123.

(27) كان الهدف الأساسي من إحداث هذا المكتب، هو إيجاد إطار قانوني لتفادي «عرض دولي» وما كان في الإمكان أن ينجم عنه في حالة «تباري» شركات أمريكية.

(28) و.و.خ.ف، ف.م، تقرير للإقامة العامة حول وصول قنصل عام ياباني جديد إلى الدار البيضاء وتعيين سلفه في أحد أقطار الهند ـ الصينية.

بذلها للتقرب من الأمريكيين وإقناعهم بضرورة إعطاء مدلول حقيقي لشعارات الحلفاء حول الحرية وتقرير المصير[29].

وكان المقيم العام الجديد يحقق، بسلوكه هذا، خطة اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني (الجزائر) وتعليمات الجنرال دغول. ذلك بأن «رجل 18 يونيو» كان لا يُظهر أي استعداد للإستجابة، ولو جزئيا، لتطلعات شعوب المستعمرات ويعتبر «الإمبراطورية» خزاناً هائلًا للموارد الطبيعية والطاقات البشرية لا ينبغي التفريط ولو في شبر واحد منه لتمكين فرنسا، بعد تحريرها، من إعادة بناء اقتصادها وقوتها العسكرية، وبالتالي تسهيل استرجاعها لسمعتها ومكانتها بين الدول العظمى. وهذا ما أكده بالذات في مؤتمر برازفيل حيث قال : «إذا كان لزاما علينا الإعتراف باستقلال ذاتي (لفائدة مستعمراتنا)، فلن يتحقق ذلك إلا بعد تطور طويل وتحت رقابة شديدة... والواقع أننا، في الظروف الراهنة، ما زلنا لم نشرف حتى على بداية مثل هذا التطور»[30].

وقد اكتفى الجنرال دغول، انطلاقا من هذه الإعتبارات ومن منظوره للدولة واستمراريتها، بتعويض نوغيس ببيبو – وهو من كبار الموظفين المحافظين إلى أقصى درجة – وبـ«تطهير» محدود في مصالح الإقامة العامة المركزية وعلى المستوى الجهوي. وكان الإكتفاء بـ«تنقية» رمزية يعني بقاء عدد كبير من الموظفين الفرنسيين الموالين للمرشال بيتان والمقتنعين بجدوى سياسة التعامل مع ألمانيا في مناصبهم ؛ ولا شك في أنهم كانوا على علم بمدى «استغراب» المغاربة لموقفهم من ألمانيا – على حد تعبير تقرير رسمي فرنسي –، وربما كانوا يدركون أيضا احتقار «الأهالي» للعناصر الفرنسية، من مراقبين مدنيين وضباط للشؤون الأهلية ومعمرين، تلك العناصر التي كانت تبالغ في إظهار تعاطفها مع النظام النازي و«تتجاهل» احتلال التراب الفرنسي وممارسات الشرطة السياسية السرية الألمانية تجاه المقاومين الفرنسيين، بل والمواطنين العاديين[31].

(29) «Gabriel Puaux, le haut fonctionnaire le plus sereinement conservateur, le plus assuré de sa propre omniscience et de la supériorité essentielle et immuable de son pays», J. Lacouture, **Cinq hommes et la France**, Paris, 1961, p. 194.

(30) M. Kenbib, «Le Général de Gaulle et les nationalistes marocains, 1940-1946», in **Espoir**, 80, mars 1992, pp. 84-92.

(31) 1 مارس 1941.

- وكان من «الطبيعي» أن يبدي أنصار ڤيشي السابقين استعدادهم للمشاركة في تشديد القبضة الحديدية الفرنسية على المغرب، وأن يبالغوا في تطبيق الخطط المرسومة لإنجاحها. إلا أن تطرفهم هذا لم يمنع المغاربة من التحرك للدفع بقضيتهم، مستغلين في ذلك ما أحدثته الحرب العالمية من تغييرات على الساحة الدولية ومساهمة قوات مغربية بجانب الحلفاء وما حققته في معارك كبرى سواء في تونس أم في إيطاليا – إذ ساهم الجنود المغاربة في اختراق «خط جوسطاڤ» وفتح الطريق نحو روما. وقد أعطت كل هذه العوامل دفعة قوية للمطالب الوطنية بلورتها عريضة الاستقلال في 11 يناير 1944، وهي عريضة ردت عليها اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني بالعنف وباستعمال الدبابات لقمع المتظاهرين[32].

وقد جاء في تقرير جاك جنتي قنصل ڤيشي العام بطنجة، الذي قام بجولة سياحية – استطلاعية لبعض المدن المغربية تحت آسم مستعار : «إن المغرب يعاني من البؤس.ومصادرة منتوجاته الزراعية والكساد التام الذي أصاب الحرف»، مضيفاً أن «الزعماء الوطنيين يستغلون السخط العام وتجاهل الجهاز الدغولي لخصوصيات المغرب وعقلية أهاليه حيث ينهج دغول هنا أساليب مماثلة للأساليب المتبعة في الجزائر... حقا، لقد انهارت سمعة فرنسا هنا... وإنه لمن الصعوبة بمكان أن تحتفظ فرنسا بنظام الحماية بعد الحرب، وذلك أيّا كان المنتصر»[33].

وقال جنتي عن هذه الأساليب بالذات إن الإجراءات القمعية التي أملتها اللجنة الفرنسية (الجزائر) كانت «عنيفة إلى أقصى درجة، وتسببت في تعميق كراهية الأهالي المغاربة لفرنسا واستنكارهم للإعدامات وقتل عدد كبير من النساء والأطفال على أثر تدخل القوات المدرَّعة (لوكليرك)». كما أشار قنصل ڤيشي إلى توتُّر العلاقات بين الإقامة العامة والقصر الملكي مؤكدا أن «السلطان عبَّر لبييو عن رفض المغرب لنظام الحماية، مما دفع بالمقيم العام إلى إشعار دغول فوراً»[34].

---

(32) كان الوطنيون يلحون على بسالة الجيوش المغربية وتضحياتهم من أجل الدفاع عن «الحرية» و«تحرير التراب الفرنسي». وقد اعترف الجنرال ألفونس جوان، قائد هذه القوات، غداة اجتياز «خط كَوسطاف»، بجسامة تضحيات المقاتلين المغاربة وأعرب عن «اعترافه بالجميل لهم» مؤكدا أنه «سوف لن (ينسى) ما قدموه من تضحيات من أجل فرنسا». قارن هذه التصريحات بالسياسة التي نهجها جوان بعد تعيينه على رأس الإقامة العامة بالرباط (1947) وبعد تعيين خلفه الجنرال كَيوم.

(33) و.و.خ.ف.، ف.م.، طنجة، 31 مارس 1944.

(34) المرجع نفسه.

ولتقويم حقيقة الأوضاع المترتبة عن تقديم عريضة الإستقلال والقمع المنهجي للمظاهرات واعتقال الوطنيين، قرر دغول إرسال مبعوث خاص إلى المغرب، هو روني مسيغلي (René Massigli)، بصفته المكلف بمفوضية الشؤون الخارجية. وحسب جنتي، فإن مسيغلي قام بتحريات معمقة ؛ إلا أنه أخفى بعض استنتاجاته و«لم يتجرأ على الإشارة إلى دور الأمريكيين واتصالاتهم ببلافريج وحثهم المغاربة على المطالبة بالإستقلال، بل اكتفى باتهام ألمانيا وڤيشي وحمّلهما مسؤولية الإضطرابات»[35].

وعندما تناولت الصحافة الألمانية أحداث يناير – فبراير 1944 في المغرب، أشارت هي أيضاً إلى دور الأمريكيين، فكتبت جريدة «**الرايخ**» (**Das Reich**)، مثلا، في عددها ليوم 5 ماي 1944 أن «الأمريكيين هم الذين حرضوا المشاغب الوطني بلافريج على العودة إلى المغرب... فعاد فعلاً ونظم مهرجانات في الرباط أكد خلالها أنه بإمكان المغاربة مقاومة فرنسا بمساعدة الأمريكيين واعتمادا على الميثاق الأطلسي». غير أنها أوضحت «أن المغاربة يدركون أنه ليس لأمريكا في الواقع أي اهتمام بتطلعاتهم (وأنها) لا تجري سوى وراء مصالحها الخاصة»[36].

ولكي تبرر السلطات الفرنسية موجة العنف التي واجهت بها مطالب المغاربة، حاولت التشكيك في مشروعية طموحاتهم ومشروعية مبادرتهم بتقديم عريضة الإستقلال، وذلك بتوجيه تهمة «التواطؤ مع العدو» [الألماني] لأحمد بلافريج ورفاقه وترويج إشاعات مفادها أن ألمانيا هي التي «حركتهم» وأملت عليهم العريضة بهدف إثارة القلاقل وعرقلة مجهود الحلفاء الحربي. وقد عملت الصحافة الفرنسية على نشر هذه الإتهامات وتضخيمها ؛ وشاركت الأوساط الإشتراكية والشيوعية في الدعاية لها بعد إعادة صياغتها وإدماجها ضمن قوالبها «الخطابية» المعتادة، معبرة بذلك عن تشبثها بنوع من الإستمرارية في مواقفها من مطالب المغاربة الوطنية، وهي مطالب اعتبرها الإشتراكيون والشيوعيون سنة 1937 (عقب أحداث مكناس) مجرد وسيلة بادرت إليها فئة محدودة من الأثرياء لـ«استبدال الإستغلال الإستعماري باستغلال تستغله البرجوازية المحلية»[37].

(35) و.و.خ.ف، ف.م.، طنجة 31 مارس 1944.

(36) و.و.خ.ف.، سلسلة «الحرب العالمية الثانية – الجزائر – اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية»، تحليل الصحافة الأجنبية، تقرير مراسل جريدة «**الرايخ**» (**Das Reich**) بطنجة.

(37) **«A Alger, l'un des principaux dirigeants du PCF, François Billoux, Commissaire d'Etat**

وغداة أحداث يناير 1944، تجاهلت الأوساط «التقدمية» مرة أخرى مساهمة «الطبقات الكادحة» في المظاهرات وما لحقها من تنكيل بسبب ذلك، وأصدرت مناشير ومقالات للدفاع عن الوضع القائم والتأكيد على «متانة» العلاقات القائمة «بين أهالي المغرب وشعب فرنسا الجديدة» وإبراز «عدم قابليتها للتفكيك»[38].

لقد عبرت السلطات الفرنسية، بإجراءاتها القمعية وتصريحاتها، عن مدى صرامتها وعزمها على ردع كل محاولة تستهدف «المس بالأمن العام» أو «تغيير الوضع القائم» في المغرب، وقامت بتحركات لضمان التنسيق والإنسجام بين «الرباط» و«الجزائر» (مقر **اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني**). إلا أن الوثائق والبرقيات المتبادلة بين الجنرال دغول والمقيم بييو تعكس وضعا مغايراً يتميز بنوع من الإرتباك والتناقض بل وآستنكار بعض المسؤولين الفرنسيين السامين في كلا العاصمتين لأساليب القمع الوحشية المستعملة ضد المتظاهرين والمعتقلين[39].

فقد عبر الجنرال كاترو مثلا، بصفته مفوض الحكومة (الفرنسية) المؤقتة في الشؤون الإسلامية، عن استنكاره لما جرى في الرباط وغيرها من المدن، وقال في رسالة موجهة للجنرال دغول بواسطة روني مَسِّيغْلِي :

> إن تصرفات أعوان الأمن العسكري تجاه المغاربة المشتبه في أنهم تواطأوا مع العدو، لا يمكن أن يتولد عنها سوى الشعور بالكراهية وصرف أنظار الرأي العام

= dans le Gouvernement Provisoire de la République Française, écrit à Massigli six mois après les événements de Rabat : «c'est sur l'instigation des agents de l'Allemagne, de l'Espagne et de Vichy que le parti de l'Indépendance aurait lancé ce mouvement. Il n'est pas exclu que des cercles américains aient intrigué et qu'ils se soient rapidement retirés lorsqu'ils ont reconnu que le mouvement était un insuccès. Balafrej, l'un des leaders nationalistes, expulsé du Maroc français parce qu'hitlérien notoire, a pu rentrer librement, grâce à l'appui de Wall Street» (G. Oved, **La gauche française et le nationalisme marocain**, 1905-1955, Paris, 1984, II, p. 217 et 228).

(38) «Face à l'agitation nationaliste, il nous est apparu que les communistes se présentaient en défenseurs de l'ordre. A la revendication de l'indépendance, ils opposent le maintien de la tutelle française, condition, selon eux, de l'émancipation du Maroc» (G. Oved, p. 217 et 228).

(39) انظر فيما بعد، مثلًا، الرسالة التي وجهها بييو إلى مدير المصالح الخاصة وإلحاحه فيها على مميزات نظام الحماية وصلاحيات المقيم العام.

المغربي عن فرنسا في وقت (حرج) يفترض أن نقربهم منا ... يجب على فرنسا أن تبقى وفية لنفسها وتحترم، كيفما كانت الظروف، كرامة الإنسان لأن (هذه الكرامة) تشكل إحدى مثلها العليا ... عليها فعلا أن تزجر أعداءها في الداخل، لكن لا يمكنها القيام بذلك إلا طبقا للقانون وفي حدوده ... إذا التزمت بذلك فسوف لن يتجرأ أحد على آنتقادها، وإذا ما تجاهلت (القانون)، فعليها أن تتحمل العواقب السياسية (المترتبة عن مثل هذه التصرفات)[40].

كما أن المقيم العام بييو، حاول هو نفسه التبرؤ، في نهاية المطاف، من تصرفات الأمن العسكري، ومن الاِتهامات الموجهة لأحمد بلافريج، ومن تعذيب المعتقلين خلال الاِستنطاق ومن خروق أخرى، وذلك في رسالة بعث بها الجنرال دغول بواسطة المفوض في الشؤون الخارجية، وضمَّنها تصريحات أدلى بها للشرطة مواطنون فرنسيون كانوا يسكنون بجوار فيلات استعملت لتعذيب متظاهرين ألقي القبض عليهم خلال المظاهرات التي اندلعت في الرباط[41].

أما الجنرال دسري، فقد أشار، بصفته القائد الأعلى للجيوش الفرنسية المرابطة في المغرب، إلى استحالة قيام مصالحه بتحريات حول هذه «الخروق الخطيرة»، لأن ضباط الأمن العسكري رفضوا التعامل مع رجال الدرك رفضاً باتاً بدعوى أنهم لا يخضعون إلا للأوامر الصادرة مباشرة من «المديرية العامة للمصالح الخاصة» في الجزائر ورئيسها جاك سوستيل (Jacques Soustelle)[42].

وذلك ما جعل بييو يتصل مباشرة بسوستيل لتذكيره بنوعية النظام القائم في المغرب وبمقتضيات معاهدة الحماية وصلاحيات المقيم العام، ومن ثم بـ«ضرورة امتثال ضباط الأمن العسكري (لسلطته) وإشعاره فورا بكل ما توافر لديهم من معلومات لها صلة، من قريب أو بعيد، بالحركة الوطنية المغربية»[43].

---

(40) و.و.خ.ف.، ح.ع.ث.، ا.ف.ت.و.، الجزائر 16 ماي 1944، رقم 972، الجنرال كاترو إلى مفوض في الشؤون الخارجية.

(41) **المرجع نفسه**، الرباط، 29 يونيو 1944، رقم 1641، سرّي جدا : «يلزَمُ أكثر من أي وقت مضى أن تُشْعِرَ الإقامة العامة بأدنى جزئيات أي نشاط (يقوم به) العدو أو (قوة) محايدة ومن شأنه (تسهيل) الحركة الوطنية المغربية».

(42) **المرجع نفسه**، الرباط 22 أبريل 1944، رقم 99 س. ح/ج. س.، سرّي : «تحريات حول التعسف على بعض المعتقلين»، من مباحث كلف بها قائد لفيف الدرك بالمغرب.

Cf. J. Soustelle, Envers et contre tout. D'Alger à Paris. Souvenirs et documents sur la France Libre, 1942-1944, Paris, MCML, t. I.

(43) **المرجع نفسه**، الرباط 29 يونيو 1944، سرّي جدا.

وكيفما كانت نوعية مثل هذه التناقضات وحدَّتُها، فإنها على العموم لم تؤثر في جوهر السياسة الفرنسية تجاه الحركة الوطنية المغربية ولم يترتب عنها أي تغيير يذكر في أساليب الرد على مطالب المغاربة. فقد طغى عليها طابع الإستمرارية، كما يدل على ذلك تشابه كيفية مواجهة المظاهرات في خريف 1937 وبداية 1944. وكما يدل على ذلك أيضا التمسك بفكرة «عدم قابلية معاهدة فاس للنقاش» وترويج شعار «اليد الأجنبية» المحركة للوطنيين ـ وهو شعار سبق ترديده خلال فترة المقاومة المسلحة وأثناء حرب الريف وإبان تأسيس كتلة العمل الوطني[44].

وتركيز الدعاية الفرنسية على «تعامل» الوطنيين مع الأمريكيين فيما بين 1940 و1942، ثم مع الألمان فيما بين 1942 و1944، يعني بعبارة أخرى أن الزعماء المغاربة فضلوا الإنحياز للحلفاء في مرحلة بلغت فيها انتصارات ألمانيا أوجها على كل الجبهات، وفجأة تراجعوا وتجاهلوا وجود الجيوش الأمريكية فوق أراضيهم ولمسهم المباشر لقوة الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية والإقتصادية، واختاروا المراهنة على قوى المحور والتواطؤ مع ألمانيا، متجاهلين انكسارها في ستالنغراد وغيرها من الجبهات[45] !

إن اعتماد الدعاية الرسمية على معادلة هشة مثل هذه لدليل في حد ذاته على تقادم أساليبها وتشبث محركيها بالوضع القائم، وهو وضع كان يستحيل صموده أمام ما حملته الحرب العالمية من تحولات جوهرية على الساحة الدولية وأمام القفزة النوعية التي حققتها الحركة الوطنية المغربية بفضل المستجدات المترتبة عن الحرب وتراكمات نضال الثلاثينيات.

(44) تم ترديد «عدم قابلية معاهدة فاس للمراجعة» أيضا طيلة الفترة الممتدة من 1945 إلى 1954-1955.

(45) M. Kenbib, «The American Impact on Moroccan Nationalism, 1930-1947», in **The Atlantic connection, 200 Years of Moroccan-American Relations 1786-1986**, Rabat, 1990, pp. 169-182.

بُحُوثٌ مُتَرْجَمَةٌ

البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء برجوازية حضرية في المغرب قبل الإستعمار*

نورمان سيگار
ترجمة : محمد نجمي الروداني
مراجعة : محمد معتصم

I ـ المدخل

أصبح التاريخ الإقتصادي للشرق الأوسط موضع اهتمام متزايد في الآونة الأخيرة، وكُرِّس كثير من هذا الإهتمام لقضايا تتصل بالنخب الإقتصادية والرأسمال ولعلاقة هذه القضايا بالسلطة في المجتمع، وبقضية التنمية عموما. وانصب معظم المناقشة الخاصة بهذه الأخيرة على آختلاف نموذج التنمية في الشرق الأوسط عن مثيله في الغرب واليابان، وخصوصا على أسباب غياب برجوازية محلية في الشرق الأوسط، أو على خلقها ووجودها المصطنعين بصفتها تابعاً للرأسمالية الخارجية التي لولا دعمها لما استطاعت أن تستمر في الوجود. وكان المغرب العربي يعتبر ناقصا من هذه الناحية خصوصا، إذ كان عليه أن ينتظر الإستعمار الأوربي لكي ينقل إليه رأسمالية وبرجوازية من الخارج[1]، ولكن لا ينبغي للمرء أن يتسرع في التعميم حول مثل هذه السيرورة المعقدة، كما يؤمل أن تقترحه هذه الدراسة. وسنركز اهتمامنا هنا على برجوازية مغاربية

(*) نشرنا هذه الترجمة بناء على ترخيص من مدير مجلة **Magreb Review**، الأستاذ محمد بلمدني. وقد نشر أصلاً بعنوان : Norman Cigar, «Socio-economic Structures and the Development of an Urban Bourgeoisie in Pre-colonial Morocco», in **Magreb Review**, N° , 19 , pp. 55-75.

(1) عبد الله العروي، مثلًا : «لم يُنتج المغرب رأسمالية حديثة ولا طبقة برجوازية. وقد أعارته أوربا الإستعمارية هذه الطبقة، ولكن بشروط». (**L'Histoire du Magreb** (Paris, 1970), Vol. II, p. 116).

محلية، هي برجوازية مدينة فاس، التي نشأت قبل أن يضطر المغرب إلى الخضوع للحماية الفرنسية ـ الإسبانية عام 1912، أو حتى قبل أن ينفتح على التأثير الأوربي الكبير. وبالرغم من أن البرجوازيات قد نمت أيضاً في مناطق أخرى من المغرب، فإن البرجوازية الفاسية كانت تفوقها عدداً وقوة اقتصادية. ففي الفترة التي تولى فيها العلويون الحكم (1076هـ/ 1666م)، كانت فاس هي المركز الِاقتصادي والفكري للبلاد، وظلت كذلك إلى حين فرض الحماية، ولو أنها لم تُتَّخَذْ عاصمةً للبلاد في فترة ما قبل الِاستعمار إلّا على مراحل متقطِّعة. وكانت فاس تختلف حجما عن المدن المغربية الأخرى وكانت من أكبر حواضر المغرب العربي حتى القرن العشرين[2]. وبينما قلت أهميتها النسبية فيما بعد، بتحول معظم شؤون البلد الِاقتصادية والحكومية إلى مراكز أكثر حداثة كالدار البيضاء والرباط، تزايد تأثير سكانها، ولا سيما «برجوازيـ»ـها، خلال هذه المرحلة نفسها. وتتعدى القضايا المطروحة حول هذه الجماعة حدود هذه الحاضرة وحدها ولها أكثر من أهمية تاريخية بالضبط، وذلك لأن الفاسيين كان عليهم أن يؤدوا في القرن العشرين دورا مهما في الحركة الوطنية المغربية، بينما احتلوا بعد الِاستقلال عام 1956 ـ حسب التصور الشائع ـ موقعا مهمّاً في اقتصاد البلد وإدارته الحكومية، وهو وضع آستمر حتى الوقت الحاضر.

وبالرغم من أن الأرقام المضبوطة الخاصة بالإدارة ليست سهلة المنال، فإن هناك إشارات كثيرة تؤكد صحة ما ذكرناه. فمن بين 18 مديراً للمصادر المالية العمومية وشبه العمومية في منتصف ستينيّات القرن العشرين مثلا كان أربعة عشر

---

(2) غالباً ما يقوم إحصاء السكان في مغرب ما قبل الِاستعمار على التخمين، ويزداد ذلك خصوصاً كلما رجعنا إلى الوراء. فتقديرات الأوربيين لعدد سكان فاس في القرن السابع عشر تتباين كثيراً ؛ ويقدِّر مصدر مغربي (كانت المصلحة فيه تقتضي تقليص العدد الإجمالي) عددهم بستين ألفاً (60,000) في ستينيات القرن السابع عشر؛ وبحلول القرن التاسع عشر حتى العشرين وتكاثر الزائرين، تميل التقديرات إلى مزيد من التجانس، وفي حدود تتراوح ما بين 80,000 و100,000 (**Fès, 153-159**)، ولو أن المجموع قد يكون تقلّب كثيراً بسبب المجاعات والأوبئة، إلخ. وهذا الرقم يخص فاس «البالي» وحدها، وهي مدينة متميزة ـ بوظيفتها وتاريخها وسكانها وموقعها ـ عن المدينة الإدارية التي هي فاس «الجديد» (حيث كان الموظفون المخزنيون واليهود وقبائل الجيش يشكلون ما بين 20,000 و30,000 شخص إضافي). ولم تنضم فاس «الجديد» إلى فاس «البالي» داخل سور مشترك إلّا مع مجيء مولاي الحسن (**Fès, 89-90**). وعلى سبيل المقارنة، فقد كان في المدن الساحلية التسع من السكان ما مجموعه 189,000 نسمة عام 1909 (**MCTR, n° 350, Nov. 1909, 43**). ونقصد بـ«ـفاس» في هذا المقال فاس «البالي» وحدها.

منهم فاسيين[3]. وفي السلك الدبلوماسي، نجد أن قرابة نصف سفراء المغرب في سنة 1979 (19 من أصل 39 على الأقل) كانوا فاسيين. وهذه الهيمنة نجدها واضحة أيضا في الحقل التكنولوجي كالطب، على سبيل المثال : ففي الفترة ما بين 1969 و1971، كان 35 فاسيا على الأقل من أصل 108 من الطلبة المغاربة يحضرون أطروحاتهم في هذا المجال[4].

وسيكون من الصعب تقويم حداثة تاريخ المغرب وسياسته دون فهم أصول هذه الجماعة ذات التأثير النافذ وفهم نشأتها. وأكثر من هذا، يمكن دراسةَ هذه البرجوازية أن تلقي الضوء على حالات أخرى في أجزاء أخرى من المنطقة، وذلك بالتحقّق من العناصر التي تنفرد بها الوضعية الفاسية والعناصر التي تشترك فيها مع بقية بلدان الشرق الأوسط. وستتم دراسة أربع قضايا رئيسة على الخصوص : البنية الداخلية ونشأة البرجوازية نفسها، ودور رأس المال في الاِقتصاد، وتأثير أوربا، وعلاقة البرجوازية بالدولة والمجتمع. وهذه طبعا عناصر متلازمة ولا يمكن فصل بعضها عن بعض، ومن الصعب أحيانا ملاحظتها كل على حدة.

II ـ البنى الاِقتصادية والتنظيم

كان الرأسمال الفاسي، كما سنرى فيما بعد، ذا طبيعة تجارية على العموم. وهذا المجال هو الذي يجب البحث فيه عن أصول البرجوازية الفاسية الراهنة التي أصبحت أكثر تنوعاً من ذي قبل. ويمكن وصف النخبة التجارية الفاسية بأنها جماعة واعية بذاتها ومتماسكة ولها مصالح مشتركة وعمل مشترك في الحلبة السياسية، منذ أوائل

(3) توجد هذه القائمة ضمن : John Waterbury, **The Commander of The Faithful** (London, 1970), p. 107. وكان سبعة عشر، من أصل ثلاثة وعشرين عضواً يشكلون مجلس إدارة بنك المغرب في الفترة ما بين 1970 و1978، فاسيين أيضاً. والمقصود بـ«الفاسيين» هنا أولئك الذين نشأت عائلاتهم في فاس ويعتبرون أنفسهم، كما يعتبرهم المغاربة الآخرون، فاسيين؛ ومن ضمنهم أولئك الأفراد والعائلات الذين لم يعودوا يقيمون في فاس، ولكنهم احتفظوا بتلاحمهم وهويتهم الأصليَّين. وكما هو الشأن في جميع الجداول المدروسة في هذا المقال، لم أطلق نعت «الفاسيين» إلّا على الأسماء التي تأكدت من فاسيتها تمام التأكد ؛ ولعل الأعداد الإجمالية أعلى من ذلك في غالب الأحوال، ما دمت لم أستطع التأكد من جميع العائلات تمام التأكد. وحتى لو تساهلنا في تخمين عدد الفاسيين في مغرب اليوم، بمن فيهم أولئك الذين يقطنون الآن خارج فاس منذ جيل أو أكثر، فلن يتعدّى هذا العدد نصف مليون، بل ربما ربع مليون نسمة.

(4) **البحث العلمي**، العدد 28، 1978، ص. 420 وما بعدها.

القرن التاسع عشر على الأقل. وليس معنى هذا، بالطبع، أن الأغنياء، .وخاصة التجار، لم يكونوا موجودين قبل ذلك بفاس. كلا ! ففاس تقع في ملتقى المحورين التجاريين التقليديين لشمال غرب إفريقيا اللذين يربطان الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتجارة عبر تاريخها الطويل، وذلك طبعا قبل قرون من قيام الدولة العلوية في القرن السابع عشر. بل يمكن الذهاب إلى حد القول إن أسس رأس المال التجاري (المركانتي) الضخم للقرن العشرين كانت قد وضعت في الأيام الأولى من عمر الدولة الجديدة، بالمفهوم البشري على الأقل، عندما استقر عدد لا بأس به من عائلات التجار المهمة في السوق المركزي للمدينة والمعروف بالقيسارية[5]، وذلك في أوائل القرن العشرين (والوقت الراهن). وقد يبدو، إلى حد بعيد، أن هذه البدايات أو هذه النهضة قد مهدت لها الدولة الجديدة فعلا، عندما قدم مولاي رشيد قرضاً مقداره 52.000 مثقال إلى التجار الفاسيين الذين كانوا في حاجة ماسة إلى ذلك سنة 1669/1079[6]، وسمح للتجار البلديين (أي المسلمين ذوي الأصل اليهودي) بالعودة إلى القيسارية (مجهول، **قصة المهاجرين بفاس**، ص. 482). وكان يجب استثمار ثروات الأفراد في التجارة، ولا سيما تجارة قوافل الحج إلى المشرق، التي كانت محملة بسلع أدرت أموالًا طائلة. وعلى سبيل المثال، ورد أنه في سنة 1144/1731–1732 استخلص السلطان مولاي عبد الله 10.000 مثقال نقداً من كل عائد من الحج، وذلك بإيعاز من أمه التي تملكتها الغيرة مما رأته من ثراء أثناء سفرها مع قافلة الحجاج[7]. وهناك تاجر فاسي آخر أجبر في سنة 1179/

---

(5) كان حوالي 80 في المئة من أصل 62 تاجراً فاسياً مقيماً في المدينة في بداية القرن العشرين ـ كانوا، حسب ما ذكر شارل رونيه لُكْليرك في تقرير له (Charles René-Leclerc, «Le commerce et l'industrie à Fes», **Renseignements coloniaux**, 249-250)، من العائلات المذكور أنها تملك محلات تجارية تابعة لأحباس القرويين عام 1115/1703–1704 (**حوالة حبسية**، رقم 158). ولعل هذه النسبة المئوية أعلى، ما دامت قائمة رونيه لكليرك لا تذكر حوانيت خاصة أو حوانيت محبَّسة على مؤسسات أخرى غير القرويين. ثم إن هذه القائمة ليست شاملة بأي حال من الأحوال، لأن التجار الفاسيين القاطنين في مدن مغربية أخرى، وأولئك الذين لا علاقة لهم بالتجارة مع أوربا غير مذكورين فيها.

(6) القادري، **نشر المثاني : الحوليات**، تحقيق نورمان سيكَّار، نشر الأكاديمية البريطانية (أكسفورد، 1981)، ص. 117. والإحالات على هذا العمل بالورقات تهم القسم السيري، الذي لا يزال غير منشور.

(7) القادري، **حوليات نشر المثاني**، تحقيق نورمان سيكَّار ونشر المركز الجامعي للبحث العلمي (الرباط، 1978). وللدلالة على أهمية تلك المبالغ في فاس المعاصرة، يمكن مقارنتها بمعدل الأجرة اليومية لمعلِّم «درَّاز» في أواخر القرن الثامن عشر، وهي 0,075 مثقالًا (انظر أحمد الطاهر (توفي 1192/1778)،

1766 على أداء 20.000 مثقال (**تقاييد ابن إبراهيم الدكالي**، ص. 199). ومع أن التجارة مع السودان قد تكون أقل شأناً، فإنها كانت ذات أهمية في بداية الفترة العلوية.

ثم إذا أخذنا بعين الاعتبار قرب المغرب من الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، لم نستغرب أن تكون له علاقات تجارية مع جيرانه الشماليين، على الأقل منذ القرن الثاني عشر. ومع أن هذه الروابط استمرت في عهد العلويين، فإن حجم التجارة ونوعية السلع وقيمة الواجبات الجمركية كانت تتوقف إلى حد كبير على رغبات كل سلطان على حدة، إذ كان بإمكانه إغلاق أبواب التجارة إغلاقاً يكاد يكون كلّيّاً، كما فعل مولاي سليمان في أوائل القرن التاسع عشر[8]. ولم ينفتح المغرب على التجارة والتأثير الأوربيين بشكل كبير إلّا في أواسط القرن التاسع عشر، كما سنرى. ومهما كانت الأسباب، فإنّ شبكة فاسية (أغلب عناصرها من التجار) كانت قد تأسست في القرنين السابع عشر والثامن عشر على آمتداد طريق الحج (تونس، مصر، الحجاز) وفي سوريا واليمن (القادري، **النشر الكبير**، الجزء 2، ورقة 143)[9] وفي السودان، بل وحتى في شبه جزيرة موريا باليونان، وكذلك عبر المغرب كله كمراكش (**المصدر نفسه**، الجزء 2، ورقة 86)، وتارودانت وتافيلالت (**تقاييد ابن ابراهيم**، ص. 176)، والعرائش (المهدي الوزاني، **النوازل الصغرى**، ج 2، ص. 8)، والصويرة فيما بعد (أكنسوس، ص. 224) وغيرها من المدن المغربية طبعاً. هكذا كان مدى أنشطتهم التجارية واسعا جدا حتى إنه بلغ الهند في

= **تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان**، المطبعة الحجرية، فاس، 1906/1324، ص. 240)؛ أو مقارنتها أيضاً بالأجر اليومي في سنة 1189/1775–1776 لعامل في حرفة البناء كان 0,10 مثقالاً (وثائق دمباي) و3,25 مثاقيل لمعلّم نجّار (**المصدر نفسه**) و0,60 مثقالاً لنجار عادي (**المصدر نفسه**)، هذا بينما بلغ معدل المهر في القرن الثامن عشر 40 مثقالاً (انظر علي بن عيسى العلمي، **النوازل**، نشر أحمد العراقي ومحمد بنّاني، المطبعة الحجرية، فاس، 1315/1897، ج 1، ص. 61).

(8) لا توجد حتى الآن دراسة للتاريخ التجاري لمغرب ما قبل القرن التاسع عشر، ولكن يمكن العثور على معلومات مفيدة ضمن الكتاب الجماعي : Jean Brignon et al., **Histoire du Maroc**, Casablanca, 1967، الذي هو أيضاً أفضل مُجْمَل في تاريخ المغرب.

(9) يذكر القادري في **حوليات نشر المثاني**، 52، أيضاً الفاسيين الذين ذهبوا إلى القصر وتطوان وطنجة وتلمسان والجزائر، وسجلماسة ومراكش وغيرها خلال مجاعة الثلاثينيات من القرن 17 في فاس، مشيراً إلى أن جاليات فاسية كانت هناك من قبل. وآنظر عن الجالية المغربية في مصر: André Raymond, **Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle**, Damas, 1974, Vol. II, pp. 471-474.

أواخر-القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر[10]. ثم إن الفاسيين كانوا يرحلون أيضا إلى الأسواق القروية في المناطق القريبة من مدينتهم لبيع سلعهم، كما تبين ذلك نازلة ترجع إلى تلك الفترة نفسها[11]؛ هذا، بالإضافة إلى انتظار وفادة القبائل المجاورة على فاس للمتاجرة، وهو ما كانوا يفعلونه لعدة قرون. والخلاصة أن شبكة واسعة للتجارة والتوزيع ـ كان معظمها في يد الفاسيين ـ، فضلًا عن مقدار لا يستهان به من الخبرة التجارية، كانا راسخي البنيان قبل الإنفتاح على أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر. وكان إقراض المال متداولًا في التجارة قبل الفترة الإستعمارية بكثير، وذلك مثلا على شكل قرض مباشر، بفائدة غير مباشرة يستخلصها المقرض إما على شكل بيع صوري للسلع بقيمة أعلى من قيمتها في السوق (المهدي الوزاني، **النوازل الكبرى**، الجزء 5، ص. 67 ؛ والجزء 4، ص. 15) وإما على أساس الأداء بعملة تختلف عن العملة التي تم بها القرض الأصلي[12]؛ بل إن بعضهم كان لا يتردد في فرض فوائد بنسبة مئة في المئة (**المصدر نفسه**، الجزء 8، ص. 3). وعلى الرغم من أن هذه المعاملات تبدو غير مشروعة، فإنْ ذلك لم يحل دون وجودها، وكان أحد الأشكال البديلة هو الإستثمار في مشروع معاملة، عادة ما تكون تجارية، يتولاها عميل أو تاجر آخر. وهذا يعني المخاطرة في الإستثمار[13]. ثم إن القرض تجاوز الحدود الضيقة للمدينة الواحدة، إذ نجد أن سلعاً أرسلت من تطوان إلى فاس قرضاً[14] بينما نجد تطوانيا قدم سلفا بفائدة لشريك له بمكناس[15]. ولاشك في أن الهدف من ذلك كان هو تسهيل التجارة في الأماكن البعيدة. بل حتى الحبوب كانت تشترى بالنَّسيئة في انتظار بيع المحصول، وكان هذا في القرنين السابع عشر والثامن عشر[16]، الأمر

(10) **فتوى** للعربي بردله (1042/1632–1133/1721)؛ الوزاني، **النوازل الكبرى**، VIII، 4.

(11) **المصدر نفسه**، VIII، 4.

(12) انظر **نازلة** لعبد القادر الفاسي (1007/1599–1091/1680) في **الأجوبة الكبرى**، المطبعة الحجرية، فاس، 1319/1903، ص. 119؛ وفي **أسئلة وأجوبة**، المطبعة الحجرية، فاس، 1301/1885 على حاشية **أسئلة وأجوبة** لمحمد التاودي بن سودة، ص ص. 385–390؛ **والنوازل الصغرى** للوزاني، ج 3، ص ص. 528–529.

(13) محمد بن عبد القادر الفاسي (القرن 18)، **النوازل الكبرى** للوزاني، ج 8، ص. 21 ؛ ومحمد التاودي بن سودة (توفي 1209/1795)، **أسئلة وأجوبة**، 128، إلخ.

(14) محمد بن أحمد المسناوي (القرن 17)، **النوازل الكبرى** للوزاني، ج 8، ص. 10.

(15) من ذلك مثلًا أن تطوانياً أقرض شخصاً آخر في مكناس؛ **فتوى** الرهوني (1159/1746– 1239/1815)، **النوازل الكبرى** للوزاني.

(16) الفاسي، **الأجوبة الكبرى**، 73.

الذي يتنافى تقنياً مع الشرع. حقا لم تكن هناك شركات ذات شخصية قانونية تستطيع البقاء بعد موت أي من الأعضاء الأصليين للشركة التجارية، وهذا قد يكون عائقا للتوسع التجاري. ولعل الأقرب لهذا في فاس ما قبل الإستعمار هو الوضع شبه التعاوني لفروع الشرفاء الفردية التي يمكنها أن تمتلك أرضا مشاعا (**الحوالات الحبسية**، رقم 114، 61، 62، 1257) أو تكتريها (158، 1115) كما يمكنها أن تمتلك «كَلسة» (حق الانتفاع أو «ثمن المفتاح») في دكان (**حوالة** رقم 162، ورقة 8) أو تستثمر بشراء جزء من مطحنة (حوالة رقم 1811/1226). ومع ذلك، فحتى الشركات الشخصية قد تتجاوز حدود المغرب كما حصل بين تاجر تطواني وآخر جزائري، وصل نشاطهما إلى شبه الجزيرة العربية (فتوى لبردلة في **المعيار الكبير** للوزّاني، ج 9، ص. 65).

وبالرغم من وجود عدة عناصر شجعت على ظهور البورجوازية، فإن التجار الفاسيين، وهم على ما كانوا عليه من رقي ونشاط قبل ظهور الدولة العلوية، لم يكونوا يشكلون جماعة متماسكة واعية بذاتها، فأحرى أن ينظموا أنفسهم سياسيا حتى يدافعوا عن مصالحهم في مواجهة الحكومة المركزية أو قطاعات المجتمع الأخرى. ولعل هذا لا يفاجئنا إذا أخذنا بعين الاعتبار المظهر المجتمعي ـ السياسي في فاس في أوائل العهد العلوي، وهو وضع كان وليد سيرورة تاريخية خاصة، نتاجاً لظهور أو وصول عدد من الجماعات العرقية (أو شبه العرقية) المتصارعة إلى المدينة، وكان المشكل الذي تطرحه مثل هذه الوضعية أبرز قضية فيما بين منتصف القرن السابع عشر ونهاية القرن الثامن عشر. وكانت الجماعات الرئيسية تتشكل من البلديِّين، وهم اليهود الذين أسلموا، وذرِّيتهم (بعضهم في القرن الرابع عشر، وجلهم في القرن الخامس عشر، وغيرهم بعد ذلك)، ومن الشرفاء الذين يربطون نسبهم بمحمد ﷺ (وقد تبلوروا كجماعة في فاس في منتصف القرن الخامس عشر)، والأندلسيين (الذين هاجروا بشكل جماعي من إسبانيا إلى فاس في القرنين السادس عشر والسابع عشر)، وأخيرا اللمطيِّين (وهم غالباً ما يمثلون السكان الأمازيغيين الأصليين). وكانت هذه الجماعات وجماعات أخرى أقل أهمية توفر أهم الفاعلين السياسيين في الصراعات الحضرية المستوطنة، بينما كان التعبير عن القضايا السياسية والمجتمعية الجوهرية والولاءات يتم في إطار هذه الجماعات المنظمة عموديا وليس في إطار المستويات المجتمعية

الاِقتصادية الأفقية[17]. وبالفعل، فإن كلّا من هذه الوحدات الدائمة، التي بعضها عرقي وبعضها الآخر ذو توجه مصلحي، والتي ينشطها الصراع، ضمت أفراداً ذوي مهن ومستويات مجتمعية اقتصادية شتى ـ من تجار وأرباب حوانيت وصناع تقليديين وعمال وعلماء ومعوزين ـ لم يكن ولاؤهم الرئيس لأعضاء «طبقة» مماثلة في جماعات أخرى، بل لإخوانهم الشرفاء أو للأندلسيين أو للزاوية، إلخ. إذ كان التجار (أو الصناع التقليديون فيما يخص ذلك) الذين ينتمون إلى جماعات مختلفة، ذوي مصالح اقتصادية (وسياسية) مختلفة. وهكذا لم يكن الشرفاء يخضعون للضرائب الحكومية، أما البلديون (التجار والصناع التقليديون)، فعوملوا أيضا معاملة مختلفة، إذ أخرجوا من أسواق المدينة بصفتهم طائفة وأعيدوا إليها، وظلوا يعانون من بعض القيود[18]، واتهموا بأنهم يفضلون التعاقد مع بني جلدتهم على التعاقد مع من سواهم (يرجع إلى **قصة المهاجرين بفاس**، 487)، هذا فضلا عن أنهم ظلوا يتصاهرون فيما بينهم فقط حتى منتصف القرن الثامن عشر على الأقل[19]. وبينما كان للتجار في فاس مصالح معينة طبعاً، فإن أهم هذه المصالح، كاختيار السلطان أو فرض الضرائب، كانت مشتركة بين التاجر وأعضاء آخرين من جماعته العمودية وليس بينه وبين كل التجار الآخرين في المدينة.

وفي موازاة ما ذكر، كان هناك عدم الاِنسجام بين القوى الاِقتصادية والمجتمعية والسياسية في المدينة. فإذا كان بإمكان الثروة أن تمنح مقاما مجتمعياً ما، فإنها لم تكن المورد الوحيد لذلك، لأن الاِنتساب إلى الشرفاء أو الأندلسيين أو الاِشتهار بالتقوى أو العلم غالباً ما كان أكثر أهمية من هذه الناحية. فقد كان مقام البلديّين المجتمعي وضيعاً تمام الوضاعة على ما يبدو، في بداية العهد العلوي، وذلك بالرغم من أن كثيراً منهم يملك ثروة هائلة. كذلك، لم تكن القوة السياسية مبنية بالضرورة على التجار، أو الثروة عموماً، بل كانت تميل إلى التركز في أيدي الزعماء السياسيين لكل جماعة عمودية وبين أفرادٍ لهم صلة بماض عسكري ـ إداري أو حتى

---

(17) انظر: N. Cigar, «Société et vie politique à Fès sous les premiers Alawites, ca. 1666-1830», **Hespéris-Tamuda**, 1978-1979, 93-173.

(18) فقد كان مفروضاً على الحوانيت التي يملكها البلديون، مثلاً، أن تضع على مصاريع أبوابها سيقان نبتة الشُمرة. وقد استمر ذلك، على ما يبدو، إلى عهد مولاي إسماعيل (**ذكر قصة المهاجرين**، ص. 491).

(19) Louis de Chénier, **Recherches historiques sur les Maures et histoire de Maroc**, Paris, 1787, Vol. III, p. 130.

بين شيوخ الزوايا. فداخل تحالف العامة ــ غير الشرفاء، وغير البلديين ــ مثلا كانت الهيمنة للأندلسيين (الذين يوجد القليل منهم بين عائلات التجار). ثم إن الرماة (وهم بمثابة ميليشيات حضرية) التي كانت تستعمل أحيانا في الصراعات المحلية، كانت في قبضة المتزعمين «السياسيين» للعامة : إذ يقوم الزعماء السياسيون بدور القادة العسكريين، ويكون الجنود في معظمهم من الحرفيين والعمّال[20]. وكان أساس تنظيم هؤلاء الرماة مبنياً في الواقع على هذه الشرائح البشرية ــ الجغرافية الثلاث من عامة المدينة (أو من أحيائها الثمانية عشرة) وليس على المجموعات الحرفية المنظمة في حنطات، أي المجموعات المجتمعية ــ الاقتصادية. ثم إن الوسطاء الذين كان السلطان يحكم المدينة بهم قلما كانوا تجاراً بصفتهم كذلك، لأن انعدام بيروقراطية محكمة، من النوع الذي يوجد في المشرق، استلزم وجود وسطاء محليين بسلطتهم التعسفية في فاس، وهي سلطة يفتقر إليها التجار. وأخيرا، فإن القوة العسكرية كان لها اعتبار أكثر من الثروة، كما تبين ذلك حالة قائد عسكري («كانت إرادته لا تُتَحَدَّى») في كَيش السلطان أو الجيش القبلي، والذي بنى طاحونة مائية في فاس الجديد، أي فوق مدينة فاس بالضبط. ومع أن هذه الطاحونة قد حبست جزءاً من الماء الذي تحتاجه المدينة، فإن أحدا لم يستطع عمل أي شيء لعدة سنوات، ولم تقدم شكاية إلى السلطان إلا في سنة 1127هـ/1715م (وذلك رُبما بعد وفاة القائد العسكري أو انتقاله)[21]. إذ الراجح فعلا أن تُمَكِّن السلطة السياسية الفرد من تحقيق الثروة، وليس العكس؛ وليس من المفاجئ ألّا ينشط التجار في طلب السلطة في مثل تلك الظروف. فعندما تمرد بعض سكان فاس على عاملهم سنة 1235/ 1819 مثلا، لاحظ السلطان مولاي سليمان أنه كان من الأفضل أن يكون العامل من التجار، لأنهم غير جشعين (**الإستقصا** 8، 140)، ولا يبدو أنهم يرغبون في وظائف سياسية كتلك، بل كانوا على الأرجح يطلبون الحماية، كأفراد، من الزعماء السياسيين الأقوياء، كما يؤكد ذلك مؤرخ فاسي معاصر بخصوص أوائل القرن السابع عشر[22].

---

(20) ومن المعبّر أن التجار والرماة كانوا مُعْفِين من الخدمة. وقد لاحظ **مارمول ده كاراڤاخال** أن «''البرجوازيين والتجار'' فضلوا أداء المال على الخدمة، وكان على الأمين بنّيس أن يسعى في الإبقاء على آمتياز هذا الإعفاء الذي استمر طويلًا» («رسالة من بنّيس إلى الحاجب موسى بن أحمد البخاري (1291/ 1874)»، ضمن مجلة **الوثائق**، 3، 335–336).

(21) نسخة من **رسم** حول توزيع الماء مؤرخة بتاريخ 1715/1127 (M.S.D 153 bis, 343-369 AR).

(22) Muhammad al-Ifrānī, **Nuzhat al-hādī**, ed. and tr. Octave N. Houdas, Paris, 1889, tr. p. 395.

وكان من الممكن أن ينظر إلى طلب استقلال حضري في فاس، على الأقل حتى القرن التاسع عشر، ليس في إطار سياسة للتجار، بل في إطار الجماعات العمودية، بما أن الأندلسيين النزاعين إلى الإستقلال غالبا ما كانوا متعارضين مع الشرفاء، الذين كانوا يستفيدون على العموم من حماية سلطان قوي وعطفه. وقد اتُّخِذَت تدابير عملية وعرفية واسعة النطاق في سبيل آستقلال حضري، ولكنها لم تكن موثقة توثيقاً شرعياً، وكانت بمعزل تام عن تكوين ونشاط تجمع مجتمعي - اقتصادي منفصل واع، وكانت سابقة لهذا التكوين وهذا النشاط.

ويُمكن تفسير عدم تطور هؤلاء التجار إلى جماعة كتلك - كما كان الشأن في أوربا -، بغياب تنظيم داخلي فعلي، أو إطار ذي طبيعة قانونية أو اقتصادية. فدور التنظيم الحرفي، مثلا، في الحياة الاقتصادية (والسياسية والمجتمعية كذلك) لحواضر أوربا خلال القرون الوسطى، وفي نشأة برجوازية، أمر مؤكد ولا يحتاج إلى تفصيل هنا. وقد حاول بعض الباحثين الغربيين أن يلتمسوا وضعا مشابها في التاريخ الحضري للعالم الإسلامي، وربما تبينوا مثل هذا النموذج حيث لا وجود لأي نموذج في الواقع. وكان بعض الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن العالم الإسلامي، مسؤولين، جزئيا على الأقل، عن إساءات الفهم الأخيرة هذه. وكان من بينهم لوي ماسينيون في دراسته البالغة الأثر عن التجمعات الحرفية المغربية المطبوعة سنة 1925[23]، والتي جزم فيها بأن وجود حنطات الحرفيين يعني بالضرورة أن وظيفتها ومجالها شبيهان بوظيفة نظيراتها الأوربية ومجالها. وإذا نجحت دراسات س. م. شتيرن وكلود كاهن في دحض الإدعاء القائل بوجود مثل هذا النظام في مناطق أخرى من الشرق الأوسط[24]، فإنه لا يزال يحتفظ بجاذبيته في تفسير المجتمع الحضري للمغرب حتى الآن (Miner). وإذا كانت الحنطات قد لعبت دوراً مهما فعلًا، فإنما كان ذلك لمدة من الزمن بعدما نظمتها سلطات الحماية من أجل أغراضها الخاصة بها. ومن المضلل العودة بهذا الوضع إلى فترة تاريخية سابقة. والدليل على ذلك أن أغلب أشكال التجارة والصناعة التقليدية

(23) «Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants au Maroc (1923-1924)», **Revue du Monde Musulman**, LVIII, 1924, 1-267.

(24) Claude Cahen, «Ya-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?», in A.H. Hourani and S. M. Stern, **The Islamic City**, Oxford, 1970, pp. 51-63, and S. M. Stern, «The Constitution of the Islamic City», **ibid.**, pp. 25-50, esp. pp. 36-43.

كانت منظمة في منظومة من الحنطات التجارية والحرفية (التي تعود فعلا إلى أيام تأسيس فاس على يد المولى إدريس الأول، إذا صح ما جاءت به الرواية (**قصة المهاجرين بفاس، 468**))، وغالبا ما كان هناك أمين يتولى الزعامة، التي يسرت درجة من التنسيق في شأن الأثمان[25]، مثلا، أو الأكرية[26] أو الضرائب في النادر[27]. وربما وجدت الاحتفالات أيضا مثل هذه الحنطات وقد تجمعت حول صلحائها (**فاس، 303–304**). غير أن عوامل عدة حالت دون قيام الحنطات بدور مماثل لما قامت به نظيراتها الأوربية. منها أن تنظيم الحنطات الفاسية كان أكثر ضعفاً، ولم تكن له شخصية قانونية أو استقلالية موثقة، ولا كانت له سلط حقيقية منظمة. فلكي يصبح المرء نجاراً مثلًا (والنجارة من الحرف الشريفة) يلزمه استثمار رأسمال قليل أو القيام بإجراء شكلي، لا يتطلب منه أكثر من آلتزود بأدوات بسيطة وانتظار الزبائن الذين قد يحضرون موادهم الخام، على حد قول أحد الفاسيين من القرن الثامن عشر[28]. بل استطاع أحد معتنقي الإسلام من كُيُو كَارْدَنْز (Kew Gardens)، بإنجلترا، أن يصبح صانعاً للبلاغي في أوائل القرن العشرين، وأن ينتقل من حرفة إلى أخرى مع بعض القيود الظاهرية (F.O., 174-266; 1905).

ثم إن الأمين، أو الرئيس النظري للحرفة، لم يكن في الواقع شخصية قوية كما صوِّر أحياناً (Miner) أو كما سيصبح إبان الحماية. فعندما أجري تحقيق سنة 1168/ 1754–1755 حول الدرازين بفاس، عقب إلقاء القبض على تجار فاسيين

(25) يبدو مثلا، من **فتوى** لعمر بن عبد الله الفاسي (1125/1713–1188/1774) (MS.D 2438, 96, RA)، أن صانعي المنتوجات اللبنيَّة الفاسيين كانوا قد حاولوا أن يشتروا جميع اللبن الموجود في المدينة (بينما كانوا لا يشترون فيما مضى إلّا ما يكفيهم لصنع منتوجاتهم) ليعيدوا بيعه بثمن أعلى. وبما أن المحتسب لم يكن يتحكم في ذلك، فقد دخلوا معه في جدل قانوني حول مدى سلطته في هذه المسألة.

(26) من ذلك مثلًا أن مشغِّلي الحمامات المكتراة من إدارة الأحباس اتفقوا على إبقاء الكراء السنوي منخفضاً، وذلك بالتحكم في المزادات العلنية (وثيقة من 1129/1717 ضمن **النوازل الصغرى** للوزاني، ج III، ص. 349). وهو ما كان بوسعهم أن يفعلوه بمجرد إقصاء الوافدين الجدد. غير أن هذه الحرفة هي من الحرف التي لا يمكن أن تحدث فيها المنافسة إلّا مع الإزاحة الفعلية لممارسي هذه الحرفة، وذلك بالنظر إلى العدد المحدود للحمامات المتاحة، والذي قد يعلّل الجبهة الموحدة ضد الوافدين الجدد.

(27) مثال ذلك أن حاكم فاس جمع هدية السلطان في سنة 1179/1766، وذلك بأن فرض قدراً معيَّناً على كل سوق (الخرازون والخضارون، إلخ) – بل على كل مهنة في الواقع، وعلى سوق عرقية هي سوق التواتيِّين، ولو أن هذا ربَّما قد يكون له آرتباط بحرفة واحدة أيضاً (**تقاييد ابن إبراهيم**، ص. 197).

(28) **فهرسة** عبد الرحمٰن بن إدريس المنجرة (توفي 1179/1765–1766) (MS.K 2244, fol. 227, RA).

في طرابلس، بتهمة بيعهم ثياباً معيبة جاءوا بها من مدينتهم، فإن ذلك لم يكن على يد الأمين أو الحنطات المعنية، وإنما كان على يد ممثلي المناطق الجغرافية الثلاث التي قسمت إليها المدينة آنذاك، وبالمستوى الذي كانت به السلطة السياسية الأولية حنيئذ[29]. ولم يكن يبدو هناك تماسك ملحوظ بين الحنطات، إلا عندما يكون الأصل العرقي الواحد موجوداً بين أعضاء حنطة واحدة، كما هو شأن الزرزاية أو الحمالين الأمازيغيين (**فاس، 243**) أو السوسيين[30]، ولكن هذا موضوع آخر. وكان الدور السياسي لتلك الحنطات متجاهلا أكثر من دورها الإقتصادي، لكونها لم تقدم أسسا لأي عمل سياسي، حسب ما أشارت إليه النصوص التي رجعت إليها أو على الأقل لم يتم ذلك حتى سبعينيات القرن التاسع عشر (1870)، بعد التغيرات المهمة التي عرفها المجتمع الفاسي في القرن التاسع عشر، والتي سأرجع إليها بعد قليل، وهي تغيرات لم تخدم المجتمع الفاسي بما فيه الكفاية. وهكذا لم تكن الحرفة والحنطات وحدتين أساسيتين لولاء سياسي واقتصادي كما كانت عليه في أوربا الحضرية خلال العصور الوسطى.

وكان يمكن التُّجَّارَ الكبارَ أن ينخرطون في حنطات لأرباب الحوانيت. إذا لم يكونوا متخصصين في منتوج بعينه، كما هو حالهم غالبا، لم ينتموا فيما يبدو إلى أي جهة على الإطلاق. ولم يكن هناك مقياس قانوني يفصل بين أهل الحوانيت وأهل التجارة، ولا مقياس وظيفي يفصل بين البيع بالتقسيط والبيع بالجملة (لأن التجار كانوا يستطيعون القيام بهما معاً)، ولا مقياس تخصص في نوع من السلع. بل كان الثراء هو المقياس الأساسي، وهو مقياس غير رسمي، ولكنه واقعي جدا، كما أشار إلى ذلك لوتورنو (**Fès, 368-369**). ولم تكن هناك نظريا حواجز تحول دون الصعود إلى أعلى أو الدخول من الخارج، وذلك بخلاف الوضع في أوربا خلال العصور

(29) **حوليات نشر المثاني**، ج 2، الورقة 122. في الواقع عندما حاولت وجوه جماعة الخرازين مرة أن تحكِّم أمينها في المستضعفين منهم، عُدّ ذلك غير قانوني، وانسحب هذا الأمين نفسه في آشمئزاز، فدل بدلك في الوقت نفسه على آنعدام تحكم مؤسَّسي من طرف النخبة وعلى الرفض العام لمثل هذا الدور من الأمين، وهو مبدأ ظل سارياً خلال القرن التاسع عشر (**فتوى** لعيسى بن علال (د. ت.) نقلاً عن الوزاني، **النوازل الكبرى**، ج 2، ص. 333).

(30) من ذلك مثلًا أن السوسيين في فاس الذين آحتكروا عدة مجالات في تجارة التقسيط في المدينة (**فاس، 123**)، كانوا على العموم مسؤولين جماعةً عن أعمال الأفراد، كما هو الشأن في حالة سرقة بعض المال تناولها الوزاني، بل المخزن نفسه؛ غير أن هذا النوع من المسؤولية الجماعية آعتُبر غير قانوني (الوزاني، **النوازل الكبرى**، ج VII، ص. 142).

الوسطى. ومع ذلك، فلا شك في أن الدخول في دائرة التجار أكثر صعوبة من الدخول في دائرة الصناع. ومع أنه لم يكن هناك عائق نقابي رسمي، فإن تقليدا غير رسمي هو ثمن المفتاح (الكَلسة ومصطلحات أخرى) المستمر، الضروري للنفاذ إلى دكان، ولو في ملك الأحباس، صعَّب على القادمين الجدد تأمين مكان لهم. وهذا التقليد متجذِّر جدا في القيسارية والعطارين[31]، وهما عصب المدينة التجاري (خصوصا في القرن التاسع عشر) ماداما سوقي المدينة الرئيسين للتبادل المالي والنسيج والبلغة وما إلى ذلك. وبينما كان كراء الدكاكين الفعلي الذي تقبضه الأحباس ثمنا رمزيا، خصوصا مع ازدياد التضخم في القرن التاسع عشر، كان حق الكَلسة المعزولة أكثر غلاء عادة، وكان يمكن أن يورث أو يؤجر من **الباطن** أو يباع. وكانت ممارسة الإيجار من **الباطن** لكَلسات الحوانيت التي في ملك الأحباس ممارسة مربحة سلفا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، بمقدار ضعفي الكراء الأصلي أو ثلاثة أضعافه (بردلة، 27)، ولو أن هذه الأرقام تبدو معتدلة تماماً وفقاً للمعايير المتأخرة، إذ في منعطف هذا القرن مثلا، بينما قد تحصل الأحباس على ما بين بسيطتين ونصف (2,5) و5 بسيطات (أي على ما بين 50 سنتاً ودولار واحد) ثمن كراء الشهر الواحد عن أحد دكاكينها، فإن صاحب الكَلسة (وغالبا ما يكون فردا ليس ذا منصب أو عمل عام) قد يحصل على ما بين 50 و100 بسيطة، بينما قد يمكنه أن يبيع الكَلسة نفسها بثمن يتراوح ما بين 5000 و25000 بسيطة (René Leclerc, 299). وكان هذا من النَّاحية العملية قد قيد الحركية والتنافس إلى حد بعيد، وزود أولئك المستكنّين سلفا في الأسواق المركزية بامتياز محدد. ثم إن وجود القيسارية في حرم مولاي إدريس استبعد منافسة اليهود والأوربيين هناك. وبالفعل، كان وجودها في مثل هذه الأرض المقدسة يتخذ خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حجة من الحجج الرئيسة لإقصاء التجار البلديين من القيسارية (**النصيحة**، 16). وأخيراً لا شك في أن معظم الصيارفة الذين يمكنهم أن يوفروا الرأسمال لمشاريع تجارية جديدة كانوا تجاراً أيضاً، ولا شك في أن كونهم كذلك سمح لهم بالتحكم في أولئك الذين يطمحون إلى الِالتحاق بصفوفهم[32].

(31) الوزاني، **النوازل الصغرى**، ج IV، ص. 17.

(32) من ذلك مثلًا أن تاجرين، من أواخر القرن الثامن عشر، أقرضا تاجراً آخر مالًا يتاجر به في القيسارية، كما «جرت العادة بذلك»، بين تجار تلك السوق (ابن سودة، **أسئلة وأجوبة**، ص. 125). كما كانت عائلة التازي التجارية تقوم بالفعل صيارفة للحكومة في تافيلالت في أوائل القرن العشرين (F.O. 174-265).

وفي هذا السياق نفسه، كان دور العمدة أو رئيس التجار يعتبر ـ بحق ـ من الأدوار ذات الأهمية الكبرى في نمو البرجوازية الأوربية. وبما أن هذا الموظف كان يختاره التجار والصناع من صفوفهم، فإنه كان يقوم بالدفاع عن مصالح النقابات في أوربا في مواجهة الدولة والجماعات الأخرى في المجتمع ويؤدي دوراً فعالًا في ترجمة القوة الاِقتصادية إلى قوة سياسية. وقد آستهوى بعض الملاحظين أيضاً أن يروا في منصب المحتسب في فاس، وفي مناطق إسلامية أخرى، مؤسسة مماثلة، واعتبروه صلة وصل حيوية بين الحكومة المركزية والتجار والصناع، بما أنه يمثل مصالح هؤلاء لدى السلطان، وينقل أوامر هذا لهم؛ مما كان يمنح هذا آلفرد المحوري نفوذاً ووزناً كبيرين (Miner, 84-89). وإذا صح أن المحتسب كان يبدو خلال القرن السادس عشر شخصية مرموقة في المجتمع المحلي، حسب ملاحظين أمثال ليون الإفريقي ومارمول، فقد كان هناك تماسك قليل عند من قُلدوا هذه الوظيفة أو في الدور الذي أدِّي خلال العهد العلوي. وقد بولغ عموما في أهميته أيما مبالغة. وبالرغم من أنه يمكن صاحب هذا المنصب أن يستغل موقعه لجمع ثروة شخصية مصدرها الرشاوي ومعاملات أخرى مريبة[33]، فإن هذا في حد ذاته لا يجعل منه الموقع المحوري في الاِقتصاد الفاسي؛ ومع أن شخصا من عائلة لها مكانتها كالتاجر التازي[34] أو العالم ابن قادس (**الدرر البهية**، 2، 354) استطاع أن يتولى هذا المنصب، فقد استطاع عبد مسيحي مرتد أن يتولاه في عهد مولاي عبد الله في القرن الثامن عشر (**نشر المثاني**، 2، ورقة 122)، وخلال فترات زمنية معينة أي لمدة بضع سنوات بعد وفاة مولاي إسماعيل، وأيضا لفترتين بعد إزاحة المرتد المذكور آنفاً لم يكن هناك محتسب البتة (**نفسه** ؛ **وتقاييد ابن ابراهيم**، 166)، ولم يؤثر ذلك في الاِقتصاد إلّا قليلًا فيما يبدو. وكان يمكن السلطان أو أيّاً من الجماعات المختلفة في المدينة أن يعين المحتسب أو يعزله، بحسب سلطته النسبية. وإذا صح أن محتسبا قد توسط في مناسبة واحدة على الأقل لدى السلطان مولاي إسماعيل لصالح الفاسيين محاولا ثنيه عن فرض المكوس، فقد كان المحتسب عموما موظفا حكوميا أكثر منه ممثلا للمصالح المحلية، وكان هناك سعي دائم للحد من سلطاته، كما يوضحه الرفض المتكرر لقرارات حكم

(33) تمكّن العديد من المحتسبين، وخصوصاً في القرنين التاسع عشر والعشرين، من جمع ثروات مالية من مناصبهم، كذلك المحتسب الذي احتكر سوق الزُّبدة في سنة 1908 (Niddam, pt. I, 48)، أو أحد الكتانيِّين، الذي عيَّنه مولاي سليمان، وآغتنى بطريقة غير قانونية (**التحفة**، ص. 256).

(34) انظر: «L'évolution du Makhzen; La famille Tazi», **Afrique Française**, Feb. 1904, 50-51.

المحتسب على الصناع أو أرباب الحوانيت، وقد سببت مثل هذه الحالات لعدد من المحتسبين في السكوت على مضض أو في الإستقالة[35]. وفي الواقع، إن أحد المحتسبين الذين سعوا في أن يكونوا موظفين فعليين بمراقبة جودة السلع وأثمنتها عن كثب في السوق، قد اعتبر خطرا يهدد نخبة المدينة السياسية أو الإقتصادية. وقد اغتيل شخصان على الأقل : أحدهما عينه مولاي إسماعيل (وقد اغتيل بعد وفاة هذا الأخير عام 1727/1139) (**نشر المثاني**، 2، ورقة 92)، والآخر هو ابن زيان الذي اغتيل إبان حكم عبد الله (**نفسه**، ورقة 123). ولا سبيل إلى القول إن هذا المنصب قد خدم تنظيم الحرف، وأحرى التجار، تراتبيا أو تنظيميا، ويمكن تقدير هامشية المحتسب بالذات حق قدرها في أن سلطته القانونية غالبا ما كانت في الواقع لا تتعدى من كان يطلق عليهم المستضعفين، أي أولئك الذين ليست لهم سلطة أو ليس لهم من يحميهم من ذوي السلطة، كما لاحظ فاسي من القرن التاسع عشر[36]. ولم يمنع غياب مثل هذه المؤسسات النقابية تكوين جماعة للتجار، أو أي جماعة مهنية أخرى متماسكة فحسب، بل لعله كان في حد ذاته انعكاسا لغلبة المصالح العرقية على المصالح الإقتصادية بين التجار.

وعلاقة التجار بالدولة تبدو أهميتها لتوهم أمرا واضحا، ومن المفيد جدا تبيُّن العلاقة المتغيرة وميزان القوة بين التجار والأسرة العلوية منذ منتصف القرن السابع عشر. ذلك بأن الدولة العلوية قد دأبت عموما على أداء دور ما في الإقتصاد الحضري، وكانت تسعى عادة في تحريك التجار تبعا للحاجيات الراهنة. فكان معظم السلاطين العلويين الأوائل، مثلا، يسعون — عن وعي — في مراقبة تجار فاس (وهي المدينة التي كانت مزعجة على نحو خاص وكانت مشهورة بالثراء)، أولئك التجار الذين كانوا يُعتبرون، من بين ما كانوا يعتبرون، مصدرا يستعمل للسيولة النقدية ؛ ولا يبالي كثيرا بتشجيع التجارة. وعلى العموم، فإن التجارة مع الشرق أو السودان، اللذين كان الفاسيون يركزون عليهما، لم تكن ذات فائدة كبيرة للدولة على كل حال.

---

(35) هم جماعة في القرن الثامن عشر: عام 1142 أو 1729/1145–1730 أو 1732–1733 (**سلوة الأنفاس**، ج III، ص.123)، وواحد عام 1745/1158 (**ابن إبراهيم**، ص.166)، وآخر عام 1170/ 1756–1157 (**نشر المثاني**، ج II، الورقة 124)، وفي أوائل القرن العشرين (Niddam, pt. I, 60).

(36) العربي المشرفي (توفي 1895/1313)، مقطع من قصيدة ضمن : MS. K 1264, 313-315, AR.

وبالرغم من أن المكس كان يفرض حتى على قوافل الحج في بعض الأحيان[37]، فقد كان مشكوكا في شرعيته وكان يثير مشاعر الإستياء، فكان السلاطين يفضلون تجاهل هؤلاء التجار وهذه التجارة، ما أمكن، عن طريق احتكارات سلطانيّة لبعض المنتوجات المحلية وخصوصا التجارة المربحة، والتي يمكن التحكم فيها، مع أوربا، وغالبا بتسخير تجار يهود يشتغلون لحسابهم. ومع ذلك، فقد أُجْبِرَ التجار الفاسيون، وربما تجار مغاربة آخرون، على التعامل بين الفينة والفينة مع المخزن وفقا لشروطه هو، كما حدث عندما أجبر مولاي إسماعيل التجار الفاسيين على شراء الفضة التي افتدي بها الأسرى المسيحيون 1091/1680 (نشر المثاني، 136) بالسعر الذي يريده هو، أو عندما أجبرهم سيدي محمد عام 1177/1764 على شراء خشب البرازيل والعطور التي كانت في حوزته (بن إبراهيم، 195). وهكذا لم يحدث السلاطين سياسة لعدم التدخل، ولا أي سياسة للتشجيع الفعلي لتطور جماعة تجار قوية قبل القرن السابع عشر ؛ فكان تأثير التجار على السلاطين أقل فعلا من تأثير بعض الجماعات الأخرى في المجتمع.

ومع أن كثيرا من المقومات الضرورية لنشأة محتملة لبرجوازية كانت موجودة نتيجة لذلك، فإن غياب مؤسسات مناسبة جعل ظهورها الفعلي ينتظر وقوع عدد من التغيرات في الوضع المجتمعي السياسي داخل المدينة نفسها.

III – التغير والإستمرار في القرن 19

كان على فاس، والمغرب كله، أن يخضع لتغيير مهم في القرن 19، تدفعه إلى ذلك قوتان داخلية وخارجية. وكان من أهم هذه التغيرات الزوال التدريجي للنظام السياسي الذي توجهه الجماعة التقليدية في فاس، وهو سيرورة يمكن أن ترى في أوائل ذلك القرن، وكانت تعزى إلى عدد من العوامل هي : القمع النشيط والتصفية الجسدية، من طرف السلاطين، في الصراعات الداخلية، لكثير من الزعماء اللمطيين والأندلسيين (والأخيرون لا يعوَّضون عن طريق الهجرة)، وجهودُ البلديين المتواصلة كي يعاملوا معاملة الأفراد وليس معاملة الجماعة بالمعنى الشرعي والإقتصادي للفظة،

(37) Windus, 209-210، أي قبل 1720 ؛ أبو مدين بن أحمد الدرعي الروداني (توفي 1157/1744)، رحلة الحجّ (خلال حكم المولى عبد الله) (مخطوط 297، خزانة القرويين، فاس، 249).

وفترةُ سلم استغرقت جيلين على عهد سيدي محمد وحكم مولاي سليمان[38] (قلت فيها الحاجة إلى هذه الجماعات الحامية، وتفكك تلاحمها). وبالرغم من أن جماعات، كالأندلسيين واللمطيين، في ثورة فاس على مولاي سليمان في 1235-1236/ 1819-1821، ما زالت مهمة إلى حد ما في تحديد الولاء للسلطان، فإن هذه المناسبة كانت آخر مناسبة يصح فيها هذا الأمر. ثم إننا نجد بين متزعمي التمرد الطاهر بن جلون، وهو تاجر مشهور فضلا عن أنه من أصل بلدي. وكان على مثل هذه الاِنقسامات العمودية أن تفقد دلالتها السياسية، إن لم تكن دلالتها المجتمعية، بالتدريج. وقد سرى هذا بالضرورة حتى على مفهوم الشرف، وهو لقب ذو أساس ديني، إذ في أوائل القرن 20، وجبت المساواة بين كل الفاسيين (بمن فيهم الشرفاء) حتى يؤدي الجميع ضريبة الترتيب.

ومما واكب هذا كله أنه خلال فترة السلم الطويلة هذه[39]، توسعت المدينة وعرف التجار فترة من الاِزدهار الجديد. فمما يدلّ على التعاظم السريع للبناء في المدينة، والذي شمل حتى الأراضي التي ظلت في محيطها غير مطوَّرة حتى ذلك الوقت، أن ظهيراً يعود إلى سنة 1211هـ/1796-1797م، رخص في إعادة بناء بعض البنايات الحبسية في وسط فاس[40]. ومما يدل كذلك على التوسع التجاري الفاسي أن التجار الفاسيين الذين كانوا يشكلون أكثر من نصف مجموع المغاربة في القاهرة، التي كانت إحدى محطات التجار الفاسيين الرئيسة، تبدو ثروتهم وقد ازدادت ضعفين (على الأقل بالمقارنة مع نظرائهم المصريين) في أواخر القرن الثامن عشر قياساً إلى ما كانت عليه في أواخر القرن السابع عشر[41].

(38) فعبد الكبير بن المجدوب الفاسي (توفي 1296/1879)، يزعم في **تذكرة المحسنين في وفيات الأعيان وحوادث السنين**، ضمن مخطوط و(381-185) K. AR 270، أن الفاسيين هزموا في المعركة التي قامت ضد الأوداية المجاورة عام 1236/1821، وذلك يرجع إلى «نقص [بياض في النص = التجربة ؟] في المعارك خلال فترة السلم الطويلة [السابقة]» (351).

(39) يزعم **كتاب الإبتسام** (مجهول المؤلِّف) أن تجار فاس ظلوا مخلصين لمولاي سليمان خلال ثورة هذه المدينة عليه، لأنهم اغتنوا في عهده اعتناء لم يغتنوه في عهد أي ملك علوي سابق (مخطوط 1204، (صفحات غير مرقمة)، RPLR).

(40) نسخة من هذا الظهير في المخطوط D 194 (صفحات غير مرقمة)، AR.

(41) يلاحظ أندريه ريمون أن تركة المغاربيين في القاهرة كانت تشكل في أواخر القرن السابع عشر 7,8 في المئة من الثروة (فقد كانوا يمثلون 7 في المئة من مجموع التجار)، بينما قدِّرت بعد ذلك بقرن، بحوالي 15,2 في المئة من الثروة (6,7 في المئة من مجموع التجار) (II, 472-473). وقد كان معدل ثروة التجار المغاربة في

ـ ولعل عددا من العوامل قد ساهم في ازدهار التجار الفاسيين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. فقد قرر سيدي محمد بن عبد الله، على ما يبدو، أن يتخلى عن تحصيل المكس في فاس بعد ثورة سنة 1774[42]، وهناك إشارات إلى أن مولاي سليمان كذلك لم يفرضها، أو ربما لم يستمر في فرضها[43]، وهذا قد يعني فترة من التجارة المعفاة من الضرائب. ولا شك في أن كون المدينة غير ملزمة في عهد سيدي محمد بن عبد الله إلا بتوفير فرقة عسكرية رمزية عارضة (ابن إبراهيم، 176 ـ 177) ولا شيء على الإطلاق في عهد مولاي سليمان[44]، لا شك في أنه كان يعني أيضا للتجار الذين كانوا يمولون معظم النفقات توفيرا مهما لأموالهم. وزيادة على ذلك، فإذا كان على تجارة قافلة الحج أن تتوقف مدة من الزمن عند ظهور الوهابيين في الجزيرة العربية، فإنه يبدو أنها قد انتعشت في سنة 1811، إذ كان التجار المغاربة قد رافقوا ابن مولاي سليمان الذي أرسل سفيرا إلى ابن سعود في تلك السنة (**الإستقصا** 8، 121) بينما كان الوهابيون أنفسهم قد أخرجوا من الحجاز سنة 1818 على يد محمد علي، ويبدو أن الطريق التجارية قد استرجعت أهميتها السابقة بسرعة (Thomassy, 57-58). ثم إن إصرار التجار الفاسيين بدأ يتزايد بسرعة، وكانت محاولتهم إقصاء التجار اليهود من تجارة البلغة (وهي أهم مادة تصنع للتصدير) في سوق فاس، وذلك بالتذرع بأنهم محتالون، سبباً في إصدار مولاي سليمان رسالة تمنع التجار الفاسيين من فرض ذلك الحظر وتتهمهم بأنهم يسعون في الاحتكار والتحكم في الأثمنة[45]. وفي هذه الحالة، قد يبدو أن التدخل السلطاني

— مصر (والذين كان معظمهم فاسيين) أربعة أضعاف ثروة التونسيين، وخمسة أضعاف ثروة الجزائريين، وخمسة أضعاف ونصف ثروة الطرابلسيين.

(42) David Urguhart, **The Pillars of Hercules** (London, 1850), Vol. I, pp. 336-337.

(43) **التحفة**، ص. 181، 193. يبدو فعلًا أنه قد أعيد فرض المكس حديثاً (وربما كان الداعي إلى ذلك نضوب الموارد الجمركية بعد انقطاع التجارة الأوربية)، مما أدى إلى الثورة في فاس على مولاي سليمان سنة 1819. وقد عزا أ. نيكسن، نائب القنصل البريطاني في فاس، عزا فرضها (بل إعادة فرضها) لهذا السبب، وذلك حوالي 1820 في تقرير له حول الضرائب في فاس، يرجع تاريخه إلى 26 مارس 1902 (F.O. 174-262)، وذلك على ما يبدو تبعاً لتقاليد محلية سابقة.

(44) **التحفة**، 181. في أواخر القرن الثامن عشر كان على الفاسيين (والتطوانيين والطنجيين) أن يسألوا السلطان أن يرخّص لهم في اقتناء السلاح، ظاهرياً من أجل الجهاد، مشيرين إلى أنهم لم يكونوا يملكونه. ولقد كان من الممكن حصولهم عليه لو كانت هناك قوة آلرما (الرماة) (الضعيّف، نقلاً عن محمد داود التطواني، **مختصر تاريخ تطوان**، تطوان، 1955، ج I، ص. 111.

(45) نسخة من رسالة، ضمن : بلقاسم الزياني، **جوهرة التيجان في الملوك العلويين وأشياخ سليمان** (مخطوط RPLR ،7159). أشكر السيد محمد المنصور على إيفائي بنسخة من هذه الرسالة وعلى إرشادي إلى التأويل الصحيح لها.

نفسه كان قليل التأثير، على الأقل في أوائل القرن العشرين، ما دامت تجارة البلاغي على نطاق واسع قد كانت في أيدي التجار الفاسيين المسلمين. كذلك، فإنه بعد احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830، كان تجار فاس أيضا (وتجار طنجة) هم الذين أقنعوا السلطان بعد إلحاح بألا يقطع العلاقات مع فرنسا حتى لا تتعرض تجارتهم مع الجزائر للخطر[46]. فقد لاحظ أحد قضاة فاس، وكان يكتب في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أن أصحاب الثروة لهم نفوذ كنفوذ الحكام، ما دام لهم ضلع في شؤون المخزن[47]. ويمكن التماس تفسير لنفوذ التجار المتزايد، في القيمة المتزايدة التي كانت لتجارتهم مع الشرق والسودان، عند المخزن، إذ كان مولاي سليمان قد أغلق أبواب التجارة مع أوربا إغلاقا يكاد يكون كليا. وهذا جعله أكثر اعتمادا على المداخيل المحلية، الأمر الذي يتضمن محاولة إعادة فرض المكس المرهق على التجارة القارية في أواخر عهده[48]. وخلال المرحلة الأولى من حكم خلفه، كانت التجارة مع أوربا متواضعة وغير منتظمة أيضا، هذا فضلا عن أن هذا الأخير قد استثمر أمواله الخاصة مع التجار الفاسيين في التجارة مع الشرق (Miège, II, 161). وإذا صح أن السلاطين السابقين قد ساهموا أيضا في التجارة، فإنه يبدو أن تجارتهم هذه كانت في معظمها مع أوربا، وقد اتخذ فيها اليهود وكلاء تجاريين، الأمر الذي لم يكن ممكنا في تجارة الحج، وكان صعبا في تجارة السودان[49]. ولا شك في أن هذه الوضعية جعلت التجار الفاسيين وغيرهم من المغاربة أكثر فائدة للمخزن.

---

(46) P. de Cosse Brissac, «Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie (1830-47)», **Hespéris**, 1931, 35-115, 40.

(47) علي التسولي (توفي 1258هـ/1842م)، **أجوبة الشيخ التسولي للشيخ عبد القادر محيي الدين** (المطبعة الحجرية، فاس)، ص. 37.

(48) قد يمكن التوفيق بين استمرار التجار في مؤازرة مولاي سليمان (هامش 39) خلال الثورة في فاس، ومعارضتهم للمكس ذاته، لكون هذا المكس زيادة حديثة فقط ؛ ولعلهم كانوا قد أملوا الرجوع إلى وضعية الإعفاء من الضريبة، كما كان الأمر سابقاً في عهد هذا السلطان نفسه، الذي حصلت لهم الإستفادة في عهده.

(49) يلاحظ فيليكس أ. ماثيوز، قنصل الولايات المتحدة في طنجة، أن اليهود لم يُرَخَّص لهم إلى حدود 1804م في الدخول إلى المحطة الرئيسية للقافلة بتمبكتو، وذلك بسبب غيرة «المحطة التجارية المغربية»، أي التجار المغاربة المقيمين هناك (ومعظمهم فاسيون) (انظر: **RCCM**, no. 7, May (Washington, 1881), 795). كذلك، لم يرخص لليهود في المتاجرة في منطقة واد نون، بعد 1816، وهو ما ذهب إليه أرشيبالد روبنز (انظر: Archibald Robbins, **A Journal comprising an account of the loss of the Brig Commerce etc.**, Hartford, Conn. 1851, p. 216).

وبالرغم من أن بورجوازية قد كانت بذلك في طريق التكون في فاس، حتى قبل الإنفتاح على أوربا، فإن التغييرات التي أحدثتها هذه الأخيرة في المغرب كانت مهمة من حيث التعجيل ببلورة هذه الجماعة المجتمعية، ومن حيث السماح لها بتعزيز موقعها. وتَسِمُ معاهدة تجارية عقدت مع بريطانيا العظمى سنة 1856، ومعاهدات مماثلة مع دول أخرى بعد ذلك (وهي معاهدات رفعت معظم حواجز المغرب القانونية وتحكماته في التجارة) بداية انفتاح البلد على التأثير الأوربي المتزايد[50].

وقد استفادَ العديد من التجار المغاربة من هذه الوضعية، ولاسيما الفاسيين منهم الذين إن لم ينفردوا بالطريقة الجاهدة المناضلة التي اغتنموا بها الفرص التجارية التي كانت تتيحها الروابط الجديدة مع أوربا، فقد تميزوا بها كثيرا على الأقل، في عالم القرن التاسع عشر الإسلامي. فبينما ازداد وقوع التجارة الدولية بل وحتى المحلية، في أماكن أخرى من الشرق الأوسط، في أيدي الأوربيين أو الأقليات المحلية (اليهود أو النصارى)، فإن معظمها في حالة المغرب كان في أيدي المسلمين الفاسيين الذين سيطروا على جزء مهم، ليس فقط من التجارة المحلية، بل ومن التجارة الدولية أيضا. وهذا غالبا ما يعني التحكم في طرفي طريق تجارية : في أحد الموانئ المغربية وفي أوربا، الأمر الذي استلزم نشأة مراكز فاسية، ليس في الدار البيضاء فحسب، بل وأيضا في مانشيستر ولندن ومارسيليا وجنوى وغيرها. وقد حدث مثل هذا التوسع بعد 1830 في غرب إفريقيا الفرنسي، وكان الفاسيون هم المتمركزون مرة أخرى في كلا طرفي طريقه التجارية[51]. وعلى عكس ما أشيع بأن الوضعية التجارية في فاس قبل الحماية كانت في حالة احتضار، فقد يبدو أن هناك في الواقع توسعا اقتصاديا في تلك الفترة، كما تدل على ذلك قيمة المفتاح المرتفعة في القرويين والعطارين، والتي عزاها الفاسيون أنفسهم إلى نجاحهم في التجارة (F.O., 1913, 174-270). وقد تحققت

---

(50) من أجل أخبار أكثر تفصيلا عن التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، انظر العمل الموسوعي المثير بقلم جان ـ لوي مييج : (**Le Maroc et l'Europe**, 1830-1894, 4 vol, (Paris, 1961-1963). ويقدم جميل أبو النصر (Jamil Abun-nasr, **A History of The Maghrib**, Cambridge, 1975, pp. 284-303)، يقدم موجزاً للأحداث الرئيسية خلال هذه الفترة.

(51) في سنة 1905 كان في إفريقيا الغربية ما مجموعه 112 تاجر مغربي، أكثرهم فاسيون وهم الأطول إقامة (كَسوس، برادة، كَنون، بشقرون)، ولم ينحصر نشاطهم في المدن فحسب، بل تعداها إلى التجمُّعات السكنية الصغيرة أيضاً (L. d'Anfreville, «Les Marocains en Afrique occidentale», **Renseignements coloniaux**, III, 1905, 155-156.

الأرباح من الصادرات إلى أوربا (معظمها مواد غذائية وصوف وجلود حيوانات)[52] ومن الواردات منها (الثياب القطنية والغزل والسكر والشاي والحرير). وإذا كانت الصادرات لا تهم فاس مباشرة، وإنما تهم مواطنيها العاملين في أماكن أخرى فقط، فإن كثيرا من الواردات كانت توجه إلى فاس، إما للإستهلاك المحلي وإما لإعادة شحنها في السفن إلى أماكن أخرى. ولعل التعليق الصادر عن التاجر الفاسي المدني التازي، الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة في الخارج، وهو تعليق باللغة الإنجليزية يلخص هذا الوضع الجديد خير تلخيص: «**من قبل كانت الآمال، واليوم الأموال**» (Aubin, 338). وفي كلتا الحالتين، فإن الثروات تعود، في الأخير، فعلاً إلى مدينة التجار الأصلية فتحدث، من بين ما تحدثه، ازدهارا في تشييد البيوت الفخمة في فاس في أواخر القرن التاسع عشر[53]. ومما يدل على هذه الهيمنة الفاسية أن الفاسيين كانوا يشكلون ثلثي تجار الدار البيضاء في أحد قطاعات الإستيراد الرئيسة سنة 1925، وأعني قطاع النسيج[54].

---

(52) من ذلك مثلا أن فاسياً يدعى محمد بن المدني بنّيس حصل بمبلغ 4,000 مثقال (3,100 دولار) في السنة على حق تصدير الغسول في سنة 1277هـ/1860م (**ظهير، في وثائق**، III، 386)، بينما تسلّم في سنة 1291هـ/1874م، رخصة تصدير 200.000 فنيقة (ومقدار الفنيقة الواحدة: 56,7 لتراً) من القطاني لتعويضه عن هذه الخسائر خلال ثورة الدباغين في فاس. وكان نصف هذه الكمية في ملكه الخاص، بينما ــ فيما يخص الباقي ــ أعاد بيع الرخص ذاتها لبعض التجار الإسبانيين بالتخفيض (**وثائق**، III، 348ــ 350). وتقدم فتوى من فاس مثالاً على شخص يحصل على القمح من منطقة تامسنا بالنسيئة، ليعيد بيعه في الرباط، قصد تصديره بلا شك (الوزاني، **النوازل الكبرى**، IIIV، 20).

(53) لاحظ أوبينْ (Aubin, 336-338) أنه لم تكن هناك إلّا دار قديمة واحدة، أما سائر الدور فأعيد بناؤها كلها حديثاً بناء فخماً. وفي كتاب **الإستقصا** أن الأغنياء، منذ عهد محمد الرابع، لم يكونوا يصرفون أموالهم في آمتلاك منازل جديدة فحسب، بل أيضاً في شراء الخيول المطهمة والملابس الرفيعة، وخصوصاً في الرباط وفاس (ج 9، ص. 124). وكانت الحالة النموذجية هي حالة علي الكثيري، أول تاجر مغربي في غرب إفريقيا، والذي عاد إلى فاس في آخر المطاف بما يفوق 100,000 دولار، كان قد جمعها من تجارته (L. d'Anfreville, **op. cit.**, p. 155).

(54) G. Pallez, «Les marchands fassis», **Bulletin économique et social du Maroc**, no. 49, 1951, 194 ؛ وفي ذلك الوقت كان جميع رؤساء الغرف التجارية في المدن الكبيرة فاسيّين (**ibid.**). وقد آستقر أول فاسي في الدار البيضاء حوالي سنة 1830، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر انتقل إليها آخرون أيضاً، وبلغ عددهم حوالي عشرين عائلة سنة 1907 (André Adam, **Casablanca**, Paris, 1968, vol. I, p. 365). وفي أوائل القرن العشرين أصبح الفاسيون فيما يبدو مهيمنين على التجارة في مراكش أيضاً (Maurice de Férigny, **Au Maroc ; Marrakech et les ports du Sud**, Paris, 1918, pp. 107, 112). ومما يدل أيضاً على الهيمنة الفاسية أن عشرة تجار فاسيين من بين 12 تاجراً مغربياً شاركوا في المعرض الإستعماري الذي أقيم سنة 1923 في باريز (Paul Marty, «La société de Fez», **Renseignements coloniaux**, Aout 1925, p. 373).

وكان المغرب في الوقت نفسه يمر بتغير جوهري في علاقته السياسية بأوربا، وهو تغير كانت له مضاعفات محلية خطيرة. فهزيمة المغرب في حربه ضد إسبانيا سنة 1860، والتعويضات المرهقة التي أرغم على الموافقة على دفعها[55]، جعلت المخزن في حاجة إلى موظفين يتوفرون على الخبرة المطلوبة لتسيير شؤون البلاد المالية، التي تزداد تعقيدا، وخصوصا منها الضرائب الجمركية، وهو أمر ما كان ليوفره العنصر القبلي ولا عبيد السلطان، الذين كان المخزن يعتمد عليهم تقريبا حتى ذلك الحين، فاضطر السلطان إلى الإلتفات إلى أولئك الذين كانوا يستطيعون ذلك وحدهم، ألا وهم : التجار الحضريون والعلماء. وكان دور السلاويين في وظيفة الأمين المالية المجدَّدة، مثلا، قد وثقه كنيث براون في كتابه المهم عن مدينة سلا ؛ ولكن الفاسيين كان لهم تأثير أكبر على هذا المنصب الذي كانت حيويته أكثر ازديادا[56]، ما دام معظمهم تجارا أكثر منهم علماء (وذلك على خلاف السلاويين الذين كانوا علماء أكثر منهم تجارا). وعندما كان القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان الفاسيون الذين يحتلون أعلى المراتب الحكومية يزدادون عددا، وفي بداية القرن العشرين تم القضاء على الهيمنة القبلية القروية الساحقة في الحكومة، وحلت محلها هيمنة فاسية بدأت توفر عدداً من الموظفين السامين[57]. ولا أدل على ذلك من أن العضو المغربي الوحيد في مجلس إدارة **بنك المغرب** الجديد سنة 1907 كان فاسيا، وهو إدريس بن جلون (**Afrique Française**, février 1907, p. 106).

ومع ذلك، فمن الأصح تقريبا أن نعزو نفوذ التجار المتزايد في المجتمع إلى القيمة المتزايدة للدور الذي لعبوه في المجتمع، لا إلى ثروتهم المتزايدة. فالسلطان لما اكتشف أن جهازا مخزنيا متزايد التعقيد لا يمكنه العمل من دونهم، لم يسعه هو وبقية المجتمع الحضري على الأقل إلا أن يعترف بمساهمتهم الحيوية في رفاهية المغرب، المالية

(55) انظر : Germain Ayache, «Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860», **Revue Historique**, Octobre-Decembre 1958, pp. 271-310.

(56) وخلال عهد محمد الرابع، حسب ما جاء في قائمة (غير تامة) للأمناء، كان سبعة أمناء من عشرة فاسيين (**الإتحاف**، III، ص. 572). وحسب فهرس للأمناء الذين عينهم مولاي الحسن (يوجد في دراسة نعيمة التوزاني : **الأمناء في دولة مولاي الحسن**، الرباط، 1978، ص ص. 353-358)، كان نصف الأمناء تقريباً فاسيين، فضلا عن أن الآخرين أيضاً جاء معظمهم من المدن ــ تطوان، سلا، الرباط، مكناس.

(57) من ذلك مثلًا أن آخر ثلاثة من أصل ستة وزراء للخارجية قبل الحماية كانوا فاسيين (**العِزّ**، I، 323). كذلك يمكننا أن نجد عائلات أخرى، أمثال التازي أو المقري أو غرنيط أو الكَباص في أعلى المراتب الحكومية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

والإدارية. وبفضل هذا الِامتياز في القطاع الإداري تم تحقيق العديد من الِامتيازات الِاقتصادية والثروات، وليس العكس.

صحيح أن السلاطين كان بإمكانهم تسخير اليهود المحليين، كما كانوا قد فعلوا كثيرا في تعاملهم مع أوربا، سواء على الصعيد الِاقتصادي أم على الصعيد الدبلوماسي. وقد استمر عدد قليل من اليهود في العمل تُجّاراً للسلطان خلال فترة ما قبل الِاستعمار. إلا أن تأثيرهم كان أقل مما كان عليه في القرون السابقة. وبتزايد الحضور الأوربي في المغرب، آختار كثير من اليهود المغاربة الحماية الأجنبية أو التجنس (Miège, 2, 574-580). وهكذا، فإن التقليل من امتياز التحكم التام في أولئك الموظفين، والتدخل الأوربي المتزايد لصالح اليهود، كما هو شأن بعثة مونتيفيوري (Montefiore) سنة 1863 (Miège II, 564-569)، ربما أكدا ضرر استخدام اليهود على نطاق واسع. وبالفعل، فقد عوضوا بالمسلمين حتى في تلك الوظائف التي كانوا يتقلدونها سابقا[58]. ثم إن عدد التجار الفاسيين الذين قبلوا الحماية الأجنبية يبدو قليلا نسبيا، وذلك في البداية على الأقل[59].

ولا يستطيع المرء إلا أن يخمن أسباب تفوق الفاسيين على غيرهم من المغاربة في حلبة السياسة والِاقتصاد. طبعا إن مجرد التفوق العددي لجماعة التجار الفاسيين على غيرهم من المغاربة كان عاملا مساعدا. فالشبكة الفاسية الراسخة في شمال إفريقيا وأماكن أخرى قد مكنتهم كذلك من أن يكونوا أول تجار مغاربة (بالتقابل مع القراصنة أو الموظفين المخزنيين) كانت لهم اتصالات مستمرة مع الأوربيين خارج المغرب، سواء في أماكن أخرى من المغرب العربي أم في مصر أم في جبل طارق أم في مالطا، أم في أماكن أخرى من البحر الأبيض المتوسط على طريق الحج. وهكذا فإن

---

(58) لاحظ روا دا كامارا، وهو برتغالي زار المغرب في القرن التاسع عشر، أن المسلمين قد حلوا محل اليهود في تحصيل الرسوم الجمركية في الموانئ، مثلًا (**Viagers em Morrocos, Porto and Bragra**, 1897, p. 271). وبالفعل، فحتى سيدي محمد، الدي اشتهر بكونه من أكثر العلويين صرامة، آتخذ محصّلًا للرسوم الجمركية في تطوان من اليهود (**ابن ابراهيم**، *193*).

(59) في لائحة المحميِّين لسنة 1297هـ/1880م والتي يتضمَّنها كتاب **العزّ**، I، 310–321، أن ما يقلّ عن 10 في المئة من مجموع المحميِّين فاسيُّون، وأن هناك تقريباً ثلاثة أضعاف ذلك من اليهود. غير أن عدد الفاسيين ـ ومنهم عدة أفراد من العائلات التجارية المهمة ـ الذين طلبوا الحماية أو التجنس في أواخر عهد مولاي الحسن قد تضاعف بصورة ملحوظة، كما يبدو من مراسلات ووثائق **مكتب التسجيل العمومي**، بل إن أحد أفراد عائلة برادة مثلاً أصبح نائب قنصل إسبانيا في فاس.

التجربة والإتصالات قد منحت الفاسيين امتيازا واضحا في المشاريع التجارية. ثم إن تحفظ المغاربة من السفر إلى أوربا والمتاجرة فيها في فترة ما قبل الإستعمار، أو عجزهم عن ذلك، أمر ربما كان مبالغا فيه[60]، لأننا نرى السفر إلى هنالك لأهداف تجارية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أمرا عاديا، ولو أن عدد المسافرين ربما كان محدودا. فخلال عهد مولاي سليمان، مثلا، كان هناك ذكر لتجار مغاربة في جبل طارق وإسبانيا[61]؛ ولا شك في أن بعضهم، إن لم يكن معظمهم كانوا تجارا فاسيين؛ ولا أدل على ذلك من أن تاجرا فاسيا على الأقل إلى ليكَورن (Leghorn) كانت له باخرته الخاصة في أوائل القرن التاسع عشر[62]. وهناك فتوى، ربما تنسب إلى محمد بن أحمد بن الحاج (من أواخر القرن التاسع عشر)، تشير إشارة واضحة إلى امتياز تاجر مغربي كانت له تجربة جيدة في السفر، و«كان يعرف لغة أجنبية»، و«كان على آتصال بالحكام الروميين»، على آخر لا معرفة له بأوربا وممارساتها التجارية ووجد نفسه قاصرا عن التعامل مع الأول مع أنهما كلاهما في الخارج (المهدي الوزاني، **النوازل الصغرى**، 3، 532). وليس من المفاجئ أن يكون أحد الفاسيين هو الذي آختير لتمثيل المغرب في **معرض باريز** سنة 1867، وذلك لمعرفته باللغة الفرنسية وتجربته في فرنسا[63]. زد على ذلك أن تضامن الفاسيين، خصوصا عندما يكونون خارج مدينتهم الأصلية، كان يبدو قويا خاصة في المجال الإقتصادي، كما

(60) من ذلك مثلا ما قاله ڤالنسي (Valency, 18) عما قبل الحماية : «لا يوجد مسافر مسلم على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط... فالعالَمان يجهل أحدهما الآخر». ويبدو من رسالة بعث بها مولاي إسماعيل إلى ذلك البلد، أنه هو نفسه تصوَّر السفن المغربية تتاجر من ميناء العرائش وغيره من الموانئ نحو إنكَلترا في أواخر القرن السابع عشر (N. Cigar, «Mulay Ismail and The Glorious Revolution in England», **The Maghreb Review**, May-Aug. 1978, 11).

(61) Mordecai M. Noah, **Travels in England, France, Spain and the Barbary States in the Years 1813-14 and 1815** (New York, 1819), pp. 102-103. والواقع أن تاجراً مغربياً «كان يسافر كثيراً إلى بلاد النصارى قصد التجارة» هو الذي سيخبر مولاي سليمان بأن الأوربيين يكررون سُكّرهم بدم الخنزير، حاثّاً إياه على وقف الإستيراد (الوزاني، **النوازل الكبرى**، IX، 346).

(62) Ahmad b. Tuwayr al-Janna (d. ca 1850), **The Pilgrimage of Ahmed** (1830), ed. and tr. H.T. Norris (Warminster, England, 1977), p. 22.

(63) كان هذا هو محمد بن العربي القباج، المعروف بـ«الفرنساوي» (**الإستقصا**، IX، 121–122). وفي منتصف القرن التاسع عشر، قدَّر ملاحظ في الجزائر عدد المغاربة الذين كانوا يسافرون إلى أوربا كل سنة بما بين أربعمئة وخمسمئة رجل (Godard, 242).

لاحظ ذلك أندري آدم في الدار البيضاء[64]. هذا في حين كان التجار قد كونوا جبهة موحدة ضد قافلة تواتية وصلت سنة 1854، لما أشاع رئيس طائفة التجار في تمبكتو ـ وهو فاسي ـ أن السلع التي أحضرها من يرغبون في منافستهم، هي ملك للنصارى[65]. كما أن الأزمة السياسية المحيطة باختيار السلطان سنة 1908 توفر بعض التوضيحات عن دور شبكة الفاسيين خارج المدينة، فقد ألقى عبد العزيز القبض على قاضي طنجة والعرائش ـ وكلاهما فاسي على ما قيل لنا ـ خوفا من أن يؤيدا ما تختاره مدينتهما (Niddem, PT 2, 137)، بينما تلقى الفاسيون كذلك أخبارا من مواطنيهم في لندن عن نوايا فرنسا في هذا الشأن (**Ibid, PT 1, 44**). ويبدو إمكان تبادلِ المعلومات وممارسةِ النفوذ الكامن في هذه الشبكة، وأهميةِ التجارة، أمرا واضحا. ولا شك في أن هذا التضامن كان يعززه حسّ الإفتخار بكل ما هو فاسي مما تنضح به كتابات الفاسيين في كل العصور، وهو ما عابه عليهم منتقدوهم في بعض الأحيان. وحتى اليوم، وبالرغم من الإستقرار الدائم لكثير من البرجوازية الفاسية الأصلية خارج فاس، فإنه لا يزال بالإمكان ملاحظة حس التضامن والوعي بالذات، ولا يزال المغاربة يعتبرون الفاسيين جماعة متلاحمة متآخية، وهو اعتبار ذو انعكاسات على العلاقات المجتمعية والإقتصادية والسياسية[66]. وقد يضاف إلى ذلك أن العداء الذي أظهرته، في بعض الأحيان، أطراف أخرى من المجتمع المغربي، كان الفاسيون يتعاملون معها، قد ساعد على الحفاظ على تماسكهم الداخلي. ثم إن التصنيع المحلي واسعَ النطاق والذي يتمركز في فاس نفسها، قد أمد التجار الفاسيين بمنتوجات قابلة للتسويق، صنعت محليا، فمنحتهم آمتيازا ملحوظا على غيرهم من التجار.

وأخيرا، لعل الخصائص الشخصية غير الملموسة التي غالبا ما يسبها إليهم مواطنوهم، وأعني التفكير المستقل (**Fès, 448-450**) بل والإكثار من التركيز على المال (**التحفة، 281**) في بعض الأحيان، لعلها كانت مساعدة لهم في تحقيق النجاح.

(64) **Casablanca, I, 366**. وقد لاحظ موريس ده پيريني في السنوات الأولى من عهد الحماية، فعلاً، أن الفاسيين في مراكش كانوا يتزاوجون فيما بينهم ويسكنون مع أمينهم في حي خاص بهم، ويشكلون جماعة منعزلة عن بقية السكان (**Au Maroc ; Marrakech**, op. cit., 112).

(65) Barth, III, 349.

(66) انظر: **John Waterbury, North for the Trade ; The Life and Times of a Berber Merchants** (Berkeley, 1972) pp. 73-76.

IV– رأس المال والأسواق والإقتصاد

كانت فاس بالطبع محطة تجارية مهمة مع أوربا، بالرغم من أن ما كانت تصدره إلى هذه الأخيرة قليل جدا، إذ كانت أساسا سوقا للواردات الغربية. غير أنها كانت أكثر من ذلك مادامت تخدم أسواقا أخرى أيضا : باقي المغرب، والمشرق، وغرب إفريقيا. وهكذا لم يكتف التجار الفاسيون بسوق واحدة، بل استطاعوا أن ينوعوا استثماراتهم التجارية. ولعل الباحثين قد انتقصوا أحيانا من أهمية التجارة غير الأوربية لفاس، وللمغرب بصفة عامة (Valensi, 58). وهكذا احتفظت القوافل إلى السودان (والطريق البحري إلى غرب إفريقيا فيما بعد) بمستوى عال نسبيا من المبادلات خلال القرن التاسع عشر، ولو أنه يبدو أن هذه التجارة كانت أعلى قيمة في نهاية القرن الثامن عشر[67]. ومع ذلك، نعلم علم اليقين، ولو أننا لا نستطيع الحصول على أرقام مضبوطة، أنه حتى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان قد وسق إلى تمبكتو في القافلة السنوية الكبيرة زهاء نصف مليون دولار من السلع[68] وبمعدل ربح مقداره 825,000 دولار فوق قيمة السلع الأصلية، وبذلك تكون القيمة الإجمالية لما تبودل من السلع 1.8 مليون دولار. وإذا أضفنا القوافل الصغيرة، التي تعادل ثلث مقدار الكبيرة (**RCCM**, 1881, 1792)، وصلنا إلى مجموع 2,4 مليون دولار تقريبا يتاجر به في السنة (بالقياس إلى 7 ملايين دولار في متوسط المتاجرة السنوية مع أوربا في الفترة 1861–1871 (Leard, 538)[69]. فهناك، على ما يبدو، انخفاض ملحوظ في هذه الطريق، في نهاية القرن التاسع عشر بالذات، ولكن هذا غالبا ما يبدو ناجما عن تحول متزايد للتجارة الفاسية المباشرة مع غرب إفريقيا عن طريق البحر، وإهمال الطريق البري الشاق غير الآمن، وليس عن انخفاض في التجارة مع تلك المنطقة من إفريقيا في حد ذاتها. وبالفعل، فلعل حاصل التجارة مع إفريقيا السوداء قد ازداد بالقياس إلى ما كان (حاصل التجارة) في منتصف القرن التاسع

(67) لاحظ وليم لُمْبَرِيِّرْ (1782)، الذي زار المغرب في نهاية القرن الثامن عشر، أن التجارة التي يبلغ معدلها 11 مليون دولار في السنة قد تمت بين المغرب وتمبكتو، مع ثلثي الواردات من السودان الذاهبة في نهاية المطاف إلى الجزائر وتونس (ولم يفعل كَرابرك سوى أن ردَّد هذه الأرقام في عمله بعد حوالي أربعين سنة)، وذلك بالرغم من أننا لا نستطيع التأكّد من صحة المبالغ العددية الفعلية.

(68) Felix A. Mathews, **RCCM**, no. 7, May 1881 (Washington, 1881), 792.

(69) يذكر أرثر ليرد ما بين 170,000 دولار و200,000 دولار (Arthur Leared, «The Trade and Resoured of Morocco», **Journal of Society of Arts** (London), 27 April 1877, 537).

عشر، إذا أمكن أن نشير إلى حجم ثروات التجار الفاسيين المتخصصين في تلك التجارة[70]. ولا ندري كم دام نشاط هذه الطريق، ولو أن الإحتلال الفرنسي لبوذنيب سدَّد إليها ضربة قاسية سنة 1906، مكنت بوذنيب من الحلول في التجارة محل فاس، وتزويد منطقة تافيلالت بسلع رخيصة يحملها القطار عبر كول مبشار[71]. لقد كانت تافيلالت محطة طرقية مهمة على الطريق الصحراوي مع فاس، ولا شك في أن فقدان جزء من التجارة قد جعل المال المغامَرَ به فيها كله الآن أقل ربحا للفاسيين. وعلينا أن نضيف كذلك التجارة مع الجزائر والمشرق، التي لا يمكن توفير ولو أرقام تقريبية لها، ولكنها ربما كانت في الواقع أعظم من التجارة مع السودان. أما فاس، على الأقل، فربما كانت سوقها الجهوية لا تزال أكثر أهمية، كما افترض ذلك لوتورنو (Fès, 438)، الأمر الذي قد يفسر لماذا استطاعت المدينة أن تظل إلى حد ما على الأقل في منجى من آثار الركود الإقتصادي الذي عم العالم سنة 1929، حتى بعد أن احتوي المغرب في النظام الإستعماري[72]. وأخيرا، فإن السوق المغربية المحلية الأوسع كانت أيضا عظيمة الأهمية، بما أن أكبر عدد من البلاغي (إحدى مواد التصدير الرئيسية التي تصنع في فاس) كانت تسوق داخل المغرب لا خارجه (René-Leclerc, 244). ودليل آخر على أهمية هذه السوق المحلية تقدمه التجارة الصحراوية نفسها، لأن منتوجا وحيدا بالفعل، هو ريش النّعام، كان يوجه إلى السوق الأوربية عبر هذه الطريق (ويكاد يُقصر عليها)[73]، بينما كانت معظم المواد المجلوبة من الصحراء تباع داخل المغرب

(70) لاحظ بارث، على سبيل المثال، عندما زار تمبكتو في منتصف القرن التاسع عشر، أن ثروات التجار المغاربة المقيمين هناك كان معظمها دون 10,000 دولار (III, 367). وبالمقابل، فإن علي الكثيري، وهو أول تاجر مغربي ذهب إلى السينغال، عاد إلى فاس في بداية القرن العشرين ومعه ثروة تبلغ أكثر من نصف مليون فرنك (أكثر من 100,000 دولار) (L. d'Anfreville, **op. cit**, 155). وفي ذلك الوقت، كان أكثر التجار نشاطاً هناك، واسمه بوبكر كَسوس، وهو فاسي كمعظم التجار الآخرين المهمين، يحقق نحو 250,000 فرنك (أي 50,000 دولار تقريباً) من المشاريع التجارية في السنة (**المرجع نفسه**، 155–156).

(71) **Maurice de Périgny, Au Maroc ; Fès, la capitale du Nord** (Paris [1917 ?], p. 51.

(72) «لم تحتد معاناة تجارة فاس في خضم الأزمة الإقتصادية العالمية، من 1930 إلى 1934، بل احتدت من 1935 إلى 1939، عقب سنوات زراعية جدباء كادت تسحق القدرة الشرائية لأرياف الضواحي» (**Fès, 421**).

(73) لقد أصبحت هذه المادة منتشرة فعلا بين العلماء مؤشراً لتاريخ هذه الطريق. وبآختفائها من قائمة الصادرات المغربية في ثمانينيات القرن 19، بسبب منافسة مصادر أخرى لها أساساً، آفترض أن هذا أيضاً يدل على توقف مواز للتجارة الصحراوية. ومع ذلك، فمن الواضح أن هذا المنتوج مقياس غير كاف. =

نفسه. وهذا يؤكد قوة السوق المحلية، لأنه لم يكن يرجع بأي نقد (وكان يرجع بقليل جدا من الذهب) في مقابل السلع المغربية ؛ أما النقد، فقد كان يحصل عليه، بالأحرى، من بيع الواردات الصحراوية في السوق المحلية. وهذا لا يعني طبعا أن الفاسيين كانوا مهيمنين في كل هذه الأسواق، ولكن المهم أن بديل أوربا هذا كان موجودا وأن قوة السوقين المحلية والجهوية قد منحت فاس خصوصا درجة معينة من الإستقلال الإقتصادي.

ولابد من الإشارة هنا على الأقل إلى أهمية التجارة الأوربية نسبيا للإقتصاد المغربي وآثار هذه التجارة على استقلال البلاد. فبالرغم من أن التجارة الأوربية كانت مهمة طبعاً للمخزن ولبعض التجار الأفراد، فلعله لا ينبغي للمرء أن يتسرع في اعتبار المغرب بطريقة آلية تابعا للإقتصاد الأوربي أو العالمي ومتوقفا عليه. ولو أمكن المرء، بطريقة من الطرق، أن يحصي الدخل القومي للمغرب خلال فترة ما قبل

= فهو، أولًا وقبل كل شيء، منتوج معرَّض كثيراً لنزوات الموضة. وأهم من ذلك، فإنه بالرغم من أنه مادة مهمة في التجارة بالتأكيد، فإن قيمته لم تشكل إلّا نسبة مئوية ضئيلة في مجموع التجارة الصحراوية، حتى في أوفر السنوات حظّاً (انظر جدول أ).

جدول أ

السنة	قيمة ريش النعام المصدر من موكَادور بالدولار*		بالنسب المئوية
1875	122,650 دولار	قيمة المعدل السنوي من الواردات الصحراوية على المغرب هي 1,77 مليون دولار	6,9
1876	73,144		4,1
1878	86,970		4,9
1880	73,590		4,2
1881	76,489		4,3
المعدّل	86,479		4,9

* المصدر: RFC.

+ محسوب من الأرقام المتضمّنة في المصادر المذكورة في الهامشين 68 و69. ولو قلنا بأن مجموع الصادرات هو أكثر بثلثين مما صرح به لموظفي الجمارك (انظر : Felix A. Mathews, «Northwest Africa and Timbuctoo», **Journal of The American Geographical Society of New York**, XIII, 1881, 196-219, 208)، مضافاً إلى ذلك المبيعات إلى وجدة والساحل الإسباني، لما تعدى المجموع حوالي 10% في الغالب. وكانت أغلب السلع المصدَّرة عبر موكَادور، في الواقع، من منتوجات الحوز وسوس.

الحماية، لوجد ـ على ما أظن ـ أن كمية التجارة الأوربية لم تكن تشكل إلا نسبة مئوية قليلة جدا من المجموع. ولا يمكن القيام بهذا طبعا، ولكن هناك مؤشرات في المتناول تشير إلى ذلك الإستنتاج. أحدها أن حجم التجارة مع أوربا يمكن المبالغة فيه بسهولة، لأن معدله لم يبلغ ـ مع ذلك ـ إلا حوالي 7 ملايين دولار في السنة في فترة 1861 ـ 1871، أي بعد الإنفتاح على أوربا ؛ وحتى في القرن العشرين لم يكن يتجاوز حوالي 20 مليون دولار في السنة. وكانت تجارة المغرب الفردية مع أوربا والولايات المتحدة أقل فعلا من تجارة بلدان الشرق الأوسط الأخرى معها(74). وعلاوة على ذلك، لم تكن أي من المواد التي كان يصدرها المغرب مصنوعة حصرا، ولا حتى أساسا، للسوق الأوربية. ولعل الإستهلاك المحلي لمواد كالحبوب والزيت والماشية، إلخ.، كان أكبر عدة مرات من الكميات والمقادير المصدرة. ومن نافلة القول أيضا إنّ السعر الدولي للبضائع لم يكن العامل الوحيد، أو حتى الرئيسي، المحدد لأثمنة

(74) جدول ب 1. التجارة المغربية مع الغرب

الفترة	دولار/الشخص/السنة	مليون دولار/السنة	المصدر
1855–1845	0.28	1.40	Leard
1871–1861	1.41	7.00	Leard
1875–1872	2.53	12.63	AAC
1879–1878	1.75	8.73	AAC
1910–1906	4.47	22.36	NIYB

بناء على تقدير تقليدي هو خمسة ملايين، وهو ثابت متأرجح لسكان المغرب قبل الإستعمار.

الجدول ب 2. تجارة تونس مع الغرب

الفترة	دولار/شخص/سنة	مليون دولار/سنة
*1885–1884 (أوائل الحماية)	6.29	9.44
**1910–1908	21.52	43.03

المصادر :

* : «Tunis», **Encyclopaedia Britannica**, 9th edn (Philadelphia, 1888), Vol. XXIII, p. 660.

** : NIYB.

بناء على تقدير السكان الذي هو 1.5 مليون قبل الحماية، ومليونان (2) في أوائل القرن العشرين. =

المنتوجات المحلية في المغرب. إذ أنّ وضع السوق الداخلية الأوسع، التي تتأثر بحجم المحصول أو الوضعية السياسية المحلية، كان في الغالب أكثر أهمية في تحديد ثمن المواد الغذائية مثلا.

وغالبا ما كان احتياج الصناعة التقليدية المحلية الشديد لبعض المواد الأولية يمنع تصديرها منعا قاطعا فعلا، وذلك بالرغم من حاجة أوربا الملحة إليها. من ذلك مثلا مثلا ما ذكره جان دراموند هاي، الذي كان نائبا قنصليا لبريطانيا في الرباط عام 1868، من أن المغرب أبقى في هذه السنة على كميات كبرى من الصوف ولم يصدرها، نظرا للزيادة في إنتاج سلعه الصوفية، وهذا بالرغم من رفع الحظر في الداخل عن شراء الصوف من أجل التصدير (**التقرير التجاري لسنة 1864**، لندن، 264). وقد عرفت الجلود وضعية مشابهة، لما انخفض تصديرها انخفاضاً حادا في النصف الثاني من القرن 19 ؛ وكما لاحظ قنصل بريطانيا في طنجة : «إنها [أي الجلود] كانت مطلوبة جدا [في أوربا]، ومع ذلك لم تصدر منها إلا كمية قليلة، نظرا لتزايد طلب أصحاب معامل البلاغي وارتفاع ثمنها الناجم عن ذلك» (RFC for 1872; London 1873, 503; also see CR for 1870; London 1871, 910; RFC for

=

الجدول ب 3. تجارة مصر مع الغرب

الفترة	دولار/شخص/سنة	مليون دولار/سنة
*1861–1860 (قبل ازدهار القطن)	5.90	29.5
**1881–1874 (قبل الاحتلال البريطاني)	14.07	91.44
***1900	11.90	119.0
***1910	18.11	208.2

المصادر :

* : AAC.

** : RCCM.

*** : NIYB.

بناء على تقديرات عدد السكان التي هي على التوالي : 5، 6.5، 10 ملايين و11.5 مليوناً. وتشمل هذه الأرقام الإسكندرية وحدها، أما الموانئ المصرية الصغيرة فلا ؛ ويتضمن المجموع الخاص بفرنسا المجموع الخاص بالجزائر.

(1871; London, 1872, 477; RFC for 1882; London, 1883, 1461). والواقع أنه حتى عندما ركدت حاجة أوربا إلى الجلود سنة 1874، فقد كانت الحاجة المغربية كافية للإبقاء على الأثمنة المحلية مرتفعة (CR for 1974; London, 1876, 168). وكما ذكرنا، فقد اعتمد كثير من التجار الفاسيين على التجارة الأوربية في بعض معيشتهم أو جُلّها. ومع ذلك، فإن تحكم التجار الفاسيين في شراء قسط كبير من المنتوجات المحلية وتزويد الصناعة المحلية ببعض هذه المنتوجات (الصوف والجلود والحرير) التي لا تزال مواد خاما، ليشتروا منتوجاتها الجاهزة بعد ذلك، هذا التحكم وهذا التزويد ربما لم يكونا ناجمين عن التأثير الأوربي في اقتصاد المغرب بقدر ما كانا ناجمين عن أن البرجوازية الفاسية كانت نشيطة. إن الإبقاء على الجلود من أجل الإستعمال المحلي، بالرغم من إمكانات التصدير، يبدو أمرا واقعا، وذلك لأن الفاسيين كانوا يتحكمون

الجدول ب 4. التجارة العثمانية مع الغرب

الفترة	دولار/شخص/سنة	مليون دولار/سنة
1783	0.65	19.6 (المملكة المتحدة وفرنسا وحدها)*
1845	1.70	54.4 (المملكة المتحدة وفرنسا وحدها)*
1876	6.12	216**
1899	8.04	152.7***
1911–1908	10.62	223.1***

المصادر :

* : Charles Issawi (ed), **The Economic History of The Middle East, 1800-1914** (Chicago and London, 1966), p. 30 ;

لقد آفترض عيساوي أن عدد السكان ثلاثون مليوناً سنة 1800 (17). وآفترضتُ أنا 32 مليوناً (؟) لسنة 1845.

** : قدّم عيساوي (Issawi, 30) رقماً إجمالياً، طرحت منه 10%، الذي هو معدل التجارة مع الجارتين غير الغربيتين (مصر وبلاد فارس). بلغ عدد السكان 35.3 مليوناً قبل 1878 (**Encyclopædia Britannica**, 9th edn, Vol. XXIII).

*** : NIYB ؛ 19 مليوناً من السكان عام 1899؛ و21 مليوناً عام 1908–1911 (S.J. Shaw and E.K. Shaw, **History of The Ottoman Empire and Modern Turkey** (Cambridge, (1977), Vol. II, pp. 240-241).

في شراء الجلود المدبوغة وغير المدبوغة على حد سواء من تافيلالت وفي شراء الجلود الخام من مصادر أخرى ثم يبيعونها للدباغين في فاس، ويشترونها ثانية جلودا جاهزة يبيعونها للصناع التقليديين الفاسيين، الذين يشترون منهم في نهاية المطاف البلاغي، إلخ.، التي صنعوها. وهكذا كان من مصلحة التجار الفاسيين المحافظة على التحكم في المواد الخام، التي كان نشاطهم وأرباحهم في مرحلتي المعالجة والتصنيع تتوقف عليها، كما كان من مصلحتهم إقصاء الأوربيين. ثم إنه لابد من التمييز بين ساحل البلاد وداخلها عند الحديث عن التأثير الاقتصادي الأوربي، وذلك لأن التجار المغاربة – على العموم – كانوا قادرين على حصر المصالح التجارية الأوربية في الساحل بنجاح. فكان الاستثمار الأوربي في فاس، مثلا، محدودا ؛ وحتى في نهاية سنة 1907، كان نائب القنصل البريطاني في فاس يقدر أنه كان هناك أقل من 100 أوربي في الداخل، وأن موجوداتهم الكلية كانت 50,000 جنيه (223,000 دولار) على أكبر تقدير (F.O. 174-268). وكان هناك عنصر محلي آخر مؤثر في السوق والتجار، على المرء أن يذكره على الأقل، هو عنصر السياسة السلطانية التي كانت تفرض الضرائب على التصدير وتراقبه، فتشجع الاستهلاك المحلي لمنتوجات مغربية كالماشية والحبوب والصوف، إلخ.[75].

وعلى الجملة، فبالرغم من أن الروابط التجارية للتجار المغاربة مع أوربا كانت بالتأكيد وسيلة ممكنة للضغط الأوربي على المغرب، فإنه يمكن المرءَ أن يبالغ في مداها بسهولة؛ وفي النهاية، ربما كانت الاعتبارات السياسية والإستراتيجية مهمة في تحديد فرض الحماية الفرنسية – الإسبانية أكثر من كون هذا الفرض مجرد نتيجة صورية للغزو الاقتصادي الكامل سلفا.

وكما سبقت الإشارة، فإن طبيعة السلع التي كان الفاسيون يتاجرون فيها كانت لها بعض الأهمية في التأثير في الاقتصاد وتستحق مزيدا من الاهتمام. فبينما كانت إعادة

(75) غير أنه ليس من الواضح إن كانت تلك السياسة تعمل بالضرورة دائما على تخفيض الأسعار. فجيمس كَري – جاكسن يلاحظ، مثلًا، أن حظر سيدي محمد تصدير الطعام في أواخر القرن الثامن عشر قد سبب فعلًا في ارتفاع الأسعار، بما أن كثيراً من المغاربة فضلوا تخزين حبوبهم وانتظار رفع الحظر لبيعها بالعملة الأجنبية، محدثين بذلك نقصاً محلّياً (**An Account of the Empire of Morocco**, 2nd edn (London, 1811), pp. 162-163)). ولعلّه قد نُظر إلى حظر المولى سليمان على أنه أطول مدة، مما جعل الكثيرين يزرعون القليل، ما دامت ليست هناك سوق أجنبية، فأنتج القليل وآرتفعت الأسعار المحلّية (ibid. **An Account of Timbuctoo and Housa** (London, 1820), p. 211).

بيع المواد الإستهلاكية المستوردة (من سكر وشاي وقطن وملابس وشموع وخردوات، إلخ.) أمراً مهمّاً، كانت المواد المصنوعة في فاس ـ ولا سيما البلاغي والنسيج (الصوف والحرير) ـ أساسية للتجارة الفاسية، محليا ومع سائر إفريقيا. وبما أننا سنقدم تفاصيل كبرى عن هذه الصناعة في مقال سننشره قريبا عن الصناعة التقليدية في فترة ما قبل الإستعمار، فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى حجم الإنتاج الذي يتحقق فيها. ففي سنة 1867، مثلا، صدر حوالي 330,000 زوجا من البلاغي (وهو احتكار فاسي فعلا) ؛ وإذا أضفنا السوق المغربية، التي كانت تستوعب ما يعادل استهلاك البلاغي المصدرة أو تتعداه، وصلنا ربما إلى 700,000 زوج ؛ ومع السوق الفاسية المحلية والبلاط (ما دام تجار الجملة لا يتاجرون في البلاغي المبيعة محليا) يمكن إضافة ما بين 50,000 و100,000 زوج أخرى، لنصل إلى رقم تقديري متحفظ من نصف مليون زوج على الأقل. ولم يكن هناك في الواقع أي هبوط في قيمة صادرات البلاغي من فاس (210,000 دولار عام 1867؛ 375,000 دولار عام 906 ؛ MTCR, Nov. 1907, 60 ; Leard, 534) خلال القرن 19، والتي كان يباع حوالي النصف منها في مصر، ويوزع الباقي بالتساوي بين الجزائر وغرب إفريقيا. وكان الحاكة الفاسيون ينتجون أيضا كميات مهمة من النسيج للتصدير والإستعمال المحلي، هي في الأغلب صوف وحرير، وبعض القطن (Fès, 431)، وقد استُخْدِمَ في أوائل القرن 20 حوالي 1,800ـ2,000 عاملا على ما يبدو في الحياكة والصناعات التقليدية الإضافية في فاس (Fès, 349). غير أن تحكم التجار في هذه الصناعات كان يكمن أساسا في التحكم في المواد الأولية وفي شراء المنتوج الجاهز بالجملة؛ أما المنتوج، قيد التصنيع، فعادة ما تتحكم فيه ورشة صغيرة.

وهكذا نجد الفاسيين يستثمرون المال مع وكلاء لشراء الحرير الخام في الريف خلال القرن 19 (المهدي الوزاني، **النوازل الكبرى**، 8، 24)، أو لإسْتيراد الخيوط القطنية، أو لاقتناء كميات ضخمة من الصوف بالنسيئة[76]، ولشراء كميات كبيرة من الجلد بواسطة تجار الجملة (Miège, II, 239) قصد بيعها للصناع التقليديين. ثم يبيع التجار المنتوج الجاهز بواسطة دلال في المزاد العلني، وذلك بحصص تبلغ 2000 زوجا من البلاغي في اليوم مثلا (René-Leclerc, 344). أضف إلى ذلك أن أساس التصنيع هذا كان في وضعية أكثر ملاءمة من صناعة الشاشيات التونسية

(76) تذكر فتوى في **النوازل الصغرى** (ج III، 283) أن هذا الشراء قد تمّ بألف ريال (حوالي 1000 دولار).

مثلا. فبينما كانت هذه الصناعة تعتمد على المواد الخام المستوردة، التي يتحكم فيها التجار الفرنسيون أو اليهود، والتي كان عليها أن تتنافس مع المنتوجات الأجنبية على الأسواق (Valensi, 1969, 389-390)، فإن مواد الصناعة الفاسية الخام (ماعدا الغزل القطني) والحرير الخام (من أواخر القرن 19 فما بعد، عقب وباء ظاهر أباد دود القز في المغرب) كانت كلها ذات أصل محلي. وكان التسويق أيضا في أيدي الفاسيين، بفضل شبكتهم الواسعة العاملة في الخارج. زد على ذلك أن تلك المواد الخام نفسها التي كان ينبغي استيرادها من أوربا، كان التجار الفاسيون في الخارج يتحكمون فيها، كما يتحكمون في واردات الملابس القطنية وكان موقع فاس يحمي أيضا صناعاتها إلى حد ما بتوفير نوع من التعرفة الداخلية نظرا لغلاء النقل من الساحل بالوسائل التقليدية، ونظرا لما يلاقيه التجار الأوربيون من صعوبات كبيرة للإقامة في فاس ما قبل الإستعمار، في حين أن انعزال المدينة النسبي وقاها ـ إلى حد ما ـ من التأثر التام بمؤثرات أوربا، كالغلاء، الذي أحست به الموانئ المفتوحة[77]. ويمكن المرءَ أن يقابل بين صناعة النسيج القابلة للنمو في فاس وتلك التي في سلا، مثلا، والتي انهارت بسرعة بعد انفتاح المغرب على أوربا (Brown, 120-121). وأخيرا، فإن الزي المحلي كان يشجع المنتوجات الفاسية، ولم يكن هناك مجال للمنافسة الأوربية على الأقل فيما يخص لباس القدمين، وكانت سوقٌ قويةٌ مضمونةً ما دامت الأذواق والأثمنة النسبية لم تتغير[78]. وهكذا لم تكن الطبيعة الصناعية لفاس توفر مستهلكا حقيقيا وسوقا للمواد الخام فحسب، بل كانت تغذي التجارة الأجنبية والمحلية الفاسية إلى حد بعيد.

وكانت مبالغ الرأسمال التي راكمها التجار الفاسيون من كل مظاهر أنشطتهم مبالغ طائلة خصوصا من وجهة نظر الإقتصاد المغربي. ولا شك في أن التاجر الفاسي علي الكثيري، الذي عاد إلى مدينته الأصلية بثروة تزيد على 100,000 دولار بعد عشرين سنة في غرب إفريقيا مثلا، لا شك في أنه كان غنيا في السياق الفاسي إذا تذكر المرء أن المهر الذي يؤدى نقدا كان في أوائل القرن العشرين حوالي 100ـ

(77) وهكذا ظلّ كراء الدور في فاس أوائل القرن العشرين أقل من ربع أو خمس كرائها في طنجة، وكان الطعام في فاس رخيصاً نسبيّاً (Budget Meakin, The Land of The Moors (London, 1901), p. 255).

(78) ظلت الأذواق المحلية حتى قبيل عهد الحماية لا تستسيغ كل السلع الغربية المصنعة، والعكس صحيح، وهو ما أشار إليه تقرير قنصلية الولايات المتحدة لعام 1907، الذي يثبط أي محاولة لاستيراد الأحذية الأمريكية («قد لا تكون لها هنا فائدة») نظراً لجسوئها وسواد لونها وكعوبها (MCTR, n°319, April 1907, 81).

300 مثقال (أي حوالي 7–21 دولارا) (المهدي الوزاني، **النوازل الصغرى**، 2، 42) أو أن متوسط أجرة الدباغين اليومية كانت ما بين 30 و50 سنتا (René-Leclerc, 343)، وأجرة العمال الزراعيين 10 سنتات (دون الطعام) (MCTR, N°319, April 1907, 82)، وثمن عبد صغير حوالي 5,80 دولارات، وثمن أمة صغيرة 11,60 دولارا[79]، وثمن محراث 50 سنتا (MCTR, **ibid**, 82). فلابد من أن يكون مجموع رأسمال كل التجار الفاسيين، بمن فيهم أولئك الذين يقيمون في أماكن أخرى، ضخماً عندما ينظر إليه في هذا السياق.

قد يكون النموذج الذي كان استثمار هذا الرأسمال السائل يتخذه، مهما طبعا في نظر المجتمع المحلي. وبالرغم من أن قسطا من الرأسمال الجديد كان يستعمل لأجل الإستهلاك البين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد يبدو من التاريخ اللاحق للأسر التاجرة أن قسطا مهما منه قد أعيد استثماره، وذلك في التجارة في الأغلب، وليس في الزراعة أو الصناعة.

ولا مراء في أن قسطا من الرأسمال الفاسي كان يستثمر في الزراعة – كما كان التجار يفعلون تقليديا – إما في الأرض[80] وإما في الماشية[81]. ويبدو هذا النمط من الإستثمار موضع تقدير، نظرا لأن الحكومة لا تتعرض له بالمصادرة (محمد التاودي بن سودة (ت 1209/1795) فتوى منقولة عن **النوازل الكبرى** للمهدي الوزاني، 8، 372). وليست الملكية الخاصة للأرض ظاهرة جديدة في المغرب عموما، وفي منطقة فاس خصوصا. وإذا وضعنا جانبا القضايا النظرية لامتلاك السلطان المطلق لجميع الأراضي، فهناك نزاعات ووثائق شرعية تخص شراء الأراضي، والشركات والكراء لتوطيد

---

(79) De Amicis, 118.

(80) وقد اعتبر هذا على ما يبدو طريقة «نبيلة» يقضي بها المرء بقية عمره، بعد حياة مليئة بالأسفار والمعاملات التجارية. ومن ذلك مثلا أن شريفاً توفي عام 1203/1789، كان تاجراً في مصر لعدة سنوات وبعد أوبته إلى فاس، قضى بقية أيامه في الإهتمام بالدراسة وبزراعة بساتينه التي اشتراها حديثاً في المناطق القريبة (**سلوة الأنفاس**، II، 278).

(81) قد يكون الإستثمار إما بآستئجار مباشر لراعي بقر من طرف المديني ليرعى له قطيعه (المهدي الوزاني العمراني (1266/1859–1342/1923)، **تحفة أكيس الناس بشرح عمليات فاس**، مخطوط D 2467, AR, 139) وإما عبر وسيط، كما فعلت امرأتان في أواخر القرن التاسع عشر، عندما أعطتا أحدهم حليهما حتى يبيعها ويجمع الربح مع بعض القرض لشراء غنم لهما (الوزاني، **النوازل الصغرى**، III، 256).

الملكية الخاصة بصفتها شكل التحكم السائد خلال «العهد العلوي» كله. وأراضي الأحباس العمومية المحبسة على المساجد والمدارس والتكايا ومؤسسات عمومية أخرى، لم تكن جديرة بالإهمال على الإطلاق، ولكن عادة ما كان الأفراد الذاتيون يستغلونها هي أيضا، بل وجدت نساء يستأجرن هذه الأراضي باسمهن في أوائل القرن 18 (**الأحباس**، رقم 158، 336، 337، 339، إلخ). ويبدو أن الأراضي السلطانية الجماعية في شمال المغرب (مصمودة) كانت تقسم إلى أملاك خاصة وتباع للملاك القبليين في أواسط القرن 17 سلفاً، حسب نازلة من أواخر ذلك القرن[82]. ومع ذلك تبدو معظم الأراضي التي كان الفاسيون يملكونها (أراض زراعية، كروم، بساتين، حدائق) واقعة إما داخل أسوار المدينة وإما على مسافة قصيرة من المدينة. ويمكن القول إن القرن 19 لا يبدو قرن الإعلان عن فترة توسع لافت للنظر في تحكم الفاسيين المباشر في البادية المحيطة بالمدينة، وإذا كان هناك ما يمكن الإشارة إليه فهو أن أكبر التغيرات في نقل الملكية، وإن كانت لا تزال في محيط المدينة المباشر، تبدو وقد حدثت في أوائل القرن 18، مع توسع التجار البلديين، الذين سمح لهم مؤخرا بالعودة إلى أسواق المدينة[83].

وقد ظلت كثير من الأراضي، إن لم يكن معظمها، تزرع في فاس وحولها على أساس رأسمالي، إما بالعمل المؤجر وإما بالمحاصة، وكانت القوة العاملة في هذه الأراضي توفرها سوق عمل متطورة جدا، تشمل مناطق عديدة من المغرب في القرن 17. وهكذا كان محاصص من صفرو (ت. 1050/1640–1641) (**سلوة الأنفاس**، 2، 175) وأسود من منطقة درعة (ت. 1101/1689–1690) (**سلوة الأنفاس**، 2، 235)، وصحراوي من توات (ت. 1206/1791–1792) (**سلوة الأنفاس**، 3، 304) وريفيون وجبليون في أوائل القرن 20 (Aubin, 148)، كانوا كلهم يشتغلون فلاّحين في الزراعة الفاسية في وقت أو آخر ؛ ويُخلّف أحد مصادر القرن

(82) توصل محمد بن الحسن المجّاصي (ت 1103/1691) (**أجوبة**، مخطوط، RPLR، 3310، ورقة 24) بطلب للإفتاء في بعض الأراضي الملكية يلاحظ أن «الأراضي التي هي الآن في أيدي الأعراب الذين يسكنون الخيام، المجاورة لمناطقنا المصمودية، لم تكن تباع ولا تشترى فيما مضى... وكان السلاطين [فيما مضى] يعطونها مَنْ يريدون ويأخذونها ممن يريدون».

(83) من ذلك مثلا أن مولاي إسماعيل يتهم اللمطيّين في رسالة إلى أندلسيي فاس ولمطيّيها، مؤرخة بتاريخ 1130/1718، بأنهم باعوا حدائقهم للبلديين (117) N. Cigar, «Une Lettre inédite de Mulay Isma'il aux Gens de Fès», **Hespéris-Tamuda**, 1974, 105-118).

17 انطباعا بأن هذا العمل لم يكن يستخدم فيه سوى غرباء، فقراء يحتقرهم الفاسيون[84]. وكان جانب من هذه القوة العاملة يشتغلون ربَّاعين أو خماسين، إلخ. ولكن آخرين كانوا يشتغلون مياومين، كذلك الدرعي الذي ينتمي إلى القرن 17 والذي سبقت الإشارة إليه، والذي كان يمكن العثور عليه في موقف الأجراء، وهو نسخة فاسية من تبادل العمل اليومي. وعلى كل حال، فإن كلتا الفئتين تتلقيان أجرة نقدية. وكان العبيد يشتغلون أيضا في هذا القطاع، كما كشف عن ذلك طلب نازلة من عبد القادر الفاسي (1599–1680) في نزاع بين عدة ورثة على ملكية أمَةٍ، كان مالكوها يؤجرونها في أنماط شتى من العمل الزراعي، وهو عمل كان يقوم به عبيد المزارعين عادة[85]، كما قيل لنا. وتبدو معظم الأملاك التي في حوزة الفاسيين في منطقة لمطة شمال المدينة، وفي أماكن أخرى، تبدو غير بعيدة كثيرا عن أسوار المدينة[86]. ومع ذلك، ففي القرن 18 على الأقل، كانت قطع أرضية شاسعة من 40 إلى 50 زوجا أو فدانا، يملكها أهل البادية، جاهزة للبيع بثمن بخس جدا، وهو بالفعل ثمن يعادل ثمن كرائها سنة واحدة على ما يبدو (بردلة نقلاً عن المهدي الوزاني، **النوازل الصغرى**، IV ,398)، مما يدل على ضعف الطلب. ولعل أحد أهم العوامل التي تحد من توسع الاستثمار الفاسي بعيدا جدا عن المدينة كان هو انعدام الأمن في الريف، حيث كان يمكن القبائل المسلحة أن تقاوم بالفعل ليس الملاك الغرباء الأفراد فحسب، بل المخزن نفسه. وبالفعل، فخلال فترات انعدام الأمن، كان يمكن منع الفاسيين من أن يبلغوا حتى عرصاتهم الموجودة في أحواز المدينة (**نشر المثاني**، 51). ويبدو أن الزعماء القبليين، من جهة أخرى، كانوا يملكون بالفعل ممتلكات قروية شاسعة تشكل أساس ثروتهم. وهكذا حبَّس فرد غني من قبيلة الحياينة المجاورة 18 قطعة أرض على أسرته عام 1826/1241 (**الأحباس**، رقم 162، 496)، بينما استثمرت عائلة الجامعي القبلية المشهورة، التي تحتفظ ببيت فخم في

(84) عبد السلام بن الطيب القادري (1648/1058–1698/1110)، **المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد** (طبعة حجرية، فاس، 1932/1351)، وقد ضاع رقم الصفحة الصحيح : «لأنه لا يتولى خدمة الأجنَّة بالفؤوس في هذه البلاد إلّا الغرباء الضعفاء يأتون من بلادهم بقصد ذلك».

(85) **الأجوبة الكبرى**، المرجع نفسه، ص. 57.

(86) البساتين والحقول التي يملكها الفاسيون مذكورة في مناطق مثل أرورات والحبالات والمدرسة والزريقة ولمطة (**تقاييد ابن إبراهيم**، 172) والمزج (**حوليات نشر المثاني**، 51) ووطاة بن مسفر (**نشر المثاني**، 208) ووادي مريز (**المقصد الأحمد**...، المرجع نفسه، 200)، وهي كلها مناطق مجاورة للمدينة.

فاس، كثيراً من رأسمالها في الأرض[87]، ولا يبدو السلاطين أنفسهم مهتمين باستغلال ممتلكات شاسعة مباشرة، أو ربما لم يكونوا قادرين على ذلك. فقد أصدر مولاي إسماعيل، مثلا، في أوائل 1674/1085، تعليمات لقاضي فاس بأن يبيع الأراضي التي دخلت في ملك الدولة من أولئك الذين ماتوا وليس لهم أهل، ولعل معظمهم كانوا من الذين أعدموا مؤخرا بعد الثورة الفاشلة عليه في فاس (**الأحباس**، رقم 158، نسخة من الوثيقة، 340). ولا شك في أن جامع القرويين كان يملك بعض الممتلكات الشاسعة، كمساحة تقدر بأربعين زوجا في جبل تغات (7 كلم من فاس) (**الأحباس**، رقم 114، 67)، ولكن حتى أراضي الأحباس التي كانت تبعد عن المدينة بعض البعد كانت تؤجر عادة لأفراد من القبائل من تلك المنطقة وليس للفاسيين. وعلاوة على ذلك، كان دخل جامع القرويين من الأراضي الزراعية أقل من دخله الحضري ــ فهو حوالي 4.6 في المئة فقط من المجموع عام 1914 (**Fès,** 261). وكانت هناك أسر في فاس اعتمدت على الزراعة فقط في دخلها، بلغ عددها حوالي 100 أسرة في الأيام الأولى من الحماية[88]. وبالرغم من أن هذه قد شملت بعض الأسر «المحترمة»، فمن المشكوك فيه أن يَكون بينها كثير من الأغنياء، ولو أن الزوايا، التي عادة ما كانت تتحكم فيها عائلة واحدة خلال عدة أجيال، غالبا ما كانت تحصل على قسط وافر من ثروتها من امتلاك الأراضي أيضا. ومع ذلك، فبما أن الإنتاج قد يمكن أن يسوق إلى فاس في مقابل النقد والسلع المتاحة فيها على أي حال، لم يكن هناك على العموم أي امتياز ملموس في أن يخاطر المستثمر الفاسي مخاطرة إضافية بمحاولة التحكم المباشر في الأراضي البعيدة حتى لو كان ذلك ممكنا. وكان يمكن أسعار السلع المصنعة والمستوردات الأخرى، التي هي أكثر ارتفاعا، أن تخدم الهدف جيدا أيضا، وذلك على الأقل خارج أوقات المجاعة الطويلة، عندما كان يبحث عن الحبوب بعيدا، حتى في المغرب الشرقي أو طرابلس أو أوربا. وإلا فإن المنطقة المحيطة كان يمكنها أن توفر ما يكفي من الحبوب. وقد درج تجار الحبوب الفاسيون حتى عندما يكون لهم احتكار في المدينة، على أن ينتظروا أن يأتي أهل

(87) لقد خلّفت إحدى نساء الجامعي، التي صارت أيضاً زوجة للسلطان، خلّفت في الواقع ممتلكات بلغت قيمتها أكثر من 6.2 ملايين بسيطة (أكثر من مليون دولار) عندما توفيت عام 1309/1891ـ 1892، وإن كان هذا المجموع يتضمن العبيد والأثاث، إلخ.، فضلًا عن الأراضي (وصية ضمن كتاب **العز**، I، 104).

(88) Paul Marty, op.cit., 370.

البادية بالغلال فيشترونها منهم، بدلا من أن يخاطروا بالذهاب إلى البادية بأنفسهم (خصوصا إبان المجاعة وانعدام الأمن). وبالفعل، فإن الحكومة، الواعية بتأثير فاس الإقتصادي على السكان القرويين، كانت ترى في المكس الذي يفرض في بوابات المدينة على المنتوجات الداخلة إليها، طريقة غير مباشرة لفرض الضرائب حتى على قبائل السيبة التي قد لا تخضع للضريبة في أرضها (René-Leclerc, 304).

وكان يمكن التحكم في الحبوب الواردة على المدينة أن يكون، طبعا، مصدرا لكل من الثراء والتأثير داخل المدينة. فإذا كان أحد المغامرين في الأصل مجرد بائع منتوجات لبنية ونجح خلال فترة سابقة، هي القرن 18، في التحكم في هذه التجارة داخل جزء من المدينة بفضل دعم أقاربه وأتباع مسلحين آخرين (**نشر المثاني**، 2، ورقة 141)، فإن هذا الإحتكار كان في القرن 19 في أيدي التجار، الذين غالبا ما كانوا في الوقت نفسه موظفين حكوميين. وهكذا، ففي أواخر القرن 19، كان سوق المدينة الخاصة بالحبوب أو رحبة الزرع في أيدي اتحاد مالي مؤلف من الأمين بنجلون وستة تجار، كانوا جميعا في قائمة رونيه ـ لكليرك من أسر كبار التجار[89].

ومن المشكوك فيه أن يكون في المنطقة القريبة من فاس إمكانية أكثر للتوسع الزراعي. فقد كانت البساتين داخل أسوار المدينة حوالي ربع مجموع المجال الحضري في منتصف القرن 18، وكانت تتنافس سلفا مع الحاجات الملحة إلى مساكن جديدة في أوائل القرن 19 (انظر الهامش 40)، بينما كانت المساحات المحيطة بالمدينة مُمْتَلكةً كلها، فيما يبدو. وكان قد لوحظ حتى قبل أن يبدأ الإستيطان القروي الأوربي في منطقة فاس، أنه لم تكن هناك البتة أرض متاحة للبيع في حدود 4 كلم من شعاع المدينة، وأن الأرض المتاحة للإيجار لم تكن تدر إلا إيجارا في سنتين على أكبر تقدير[90]. كذلك لم تكن هناك فرصة كبيرة للتوسع «العمودي»، وكانت هناك أراض تنتظر تدفق رأس المال عليها حتى تكون أكثر إنتاجا على الأقل. فتوزيع الماء من أجل الري كان نظاما دقيق التوازن، وإلا أصاب أي تغير ملاكا آخرين عديدين، كما يتضح من الوثائق العديدة الخاصة بتوزيع الماء عبر مراحل التاريخ الفاسي جميعها. وهكذا لقيت محاولة لإدخال الري على بعض الأراضي البعيدة عن المدينة معارضة من

(89) قصيدة للمشرفي، **المصدر نفسه** (بنيس، بن حيُّون، بن كيران، بن شقرون، برادة، بناني). غير أنه حسب المصدر نفسه، كان المرء لا يزال حُرّاً في الذهاب إلى البادية وشرائها بنفسه.

(90) De Périgny, **Au Maroc ; Fès**, 79.

أصحاب الأملاك القريبين من المدينة والذين أحسوا بأنهم سيمكنهم استعمال أكثر ما يحتاجونه من الماء في أراضيهم أولا، وقد قضى حكم شرعي بألا تعدل كميات الري التقليدية[91]. ثم إنه قد يبدو أن ممارسة الزراعة كانت كثيفة جدّاً، نظرا للتقنيات المتاحة، وأدخلت غرس الفاصوليا بين الأشجار في أحد الجنانات (**مختصر الوزاني**، 3، 312)، مثلا. وتبدو كثير من الزراعة في المنطقة، سواء داخل المدينة أم في المنطقة المجاورة لها مباشرة، من نمط العمل ورأسمال المكثف، حيث تحتل جنانات الفاكهة (التين، والليم إلخ..)، والعرصات المسقية المنتجة للخضروات، وأشجار التوت والكروم، وجنانات الزيتون، مساحات صغيرة إلى حد ما ـ إذا نظرنا إليها بمنظار أملاك الأحباس وإذا صرفنا النظر عن بعض المساحات المنتجة للحبوب. ويعزز بيرييني هذا بالإشارة إلى أن معظم الأراضي المحيطة كانت «سباخا» سلفا (**Au Maroc, Fès**, 79). ويبدو أن مجالا مشتركا للإستثمار الجديد كان هو غرس أشجار الفواكه أو إعادة غرسها، ولكن هذا غالبا ما تم بواسطة **المغارسة**، التي تقضي بأن يجهز أحد الطرفين الأرض وبأن يتولى الطرف الآخر العمل والضروريات الأخرى، كما أن الجنان يجب أن يوزع بين الإثنين عند نضج الثمار كما كان شأن قطعة أرض في منطقة لمطة شمال فاس كانت في ملك أحباس القرويين : فقد كانت مغروسة بأشجار الزيتون والتين والكروم وموزعة بالمناصفة عام 1845/1261 (**الأحباس**، رقم 114، 152)، أو جنان التوت في القرن الثامن عشر (**الأحباس**، رقم 158، 335). غير أن هذه الاستثمارات كانت طويلة الأمد تماما. ولا ينبغي أن يرى وجود **الأحباس**، لذاته، تلقائيا بصفته عاملا يمنع الإستثمار الخاص أو التنمية الخاصة في القطاع الزراعي، كما تشير إلى ذلك الأمثلة السابقة. فقد كانت فترة تأجير **الأحباس** طويلة (عشرون سنة عادة) ويمكن تجديدها بسهولة، وكان الريع منخفضا أيضا. وهذا كله يعني تشجيع المستأجر على الإستمرار وتشجع مصلحته الفعلية. ويبدو أن قطعة أرض صغيرة تماما قد وضعت في الأحباس الخاصة، لتظل في ملك أسرة إلى أن تفنى لأن تلك الأرض لم يكن يُزكى عنها، ولو أن هذا يمنع بيعها حتى ولو كان مالكها مدينا، كما وقع في إحدى الحالات في القرن التاسع عشر (المهدي الوزاني، **النوازل الصغرى**، 4، 44) وربما كان هذا أيضا يعوق الإستثمار في الأرض.

---

(91) فتوى للعربيّ الفاسي (من أواخر القرن السادس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر (نقلا عن الوزّاني، **النوازل الكبرى**، VIII، 174).

لقد كانت هناك، طبعا، سوق نقدية جاهزة في فاس لنوع من المنتوجات التي تسوق في المنطقة، وكان معظمها، إن لم يكن كلها، يستهلك محليا، ولم تكن تستطيع أن توفر فائضا ضخما يكفي لأن يصبح قاعدة لتجارة تصدير في المنتوجات الفلاحية.

وكان على الأملاك الحضرية أيضا أن تكون مجالا للإستثمار. ومع أن المعلومات الدقيقة تنقصنا، فإنه يظهر أن بعض الأفراد كانوا يملكون مجموعات كبيرة من العقار. فأسرة شرفاء وزان، على سبيل المثال، كانت تملك حيا بكامله، بما فيه المدبغة التي توجد هناك. ومع ذلك فإن الجزء الكبير من العقار التجاري الذي في ملك الأحباس (فربما ملكت القرويون وحدها ثلث الدكاكين) يمكن أن يكون قد عاق الإستثمار. وعلى أية حال، فإن هذا القطاع كان محدودا بالنظر إلى القيود المفروضة داخل أسوار المدينة وانعدام الأمن خارجها.

وكان الإستثمار في القطاع الصناعي وتنميته ممكنين أيضا، من باب الافتراض على الأقل. فقد كان هناك في نهاية المطاف إنتاج بحجم كبير في الصناعة التقليدية (البلاغي والنسيج) وصناع تقليديون مهرة ويد عاملة وفيرة من المناطق البدوية البعيدة كتافيلالت ومنطقة درعة مستخدمة سلفا في الصناعة التقليدية الفاسية، وطاقة مائية واسعة ومواد أولية محلية يتحكم فيها الفاسيون، وأسواق متطورة للإستهلاك والتصدير (تلك التي توسعت فعلا في القرن التاسع عشر) وهي نظام فعال للتوزيع، إلى جانب تحكم رأس مال التجار في إنتاج الصناع التقليديين ـ ربما بطريقة غير مباشرة، ولكنها لا تزال فعالة تماما. وأما لماذا لم يستثمر التجار الفاسيون، أو غيرهم، رأسمالهم لإنشاء نظام صناعي، وفضلوا إعادة استثمار أرباحهم في التجارة، فوراءه عوامل عديدة. ولعل أهم سبب هو أن التجارة كانت تدر عائدات أعلى وأسرع من الصناعة أو الفلاحة في ظل الظروف المعاصرة. ففي سنة 1858/1275، كان قد أثير سؤال عما إذا كان بناء فندق (محطة) للتجارة في ملك الأحباس أو معامل للغزل، أكثر إدراراً للربح.

وقد انتهى الخبراء والسلطان معا إلى خلاصة مفادها أنه لو استثمر المبلغ نفسه في الفندق وفي مشغل الغزل، لكانت العائدات من تجارة الفندق أعظم، ما دام رأسمال أكثر سيمر عبره (وستستخلص منه نسبة من الخراج). ثم إن هذا الأخير

سيستعمر أكثر من المشاغل التي قد تتهدم بسرعة وقد يتطلب مزيدا من الِاستثمار[92]. وبالفعل فإن الأرباح من صناعة ناشئة قد تكون متواضعة على المدى القصير، بينما كانت الأرباح في التجارة عظيمة دائما. ففي القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، أشير إلى ربح الثلث في رحلة العودة وحدها لقافلة حج[93]، بينما تحدث ملاحظ في أربعينيات القرن 19 عن الثلث إلى النصف في رحلة العودة نفسها (Thomassy, 61). وكانت الأرباح من تجارة السودان أعظم؛ فقد بلغت في ستينيات القرن 19 400% على ما ذُكر (Godard, 220). ولعله ليس مبالغا فيه البتة، حتى بعد أن مرَّ جيل من الزمن على ذلك التاريخ وتغيرت الظروف، أنه قد يبدو أن ما بين 150 و180% من الربح لا تزال ممكنة في هذه الطريق[94]. ومما لا شك فيه أن الربح الإجمالي من التجارة مع أوربا قد كان مهما ولو أنه يبدو أن هامش الربح قد كان متواضعا إلى حد ما، إذ انخفض إلى 2% من الواردات الأوربية[95]. وفي غياب تهديد أجنبي بمنافسة الصناعات الفاسية الأساسية المستعملة للتصدير، ونظرا للِاعتبارات الِاقتصادية ذات الوزن الثقيل لصالح التجارة، فليس من المفاجئ أن يكون الرأسمال الفاسي قد بقي تجاريا بالأساس.

٧ ــ الإسلام والرأسمالية

ثم إنه من المهم أن نأخذ بعين الِاعتبار كون فاس، في نهاية المطاف، مجتمعا

(92) نسخة من رسم وقعه ثلاثة تجار وأربعة «خبراء»، ومن رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن، وكلاهما مؤرخ بتاريخ 1858/1275، وهما يشيران إلى أن التجارة تحقق أرباحاً طائلة (**الأحباس**، رقم 114، 4). صحيح أن التجار الفاسيين قد استثمروا أموالهم في كراء الأوراش والمدابغ، إلخ. (أو كرائها من الباطن) لأفراد من الحرفيين، ولكن هذا كان آستثماراً في العقار وليس في الصناعة ذاتها.

(93) **حوليات نشر المثاني**، 45. يثبت لمبير هذا عن أولئك الذين عادوا بحراً، زاعماً أن الذين عادوا برّاً قد كسبوا أكثر (780).

(94) تم الحصول على هذه الأرقام عن طريق مقارنة أرباح القافلة السنوية الضخمة ــ 170,000 جنيه 200,000 جنيه (758,000 دولار ــ 892,000 دولار) عام 1877 (Leared, 537) ــ بمعدل مجموع الِاستثمار الذي هو 500,000 دولار (**RCCM, n°7, May 1881, 792**). وكما لاحظ لمِّير، فقد كانت هذه التجارة فعلًا «تؤتي أرباحاً مقبولة جدّاً».

(95) **CR for 1878, LXXV (London, 1878), Vice-consul Frost, Rabat, 1665**. وقد تشكّى جون دراموند هاي أيضاً من هذا في رسالة منه إلى موظف حكومي في سنة 1876، مؤكّداً أن التجار المغاربة كانوا يبيعون السلع البريطانية ولو بالخسارة، جاعلين منافسة الأوربيين كلهم مستحيلة (F.O. 99-175). ولعل هذا كان صحيحاً فقط إلى أن تمكن الفاسيون من بسط سيطرتهم الدائمة على السوق.

إسلاميا يعبر عن شرعيته المجتمعية السياسية بلغة ورموز دينية، وذلك بغض النظر عن التأثير المعياري المهم للإسلام في تصرفات الفرد وتصوراته الشخصية. وقد تناول **ماكسيم رودنسون** الجدل القديم الذي يحيط بالعلاقات بين الإسلام والرأسمالية تناولا فعليا وعميقا في كتابه المثير حول ذلك الموضوع «**الإسلام والرأسمالية**». وفيه افترض أن الإسلام لم تكن له مواقف سلبية ولا إيجابية من الرأسمالية ولا تأثير عليها. غير أن على المرء أن يدرك أن الإسلام يجب أن ينظر إليه بأنه دين حيّ تطور عبر الزمن على عدد من الأصعدة، وليس إسلام القرآن والحديث فحسب. فالشريعة تتضمن كذلك أعراف الناس التي لم تشملها أحكام القرآن، كما فسره علماء الوقت من جهة أخرى. وفي هذا المستوى فـ«الإسلام» كغيره، لا يمكن المرء أن يلاحظ عددا من نقط الاختلاف بينه وبين تطور الرأسمالية. فمصالح التجار ووجهة نظر علماء الدين غالبا ما كانت بعيدة في فاس عن التطابق؛ وقد انطبق هذا أكثر على التجارة مع أوربا. ونحن نجد العالم الفاسي محمد القادري في منتصف القرن الثامن عشر مثلا، يشجب السماح للتجار الأوربيين بالمجيء إلى المغرب للمتاجرة ورغبة المسلمين في التعامل معهم . وحتى بعد مرور قرن على هذا، فإن عالما فاسيا آخر، وهو محمد المدني كَنون (ت 1884/1302)، استمر يوبخ التجار المسلمين على ذهابهم إلى أوربا، وشبههم بالخونة[96]. كذلك أصدرت فتاوي في فاس تحرّم السكر أو التبغ المستوردين من أوربا بحجة نجاستهما لأن دم الخنزير أو البول قد استعملا في معالجتهما[97]. ولا شك في أن هذا كان ضد مصالح بعض التجار الفاسيين، وكان العلماء يغضبون أيضا على المعاملات التجارية مع اليهود، التي كانت أمرا جاريا به العمل في فاس[98]. ويمكن أن نجد انتقادات لاذعة للفائدة الظاهرة والخفية ولعدة أنواع من الشركات والبيوع التجارية والفلاحية، إلى جانب التحامل على بعض أشكال الصناعة، يمكن أن نجدها جميعها في فتاوي صدرت في فاس في العهد العلوي. وكانت معوقات الاستثمار في الإنتاج الغذائي (من حبوب وماشية ولبن، إلخ) مزعجة بصفة

---

(96) **كتاب لبعض أهل فاس**، د. ت.، مخطوط، K 3291، AR (ص. 1–6)، 5.

(97) كالفتوى التي أصدرت خلال عهد مولاي سليمان (انظر الهامش 61) أو تلك التي أصدرها عبد القادر الفاسي، **الأجوبة الكبرى**، 164–165، والتي تحظر التبغ المستورد من أوربا على ذلك الأساس.

(98) فعلى سبيل المثال، سُئِلَ عن جواز بيع النحاس الأصفر المفضّض لليهود، الذين يعيدون بيعه لأهل البوادي على أنه فضة. وقد عُدَّ هذا غير جائز، وخصوصاً بيعُه لليهود (**المرجع نفسه**، 29).

خاصة، لأنه كان من غير المشروع، تقنيا، شراء المجهول أو مشاركة شركاء فيه[99]. وكون الكثير من هذه الفتاوي متجاوزاً أحيانا بالطبع، أمر واضح من تكرارها في فترات شتى (ولاسيما تلك الأحكام التي صدرت في حق طرق القرض الربوية التي لا يقبلها الشرع الإسلامي)، فكانت الرأسمالية تنمو وتتطور. غير أن هذا كان إلى جانب مسألة مفادها أنه كان هناك عائق أو خلاف ما أحيانا بين التفسير المعاصر للإسلام في فاس والرأسمالية. وحتى عندما كان لبعض العلماء أقرباء من التجار، انحدروا من الوسط المجتمعي نفسه، فقد كان يمكن أن تنشأ مصالح ووجهات نظر متباينة. وإذا أخذنا الإطار الديني للمجتمع بعين الاِعتبار، فقد كان لهذا بعض الأثر، على الأقل في توجيه نمو الرأسمالية بطرق كانت تختلف عما كان سيكون عليه الأمر في غياب مثل هذا القانون الوضعي الذي هو فطريا فوق المجتمع، والذي لا يمكن أن تهمله أي جماعة ذات مصلحة، مثل الجماعة التجارية. ثم إنه ليس من أخلاق المجتمع بالضرورة التركيز فقط على جمع المال وتنميته. فالثروة لم تكن بأي حال من الأحوال مقياسا لقيمة الشخص الروحية كما كان عليه الأمر في بعض المجتمعات الأخرى حيث يُعتَبرُ الفقر والغنى صفتين معنويتين، كلتاهما إيجابية. بل كان المثل الأعلى للتقوى الحقيقية هو الزهد في الدنيا والاِعتدال والفقر، كما مثل ذلك الأبطال الحقيقيون لسير دينية مثل سير «**سلوة الأنفاس**» المؤثرة في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد سبقت الإشارة أيضاً إلى أن التجار في فاس كانوا ينفردون تقريبا بوظيفة الأمناء، من دون العلماء، بخلاف ما كان عليه الأمر في بعض المدن المغربية الأخرى. ويجب ملاحظة أن هاتين الفئتين المهنيتين لم تكونا تختاران أعضاءهما بالضرورة، من الوسط المجتمعي نفسه فما بالك بأن تكون لهما مصالح مشتركة. فإذا صح أن بعض العائلات التجارية الكبيرة قد لوحظ أنها ساهمت في صفوف العلماء، وإذا صح أن بعض العلماء أيضا قد استثمروا في التجارة، مثل جماعة الفقهاء الذين اكتروا فندقا سنة 1780/1194 (وثيقة Dombay) أو أولئك الذين اكتروا أرضا من الأحباس في أوائل القرن الثامن عشر (**الأحباس**، الأرقام : 158، 297، 323 وغيرها)، فإن هذا لم يكن هو الحال دائما البتة. فمن أصل تسع عشرة عائلة تجارية المسجلة في قائمة

(99) في إحدى تلك الحالات العديدة، أعطى أحدهم الآخر بقرة يرعاها له، على أن يكون للمالك منهما ربع السمن وللراعي سائر المنتوجات ؛ وقد عُدَّ هذا غير جائز قياسا على من باع شيئاً لا يملكه (محمد بن الحسن المجاصي، **أجوبة**، مخطوط، D 2189، AR، 338).

لكليرك لسنة 1905 (والتي تضم كل منها تاجرين أو أكثر)، كان لسبع منها (36,8%) قريب واحد من العلماء في ذلك الوقت[100]، ولكن آثنتين فقط كان لهما أكثر من واحد. ثم إنه ليست هناك أي إشارة إلى تقارب متزايد بين هذين الفريقين، لأن تلك العائلات التسع عشرة نفسها، مثلا لم تكن لتقدم أي مساهمة إلى صفوف العلماء، بعد الاِنفتاح على أوربا، أكبر من تلك التي قدمتها قبل ذلك[101]. وقد لاحظ لوتورنو أن البلديين مثلا (الذين كانوا فعلا أكبر نسبة من نخبة التجار) كانوا لا يزالون ينظر إليهم نظرة احتقار من طرف بعض العائلات المعروفة بالعلم. ويفهم من هذا أن المصاهرة ما زالت لم تنتشر بينهم على نطاق واسع (Fès, 491).

ولن يحدث اندماج أكبر بين النخبتين الاِقتصادية والدينية إلا فيما بعد، مع الدخول المتزايد إلى إدارة الحكومة والتجارة ليس للعلماء أنفسهم، ولكن لأفراد من العائلات التي كانت معروفة سابقا بعلمها أساسا، وبتوافر عامل آخر مهم هو المصاهرة واسعة النطاق. ويبدو هذا الاِندماج ظاهرة حديثة، ربما بدأت في أوائل القرن العشرين لتتقوى في عهد الحماية.

ففي الوقت الذي انحط فيه دور العلماء ونفوذهم في المجتمع المغربي انحطاطا حادا في ربع القرن الأخير، فإن الكثير من أفراد هذا الجيل الجديد من الفاسيين والذين هم من عائلات عرفت بعلمها الديني في الماضي، قد آثروا تربية حديثة دون أن يتخلوا عن إخلاصهم التقليدي للتعلم، فالتحقوا بالخدمات الحكومية بأعداد متزايدة. وقد أتاحت هذه الأوضاع فرصة سانحة للتزاوج مع عائلات فاسية أخرى ذات خلفية تجارية، فأخذت نخبة تيقنوقراطية ـ تجارية متجانسة تتوطد أركانها اليوم.

(100) بناء على قوائم للعلماء آلفاسيّين، المدرِّسين وغير المدرِّسين، على حدٍّ سواء، في سنة 1324/1906–1907 (العز، II، 176–179).

(101) بناء على فهرست ملحق بكتاب عبد السلام بن سودة، **إتحاف المطالع لرجال القرن الثالث عشر والرابع** (منسوخ، الرباط 1971). ويضم هذا الملحق حوالي 6,500 اسم. وقد كان للعائلات التجارية التسعة عشر المختارة ما مجموعه 119 عالِماً توفوا ما بين 1187/1773–1774 و1290/1873–1874، و119 ما بين 1921/1874–1875 و1370/1950–1951. والتاريخ الأول هو لبداية التسجيل في القوائم، بينما 1920 هو التاريخ الملائم لتوقف هذا التسجيل، بما أن أغلب العلماء الذين ماتوا قبل ذلك التاريخ كانوا قد دُرِّبوا قبل الاِنفتاح على أوربا (منتصف خمسينات القرن التاسع عشر). ويشمل التاريخ الأخير (1370) معظم العلماء النشطين في فترة ما قبل الحماية.

VI – مجتمع طبقي ؟

قد يتساءل المرء هنا : هل كان التجار الفاسيون – إلى جانب نشاطهم ونفوذهم الاقتصاديين والسياسيين والإداريين المتزايدين في القرن التاسع عشر – قد اندمجوا في جماعة مجتمعية اقتصادية متميزة دائمة تسعى وراء أهداف سياسية خاصة في فاس، وهل كانت المدينة بالتالي قد تحولت إلى مجتمع طبقي.

مع التفكك التدريجي للجماعات الحضرية العمودية السابقة والذي وفر الأمن وإحساسا بالانتماء في جميع المستويات المجتمعية الاقتصادية، يمكن المرء أن يلاحظ استقطابا متناميا وعملا سياسيا في المدينة مبنيين، إلى حد أبعد، على مقاييس مجتمعية اقتصادية أو مهنية. فما يدعى بثورة الدباغين سنة 1290–1291/1873–1874 قد وجدت لأول مرة في فاس فئات مهنية بصفتها كذلك – الدباغون والخرازون –[102] يعملون جماعة لها برنامج محدد، الأمر الذي يدل على تغير الوضعية، بل إن هذا بدا أكثر وضوحا خلال أزمة 1907–1908، التي رافقت محاولة خلع مولاي عبد العزيز وتنصيب مولاي عبد الحفيظ؛ فإن الدباغين قد لعبوا مرة أخرى دورا كبيرا في معركة الأحياء الحضرية (Niddam, pt 2, 187)، بينما قيل إن أحد زعماء الثورة الرئيسيين، وهو العالم محمد الكتاني – ربما لطموحاته الشخصية إلى أن يصبح سلطانا – اعتمد على «الغوغاء»[103] وعلى الرماة الذين كان يتحكم فيهم (Niddam, pt 1, 36) والذين كان معظمهم من الحرفيين. وقيل إن زعيما آخر كان يبث البلبلة بين «التجار والأعيان»[104]. ويمكن قياس مدى الاستقطاب بكون التجار – من أجل تنظيم ميليشيا لحماية ممتلكاتهم من النهب – قد اضطروا إلى الاعتماد على عبيدهم وعلى الحمالين (الأمازيغ) الذين يوجدون في المدينة من أجل عمل موسمي فقط، وذلك بدلا من الاعتماد على أي طائفة حضرية[105]. فبينما كان يمكن جماهير

(102) عادة ما يُذكَر الدباغون وحدهم، ولكن رسالة من القائد محمد الشركي إلى السلطان (12 شعبان 1290/ 5 أكتوبر 1873) توضح أن كلا الفريقين متورط (**وثائق**، III، 291–292).

(103) Charles René-Leclerc, **Afrique française**, Feb. 1980, 65.

(104) **Ibid**. and Niddam, pt. I, 32. ولاحظ نِيضْم (Niddam) أن الأعيَان اجتمعوا وشرعوا في العمل، خوفاً من «الطبقات الدنيا» التي «إنما كانت تتحين الفرصة لكي تنهب المدينة». كما يرى لُكْلِرْكْ أن معظم أنصار مولاي حفيظ هم من التجار الذين يسعون في إعادة التنظيم السياسي والإداري (**Afrique française**, Novembre 1907, 410).

(105) Charles René-Leclerc, **Afrique française**, janvier 1908, 30. كما اضطر الفاسيون، خلال ثورة الدباغين الأولى، إلى اتخاذ حرس يحمون لهم سلعهم وبيوتهم، ولو أنه لم يُشَر إلى من جهَّز القوة البشرية (مجهول، نقلًا عن **الإتحاف**...، II، 142).

التجار والصناع التقليديين/الغوغاء أن يتعاونوا على «سياسة معينة»، مثل إزالة الضرائب. وفعلا، فإن رفض بعض رجال القبائل الوافدين على المدينة أن يؤدوا المكس قد أشعل نار الفتنة ـ وكذلك خلع مولاي عبد العزيز. وكانت الأسباب التي دفعت كلا من الفريقين إلى المناصرة والأهداف المتوخاة من ذلك مختلفة. ففي نظر الكتاني عموما، كان يجب أن يلام مولاي عبد العزيز أساسا، لأنه خان الأمة لدى الأوربيين في شؤونه الظاهرة والباطنة، وكذلك فعل خدامه الذين غالبا ما كانوا من عائلات التجار الفاسيين. وقد يخطِّؤه التجار كذلك بسبب سياسته تجاه أوربا، ولكن بليتهم الرئيسية كانت، على ما يبدو، بسبب إصلاحاته، كتوزيع السلطة الإدارية والمالية بين القواد والأمناء، ومنع موظفي المخزن من قبول «الهدايا» (**Afrique française**, mai 1902, 188-190). وبالإضافة إلى ذلك، كان هذا فيما يبدو أيضا فرصة لهم للحصول على مزيد من السلطة من خلال المطالبة بالإعتراض على ما سيباشره السلطان من أعمال في المستقبل. وقد هوجمت معاهدة الجزيرة الخضراء، التي أمضاها هي أيضا، والتي بمقتضاها نُظمت الضريبة العامة، وأُبعد من الأيدي المغربية معظمُ التحكم في التحصيلات الجمركية والمالية لبلدهم، أي من أيدي الأمناء[106]. وبالرغم من أن التجار والصناع التقليديين يعملون كجماعتين متميزتين، فإنهم لم يكونوا بأي حال من الأحوال الفاعلين السياسيين الوحيدين في المدينة. كلا ! ولا كانت كل الجماعات الأخرى محددة بالضرورة بمقاييس مجتمعية ـ اقتصادية. حقيقة إن العلماء كانوا جماعةَ المصلحةِ المهنية. إلا أن أهدافهم النهائية لم تكن دائما منسجمة مع أهداف الجماعات الأخرى. ثم إنه كان يمكن جماعات النسب، مثل شرفاء وزان بفاس، أن يعملوا متكتلين لحماية مصالحهم الجماعية. وهذا هو الدافع الذي جعلهم ينصبون مولاي عبد الحفيظ (**Afrique française**, février 1908, 66). وبالفعل فإن عامل فاس استطاع أن يحتفظ فيما يبدو بمنصبه لمجرد أن رفقاءه من الشرفاء الأدارسة ساندوه (Niddam, pt 2, 159)، وكانوا قد تكتلوا كذلك لحماية الأمين بنيس من الدباغين المتظاهرين خلال ثورة 1873 ـ 1874 (**الإتحاف**، 2، 137، 141). وبالمثل سعى تحالف جغرافي يضم الضفة الشرقية للمدينة، في إقالة النائب السلطاني في فاس، في حين ساندته الضفة الأخرى (Niddam, pt 1, 30). والزعماء

---

(106) وتوجد نسخة من بيعة الفاسيين، وضمنها هذه الطلبات، في كتاب **العز**، I، 370–373. وكما يُفترض أن تضم رواية (؟) أخرى طلبات بحصر الأوربيين في السواحل وإرغامهم على السُّكَن في الملاح.

السياسيون/العسكريون المحليون الذين قد يكونون اعتمدوا بالأساس على «العائلة» أو المساندة الجغرافية (مثل حي في المدينة) كانوا أيضا فاعلين سياسيين، ويبدو أنهم حاولوا توجيه الثورة حسب ما يرونه مناسبا، ومن جملة الضغط على التجار (**Afrique française**, avril 1908, 136-137; mai 1908, 186 ; Niddam, pt 2, 148). وقد احتفظ المخزن في عهد مولاي عبد الحفيظ نفسه بقدر من الاستقلالية والسلطة العسكرية خاصة، في فاس.

وعند الكشف عن الأوراق، كان لا يزال صحيحا أن القوة العسكرية يحسب لها حساب وأن القوة الاِقتصادية لا تزال غير مساوية للقوة العسكرية والسياسية، وأن التجار لا يستطيعون مواجهة تلك الجماعات التي تستطيع حمل السلاح، وكان على السلطان الجديد ـ أخيرا ـ أن يرفض شروط البيعة، رافضا بذلك مزايدة التجار من أجل السلطة. وبالفعل كان ازدياد المعارضة متوقعا، كما حدث أيضا في السنين الأخيرة، مع امتداد نفوذ الفاسيين ونشاطهم إلى حلبة وطنية أوسع. وغالبا ما كان هذا يتخذ داخل المخزن، شكل المنافسة (قبلي/قروي) بين الفرق. وواضح من الأحداث، التي تلت بعد ذلك، أن الفاسيين لم يستطيعوا مواجهة القواد المدعمين قبليا والأقوياء عسكريا. وفي الوقت نفسه كانت مصالح التجار ومصالح حزب الكتانيين متباعدة. وكان جزء من عداء هذا الحزب موجها في الأصل نحو «الأغنياء» الذين لهم روابط مع الأوروبيين على العموم. ولم يكن يبدو أن التجار الفاسيين يفضلون أن تصل تلك الطائفة إلى السلطة، ولا أن يكون الكتاني (الذي يجمع المساعدة من القبائل المجاورة) سلطانا. ولما كان التجار لا يستطيعون مواجهة القبائل والرماة الفاسيين الذين يتزعمهم الكتاني والذين يتكون معظمهم من الحرفيين، فإنهم اختاروا على ما يبدو قبول مولاي عبد الحفيظ مع أنه رفض شروط البيعة. غير أن قبولهم كان تذمُّراً في أحسن الأحوال، لأنهم أدركوا أنهم سيتحملون الأعباء الجديدة (Niddam, pt. 2, 191)؛ وبقيت العلاقات سيئة بين السلطان الجديد والتجار الفاسيين (**Afrique française**, août 1908, 316 ; janvier 1910, 67-68). ويؤكد ظهور موظفين من أصل قبلي في المخزن وفي ولاية منصب عامل فاس (**ibid.**, juillet 1908, 250-251) العلاقة المتوترة بين السلطان والتجار الفاسيين وعلاقة هؤلاء بمراكز السلطة القروية. ويبدو أن الفاسيين قد قدموا مساعدة ضئيلة للسلطان في الواقع، عندما هاجمت القبائل فاسا سنة 1911 ولو أن أحد الملاحظين ادعى أن

«البرجوازيين» الأغنياء، نظرا لمصالحهم الشخصية، قد خشوا هم أيضا انتصار القبائل، لأن هذه القبائل ومعها الجماهير الحضرية، ستنهب ممتلكاتهم وسلعهم حينئذ. وفي سنة 1912، حدتهم الرغبة في الإستمرار المجتمعي إلى التعاون مع السلطات الفرنسية لإعادة تثبيت النظام[107]. ولم يستطع التجار الفاسيون استعادة مكانتهم السياسية في فاس أو هكذا بدا الأمر، إلا مع الإحتلال الفرنسي، وذلك لأن كل الأعضاء الفاسيين التسعة المنتخبين عام 1912 للمجلس البلدي المجدد كانوا تجارا (F.O., 174-270). غير أن السلطة الفعلية كانت حينئذ في أيدي السلطات الفرنسية وظلت بعيدة عن متناول التجار.

ومع ذلك لا يمكن الحديث في الواقع عن «مجتمع طبقي» هنا. فهاتان الثورتان هما، أولا وقبل كل شيء، حالتان للأزمة القصوى ولم تكن المدينة في معظم الأوقات العادية مستقطبة استقطابا كليا أو مستمرا تماما، ولا كان على المجتمع الفاسي، بالأحرى، أن يكون أبدا تحت سيطرة جماعة مجتمعية واحدة، برجوازية كانت أو حرفيين أو غيرهم. ثم إن عددا من القوى في المجتمع كانت تعمل لمد الجسور على الخنادق المجتمعية ـ الإقتصادية. وقد لقي الدين، في كثير من تجلياته، استجابة على جميع المستويات. فالأحداث، مثل مواكب الأعياد أو مواسم الأولياء أو صلوات الجماعة، كانت كلها دليلا واضحا على التضامن، بينما كانت الدعوات إلى الإحسان والتآخي لا تزال تستقطب العناية، وهو ما تشير إليه المؤن المخصصة للفقراء أو المؤسسات الدينية والخيرية في وصايا الفاسيين، وتشير إليه أيضاً أنشطة الزوايا في المدينة، بينما كانت القوانين الدينية لا تزال تملك مع السلطة ما يكفيها لتجبر حتى الغني والقوي على التقيد بها على الأقل في الظاهر. وكان الشعور بالولاء للعائلة كذلك يقاوم الإستقطاب الدائم. فبينما كان ينظر فعلا إلى بعض العائلات كجزء من نخبة التجار حصرا، كان لعائلات أخرى أعضاء لا ينتمون كلهم إلى هذه الطبقة وكان حتى داخل العائلة الكبيرة الواحدة مكان للحركيّة الفردية. وهكذا ساعدت العلاقات مع أقرباء من مستويات مجتمعية واقتصادية مختلفة على سد الثغرات العمودية في الحياة اليومية (Fès, 493)، مع أن هذا لم يكن يبدو كافيا دائما عندما يراهن بالقضايا الأساسية كما في سنة 1908.

(107) Weisgerber, 219, 291, 301.

ولعل الأهم هو أن النزاع لم يكن ثنائي القطب بالضرورة. فألا تكون لجماعات نَسَبِيَّة أو جغرافية معينة وظائف دائمة بالضرورة، وألا تنشط في الغالب إلا في أوقات الصراع، أو أن يمكن دعمها بمصالح أفرادها الاِقتصادية، أو أن يتعرض أعضاء البعض للاِنقسامات المتعارضة هو أمر لا يصرف عن القول إنه كانت هناك مراكز سلطة متعددة في المدينة وإنه ليست كلها محددة اقتصاديا. ومع أنه قد تقف هذه الجماعات موقفين، مع التجار أو الصناع التقليديين أو ضدهم، فقد كان هذا حالة تحالف أساساً، ولم تكن مثل هذه التحالفات دائمة، بل كانت تتوقف على القضية الراهنة. ثم إن بعض القضايا الأساسية نفسها مثل قضية توزيع الماء في المدينة لم يكن حلها سهلا على الجماعات المجتمعية الاِقتصادية أو العرقية، بل تناولتها لجانُ تفاوضٍ على أساس جغرافي[108]. والخلاصة أنه بالرغم من أن القرنين التاسع عشر والعشرين قد شهدا بلا شك نمو استقطاب مجتمعي اقتصادي في فاس، مواكب لنمو بورجوازية، فإنه قد يكون من المبالغ فيه أن ينظر إلى هذا على أنه «مجتمع طبقي» في المدينة. وحتى هذا الاِستقطاب المتزايد لم يكن توجها غير قابل للاِنعكاس، وذلك لأنه بعد فرض الحماية سنة 1912، ازداد التلاحم بين مختلف الجماعات المجتمعية والاِقتصادية في فاس أيما ازدياد لأن أكثر الاِنقسامات بروزا في المجتمع صار انقساما وطنيا ـ دينيا مدة من الزمن على الأقل.

VII ـ الخلاصة

من الواضح أن نشوء البورجوازية الفاسية كان مختلفا من وجوه عدة عن نشوء البورجوازية في أوربا أو في معظم الأماكن الأخرى في الشرق الأوسط. ومجرَّد نشوئها أمرٌ يظل مهما في هذا السياق، لأن ذلك لم يتم في عدة أجزاء أخرى من المنطقة. ثم إنها لم تكن أقلية عرقية أو دينية بالمعنى العادي للكلمة بخلاف الوضع في أجزاء كثيرة من الإمبراطورية العثمانية، حيث غالبا ما كان النصارى واليهود مهيمنين على المجال الاِقتصادي في الفترة الحديثة، أو في مصر حيث كان الأقباط واليهود والأرمن

(108) هكذا تشكلت في سنة 1881/1298 أربع طوائف بحسب موقعها الجغرافي (طائفتان منها تمثلان آثنتين من ثلاث مناطق تقليدية في المدينة، والطائفتان الأخريان تمثلان المنطقة الثالثة) بالإضافة إلى طائفة خامسة تتكون من «الخبراء» (أرباب البَصر)، وَحلت هذه المشكلة (**الأحباس**، عدد 163، pt. 2، 318).

واليونان والسوريون وأقليات أخرى، يشكلون نسبة مهمة من البورجوازية. أما البورجوازية الفاسية، فكانت على العكس من ذلك مسلمة حقا من حيث معتقداتها الروحية وقيمها السياسية وثقافتها، ولم تكن ذات عقلية علمانية البتة إلا مؤخرا، كأولئك الأعضاء المسلمين من البورجوازية الذين كانوا يعيشون فعلا في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

واستمرار البورجوازية الفاسية وتكيّفها متميزان كذلك. ولا يمكن القول إنها كانت وليدة التجربة الاستعمارية، لأن نشأتها الأولى سبقت فعلا آنفتاح المغرب على التجارة الأوربية في منتصف القرن التاسع عشر، فما بالك أن تقول إنها وليدة قيام الحماية الفرنسية. ولا يمكن القول إن التغييرات (الخارجية والداخلية) الطارئة في القرن التاسع عشر قد أحدثت زيادة ملحوظة في الحركيّة أو سهلت بروز العديد من الأفراد أو العائلات أو الجماعات من بدايات متواضعة، مكونين نخبة اقتصادية جديدة. حقيقة إن العائلات التجارية قد انسحبت، على طول الطريق، بالانقراض إما لأسباب طبيعية وإما لأسباب سياسية (مثلاً، عديل في القرن الثامن عشر)، بينما انضم الآخرون إلى صفوف التجار، مثل بعض العائلات من الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (المقري وابن عياد). فبينما كان الوضع النَّسَبيّ لبعض العائلات قد أعيدت تسويته على الصعيد الاقتصادي بدون شك في القرن التاسع عشر بسبب ازدياد غنى بعض الأفراد أو العائلات التي صارت سلفا من النخبة الاقتصادية (التازيون، مثلا)، فإنه لم تكن هناك، على ما يبدو، أي إشارة إلى كثير من الملتحقين الجدد بالعائلات التجارية التي كانت معروفة سلفا فيما مضى. وقد يمكن أن تبدو النسبة العالية من التجار البلديين في إحصاء روني لُكْلِيرْكْ في سنة 1905 (على الأقل 63–65 من 139 آسما/45–47% ؛ و35 أو 36 من 62 تاجرا أو 56–58%) ناجمة عن الحركيَّة العالية الحديثة العهد. ولكن ملاحظين كانوا قد لاحظوا هذه الواقعة في أواخر القرن السابع عشر ومنتصف القرن التاسع عشر[109]. ثم إن

---

(109) [John Drummond Hay], **Journal of an Expedition to The Court of Morocco in The year 1846** (Cambridge, 1848), p. 36 : «دكر عدداً كبيراً من أسماء تجار فاس الرئيسيين، وكلهم من أصل عبري» ؛ Germain Mouëtte, **Relation de la captivité du Sr. Mouëtte dans les Royaumes de Fez et de Maroc** (Paris, 1683), p. 74 : «تجار فاس البالي... معظمهم يهود مرتدُّون». وفعلًا، كانت نسبة البلديين تبلغ 10 أو 36% من ثمانية وعشرين تاجراً يملكون كَلسات في دكاكين أحباس القيسارية في سنة 1115/ 1703– 1704 (**الأحباس**، عدد 158، 83–84)، بيبا =

هذه الدرجة العالية من الإستمرارية، تتغاير حتى مع المدن المغربية الأخرى، مثل سلا، حيث نادراً ما توارثت العائلة الواحدة الثروة، بل كان كل جيل يسعى في تحقيق ثروته بنفسه (Brown, 171-173)، وربَّما بدا التضامن العائلي في فاس أكثر جلاء في المجال الإقتصادي. ومن ذلك، مثلاً، أن عبد السلام برادة (المتوفى سنة 1164هـ/1750م)، وهو من عائلة تجارية فاسية مشهورة، كان قد قد حصل من أبيه على المال الذي احتاج إليه لتحقيق مشروعه التجاري، فتمكن من فتح دكان تركه فيما بعد لعمه ؛ ثم إن أباه أوصاه، وهو على فراش الموت، بمراقبة ثروة العائلة لصالح إخوته (**سلوة الأنفاس**، I، 185). ومن المعبِّر أن يكون نموذج الشركات التجارية الفاسية المألوف أكثر هو أيضاً الشركة العائلية، التي غالباً ما سافر أعضاؤها إلى مدن مختلفة ؛ وقد استمر هذا الوضع حتى منتصف القرن العشرين[110]. وقد ساعد هذا التعاون العائلي على تفسير آستمرار التحكم في رأس المال استمراراً لافتاً للنظر.

وهذه الجماعة لم تكن جماعة دائمة فحسب، بل كانت أيضاً جماعة ناجحة، حتى في مواجهة أوربا. وبالرغم من أن للفاسيِّين تعاملاً تجارياً هامّاً مع هذه الأخيرة، فإنهم لم ينحطوا في الحقيقة إلى وضع التبعيَّة، وإن كان السلطان نفسه، خاصة بعد سنة 1894، وبعض الجهات المغربية الأخرى قد انتهوا إلى ذلك الوضع. ولا تتأثر كل جهات المجتمع أو قطاعاته، بالضرورة، بمؤثرات آقتصادية خارجية مُمَاثلة، خصوصاً في بلد تعددي مثل مغرب ما قبل 1912. والذي منع وقوع ذلك وجود أسواق غير أوربية وصناعة محلية ودرجة عالية من التحكم الفاسي في الواردات.

وعلاوة على ذلك، فإن البرجوازية الفاسية جعلتها بعض مظاهرها مشابهة لبرجوازيات أخرى في الشرق الأوسط. فهي لم تكن وليدة الصناعة ولا ذات نزعة صناعية، بل كانت ذات طبيعة تجارية، وإن اختلفت عن بعض تلك الجماعات

= كان كل الأسماء الثمانية الذين جادت بهم العائلات الفاسية (أي أنها ساهمت بأكثر من أمين واحد) خلال عهد مولاي الحسن، من أصل بلدي (نعيمة هراج التوراني، **مرجع مذكور**، فهرست، 353-358).

(110) G. Pallez, **op. cit.**, 194. كذلك ساعدت المسؤولية العائلية المشتركة في عهد ما قبل الإستعمار على الحفاظ على التضامن. إذ يرى كَرابرك، مثلاً، أن مولاي سليمان أمر كل التجار سنة 1817 بأداء ما عليهم من ديون؛ فإذا عجزوا، أُلزم إخوتهم أو غيرهم من الأقارب بأن يؤدوا عنهم (165). ومن أجل بعض التعليقات على دور العائلة في الحياة المجتمعية ـ السياسية في فاس، أنظر : N. Cigar, «Société et vie politique à Fès», **Hespéris-Tamuda**, 1978-1979, 135-136.

الأخرى في المنطقة بعدم اعتمادها على ملكية الأراضي أساساً لثروتها[111]. ثم إن قوتها الإقتصادية لم تكن بالضرورة منسجمة مع قوتها السياسية، كما كان شأن بعض الحالات في الشرق الأوسط. ذلك بأن غياب «طبقة مجتمعية» مهيمنة، والإفتقار إلى أساس سلطوي، مستقل جزئياً، للدولة، وانعدامَ الهيمنة العسكرية للبرجوازية على الدولة أو على الفاسيين الآخرين أو على القرويين، كل ذلك جعل مثل هذه العلاقة بعيدة الإحتمال، بل كان هذا طبعاً أقل في عهد الإستعمار. ومع أن هذه الوضعية قد تغيرت بعد الإستقلال سنة 1956، عندما كانت معظم القوى السياسية في أيدي البرجوازية الفاسية، مواكبة انتقال النشاط السياسي للنخبة الإقتصادية الفاسية إلى حلبة خارج المدينة، فإن هذا لم يكن يعني دائماً آستقطاباً للمجتمع المغربي في موازاة الخطوط المجتمعية الإقتصادية، ولا كان يعني تكون احتكار فاسي للسلطة في المجتمع ؛ بل إن الفاسيين وجدوا أنفسهم مورطين في حكم تعدُّدي متنوِّع، تواجههم مراكز أخرى للقوة منظمة تنظيماً عمودياً، لها زبناؤها الخاصون على جميع الأصعدة : في الجيش والقصر والمصالح الجهوية الأخرى. وحتى نخبة البلد الإقتصادية ليست وحدةً واحدة. فالسياسيون مثلًا، الذين لا شك في أن تماسكهم الداخلي يعادل

(111) غير أنها ـ كما سبق أن رأينا ـ لم تكن منعزلة أو مستقلة عن القطاع القروي، لأن المواد الخام التي يعتمد عليها جزء من تجارتها كانت جهوية، بينما كان حجم الكثير من تجارتها المحلية يتوقف على الأوضاع في البادية.

السلاطين العلويون

مولاي رشيد	1672–1666
مولاي إسماعيل (أخوه)	1727–1672
أبناء المولى إسماعيل (بضعة عهود من الحكم) :	1757–1727
أحمد الذهبي، عبد المالك، عبد الله، علي (الأعرج)، محمد بن عربية،	
المستضيء، علي (زين العابدين) سيدي محمد بن عبد الله	1790–1757
اليزيد (أخوه)	1792–1790
مولاي سليمان	1822–1792
عبد الرحمن (ابن أخيه)	1859–1822
محمد الرابع	1873–1859
الحسن الأول	1894–1873
عبد العزيز	1908–1894
عبد الحفيظ	1912–1908

تماسك الفاسيين، ومستواهم المجتمعي والاقتصادي يماثل مستواهم في الغالب، يكوِّنون مع ذلك جماعة مستقلة ومنافسة، ربما أدَّت منافستُها هذه في نهاية المطاف إلى تصدعات خطيرة داخل البلد.

وكان القرن العشرون يعني كذلك انفصالًا مادياً متزايداً بين مدينة فاس والبرجوازية الفاسية، وهي عملية تكاد تكون الآن تامة. وحتى أولئك الذين هم من النخبة القديمة والذين يمكثون في فاس، لم يعودوا يسكنون في المدينة غير الملائمة، ولو أنها رائعة، وفضلوا أن يرحلوا إمَّا إلى سكنى حديثة في المدينة المجاورة التي بناها الفرنسيون وإما إلى ڤيلات جديدة في الضواحي. ومن سوء الحظ أنهم أخذوا معهم، بهذه الهجرة، الكثير من الحيوية التي كانت قد جعلت فاس أحد المراكز الاقتصادية القيادية في العالم الإسلامي، كما أخذوا معهم جزءاً من السمو والثقافة اللذين كانا قد جعلا منها «بغداد المغرب» خلال قرون عديدة.

دِرَاسَاتٌ وَعُرُوضٌ بِبْلِيُوغْرَافِيَّةٌ

اليهود والمسلمون في المغرب 1859-1948
مساهمة في تاريخ العلاقات بين الملل في الديار الإسلامية

تأليف : **محمد كنبيب.**
عرض : **دانييل ريڤي.**
ترجمة : **محمد معتصم.**

لابدَّ من الإعتراف بالجميل لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط(•) على نشرها لأطروحة محمد كنبيب القويَّة والضخمة في طبعة مخفّفة، غير مختصرة ولا مبتورة (756 صفحة)، مع مقدمة نموذجية للراحل جان باتيست ديروزيل. وتتحكم في إيقاع هذا العمل الجميل لازمتان كبيرتان هما :

* فحص بدايات فتق لا يُرْتَق في نسيج العلاقات بين اليهود والمسلمين في المغرب خلال الفترة الممتدة من الحرب الإسبانية ـ المغربية (1859-1860) إلى سنة 1912 ؛

* تتبُّع التمزّق الذي لا رِجعة فيه والذي ميّز هذه العلاقات أثناء المرحلة الممتدة من إقامة الحماية الفرنسية حتى الحرب الإسرائيلية ـ العربية الأولى (1948).

ويبتدئ القسم الأول، كما يُفترض، بتوضيح صارم ومُتزن في آن واحد لأسس العلاقات بين اليهود والمسلمين ومظاهرها وتأرجحها في المغرب عبر التاريخ. وتُبرز هذه

(•) صدر بالفرنسية ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 21 بمطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994 بعنوان:

Mohammed Kenbib, **Juifs et Musulmans au Maroc (1859-1948). Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en terre d'Islam**, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1994, 756 p.

المتابعة التعاقُبيَّة أهمية وجود الجالية اليهودية وتجذُّرها في المغرب، دون أن تُخفي هشاشة أوضاعها ومُعاناتها في بعض الأحيان لِأسباب مرتبطة بسياسة السلطة المركزية (الموحدون، المولى يزيد 1790–1792) أو تصرفات العامة وأعمال الشغب التي كانت تندلع على أثر وفاة السلاطين والاِنتقال إلى عهود جديدة.

إلّا أن ذلك لا ينال من الوحدة القائمة بين الأغلبية والأقلية باعتبار تكريس شعورهما التدريجي بوحدة المصير، وتقاسمهما لمتخيل تاريخي مشترك (شكّل طردهم معاً من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر أحد رموزه)، وتداخل إواليات التبادل الاِقتصادي والاِجتماعي المنسوج بينهما في بنى الحياة اليومية ؛ وذلك في إطار تحدّد ملامحه وتضمنه شروط الذمة في الأعلى والزطاطة على مستوى القاعدة. والملاحظ أن محمد كنبيب لا يسوِّد الصورة (على عكس بعض الكتاب الذين يبالغون في تركيزهم على وضع الذمي شبه السَّجين)، كما أنه لا يقوم بأي تجميل للوحة (فلا إشارة في كتابه للتكافل بين المسلمين واليهود على الإيقاع الحنيني : «كم أحببنا بعضنا البعض»). لقد اكتفى بالاِستشهاد بكلود ليفي – ستروس ومقولته حول «أزهار الاِختلاف الهشة»، التي استطاع اليهود المغاربة، بل أحسنوا، زراعتها على هامش الحاضرة الإسلامية.

وقد استأثرت القضيَّة اليهودية بآهتمام المغرب بدءاً من الحرب الإسبانية – المغربية عام 1859–1860، وهي القضية التي يوجد مركزها في مكان آخر هو أوربا الوسطى وأوربا الشرقية. وبالمناسبة نفسها، ساهمت مسألة وضع اليهود في المغرب في تدويل معالجة «الشؤون المغربية». وصوَّبت جماعاتُ ضغطٍ قويَّةٌ عدساتِها المكبِّرة (المشوِّهة في غالب الأحيان) إلى الملّاحات : **الرابطة الإسرائيلية العالمية، مجلس نوّاب اليهود البريطانيين، مجلس نواب الإسرائيليين الأمريكيين**، إلخ. هكذا فحص محمد كنبيب بدقة متناهية أحداثاً صغرى آمتدَّت منذ ذلك الحين حتى 1912 وصارت بتكرارها وكأنَّها ثابت بنيوي وعَزَلَ بدقةٍ شبه كيميائية العوامل القوية التي حلّت النسيج الرابط بين اليهود والمسلمين.

لقد حلّل المؤلِّف تكدُّسَ الخدوشِ والرضوضِ والفتوقِ التي ترصِّع تاريخ نهاية القرن حالةً حالةً : فمن «قضية أسفي» إلى حادثة «عيسى الريفيّ، قاتل اليهود» إلى «قضيَّة نتيفة» إلى «جلد يهودية في طنجة». وما على المرء إلّا أن يتتبَّع معجم القنصليات ووسائل الإعلام لاستعادة الجوّ التاريخي لفترة كانت تختار ضحاياها

وتسلّط نقمتها بشكل انتقائي. إلا أن محمد كنبيب سرعان ما يربط الصلة من جديد مع التاريخ على النطاق الواسع، وذلك في سياق استعراضه لـ «أحداث» الدار البيضاء (1907) وفاس (1912) اعتماداً على ما شهدته الطائفتان اليهوديتان المحليتان من تطورات.

ويوضح المؤلف ـ بمهارة ـ العوامل المدمِّرة للعلاقة بين اليهود والمسلمين، إذ سبق له تخصيص بحث ممتاز لنيل دكتوراه السلك الثالث حول الحماية القنصليَّة وتضخُّمِها المدمِّر للسلطة المركزية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(*). فقد قلبت الحماية الذِّمَّةَ بطريقة لم يقبلها المسلمون وآنتهى بها المطاف إلى خروج بعض فئات المتاجرين اليهود من بين رعايا السلطان عن قانون الحاضرة المغربية فصار حتى إخوانُهُم في الدِّين يَكْرَهونَهمْ ويمقُتُونَهُمْ. ونقصد على الخصوص أولئك التجار الذين حمّلوا ميزانية المخزن نفقات ضخمة دفعتها لهم الدولة تعويضاً عن سرقات للسلع اخترعوها بشكل منهجي وبتواطؤ مع شركاء مسلمين زاعمين نهب القبائل لقوافلهم.

هذا آلتدهور في العلاقات بين الملّتين لا يتم على نمط واحد. ويتبيَّن محمد كنبيب الحواجز المانعة. فالتفاهم بين الوسط المخزني السامي والنخبة اليهودية (تجَّارُ السلطانِ والحاخاميَّةُ الكبرى) مثلاً لا يتأثر بإيقاع الزمن. ونلمس ذلك جيِّداً عندما يرفض مردوخ بِنْجْيُو، حاخام طنجة الأكبر، بمناسبة مؤتمر الجزيرة الخضراء، تدخل الولايات المتحدة الأمريكيَّة «الإنساني» بإيعاز من **مجلس النواب للحقوق المدنية والدينيَّة**، المنبثق من **آتحاد الطوائف اليهودية الأمريكية**. أما اليهود الشباب المتحررون من مِسطرة السلوك التقليدي وأعرافه (خلع النعلين على مقربة من المساجد، وفي مقصورة القضاة، إلخ.) ومسلمو آلحواضر الذين يستنهِض العلماء هِمَمَهُمْ، فتُزرع بذور الشقاق والفُرْقَة بينهم. وتستقلُّ الملّاحات بذاتها (فيتخلّف المحتسب عن مراقبة إوالية آقتصاد السوق)، بينما يتدخل اليهود في الحياة الِاقتصادية للحاضرة الإسلامية ويتمكّنون من آستئجار أملاك الأحباس.

(*) صدر مؤخراً بالفرنسية ضمن مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 29. والعنوان هو:

Mohammed Kenbib, **Les Protégés. Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc**, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Rabat, série : Thèses et Mémoires n° 29, 1996, 392 p.

والحق أن سلوكات القطيعة هذه لا تميز إلّا أقلية يَتراوح عدد أفرادها ما بين **2000 و3000** يهودي حسب المؤلّف. ذلك بأن الجالية اليهودية المغربية، المتقدِّمة على الأغلبية المسلمة بجيل أو جيلين، تتأرجح، أمام هجمة الحداثة، بين قطبين هما : الطلائعيُّون أمثالُ «الاندماجيِّين» (وهم صنيعة **الرابطة الإسرائيلية العالمية**) والحاخاماتُ التقليدويُّون الذين يتميَّزون برفض «الهسكلة» [«الأنوار»] على غرار العلماء الرافضين للنزعة الإصلاحية الإسلامية التي نادى بها الشيخ محمد عبده. فيتصاعد التوتر في الملّاحات بين اليهود «المتنوِّرين» الذين يسعون في التميُّز عن اليهود «الضالِّين» (ونحن نحتفظ هنا بمصطلحات المخزن)، المستفيدين من آمتيازات آلحماية القنصلية وعائداتها والمستغلين للأوضاع المترتبة عن تفسخ الدولة ؛ ومن إسهامات هذه الأطروحة الجوهرية أنها كشفت عن حيويَّة الجدل القائم بين الأجيال وخصوصاً بين مكوِّنات مجتمعية داخل الجالية اليهودية، التي لا تشكل الكُتْلة المتجانسة والمتلاحمة المُتَّفَقَ على أنها «حصان طروادة» الذي أتاح تَغلغل أوربا كما وصفه محلِّلون يستكينون لسهولة آلتفسير الأحادي للتاريخ.

وتزيد محنة الحماية الفرنسيَّة والإسپانية على حدٍّ سواء (وهي المحنة التي يُعيدُ لها محمّد كنبيب طابعها الخاص ووزنها المتميِّز) من حدَّة التمزق بين الملّتين. فقد أدت الحماية على طريقة ليوطي إلى أن تحط اليهودَ من وضع الرعايا المحميِّين وشبه المتحرِّرين لإمبراطورية عجوز إلى وضع أهالٍ، متَّفقين مع مسلمي جمهورية إمبراطورية. هذا الإنحطاطُ في الوضع المرتبطُ بتقلُّص التأثير الإقتصادي (فضلًا عن آحتكار الوساطة بين الأوربيين والمسلمين) يقلِّص الجاذبية آلتي كان «الإندماجيّون» يتمتَّعون بها لدى الشباب ويفتح أفقاً للجماعات الصهيونية الصغرى الأولى (**حِبّات صهيون** [مُحبُّو صهيون] في فاس منذ 1907). ولكنه يشجع أيضاً على آنطلاق الأمميَّة البروليتارية في أحضان الجالية اليهوديَّة، مع أن اليهود قلّما تجاوز تمثيلهم آلحدّ بالنظر إلى أهميتهم العدديَّة داخل **الحزب الشيوعيّ المغربي** (500 يهودي مغربي مقابل 2500 مسلم و3500 أوربي عام 1948). أما الصهيونيَّة، فظلّ جمهورُها محدوداً قبل الحرب العالمية الثانية. والحق أن العالية [«الهجرة»] الأولى التي جرَّبها يهود فاسيون قد باءت بالفشل عام 1921 ــ 1922.

إن عَمَلَ محمّد كنبيب عمل مجدِّد خصوصاً حول منطقة غير مرئيَّة في البحوث المخصَّصة لهذه الفترة، هي منطقة طنجة، وهو مثير حول مرحلة معيَّنة، هي مرحلة الثلاثينيَّات من القرن العشرين.

ففي طنجة، وحتى «التطبيع» الذي فرضته فرنسا انطلاقاً من سنة **1923**، ازدهر ما يشبه مستعمرة يهودية شبه مستقلة ذاتيا في محيط مدينة متوسطيَّة حرة تتوفر على لجنة حاكمة منبثقة من صفوفها، وعلى «حقديشها» (أحباس اليهود)، وعلى صحافة غير مراقبة، وتمتاز بدينامية اجتماعية وثقافية خاصة جداً، وهي حالة تذكر بالإسكندرية. وقد برع محمد كنبيب في إعادة أجوائها، وهو الباحث الذي يتحرك دائماً دون عناء في الميادين المعقّدة.

«اضطرابات العلاقات بين الملّتين وأطياف الحوار» : يكشف لنا هذا الفصل المخصص لثلاثينيات القرن العشرين عن صناع تقليديين وأصحاب دكاكين صغار أثرت فيهم وقربت فيما بينهم، بطريقة معيَّنة، مخلفات الأزمة الإقتصادية الكبرى (1929)، كما يكشف عن الشبيبة المسلمة والشبيبة اليهودية في الحواضر ومعاناتهما من جراء الدونية المترتبة عن كون أعضائهما مجرد «أهال» عقدوا الآمال نفسها على اليسار الفرنسي بعد انتصار الجبهة الشعبية ووصولها إلى الحكم في فرنسا (1936). فتدهشنا قابلية الرأي العام الإسلامي المحدودة جداً لنداءاتِ ألمانيا النازية ودعواتِها لكراهية الجنس السامي وللتحرشات الصادرة محلياً من اليمين الإستعماري المتطرف. هذا مع أن السياق الفلسطيني أخذ حِمْلُه يثقُلُ منذ 1936. لقد حصل العكس، وهو المحاولات المؤثرة لإصلاح ذات بَيْنِ الملّتين، بإحداث **الإتّحاد المغربي للمسلمين واليهود** في يوليوز 1936، والتقارب بين حزب علال الفاسي (**الحزب الوطني لتحقيق المطالب**) و«**العصبة الدُّولية لمناهضة معاداة السامية**» (.L.I.C.A)، والعريضة التي ندَّد فيها أعيان اليهود والمسلمين عام 1938 بالروح الصليبية ورفعوها إلى وزارة الخارجية البريطانية... غير أن هذا لم يمنع التصاعد القوي القاهر لـ«الوطن القومي اليهودي» (اللورد بلفور) في فلسطين من أن يُحدِث حالة من الخلط المتنامي بين مقاومة الإستعمار ومقاومة الصهيونيَّة.

وتشكِّل الحرب العالميَّة الثانية موضوع توضيح متوازن، وليس موضوع بحث يَكتشف مَصَادرَ لم تُطبَع بعد ويعلِّق عليها. ويتطوَّر المؤلِّف هنا في ميدان سَبَق تحليله بإفراط ويصل إلى نهاية عرضه أو يكاد. ويتجه كاتبنا إلى الأساسي سواء في تناوله لسياسة المقيم العام نوكَيس أم في تناوله لمواقف العاهل محمد الخامس المناهضة لڤيشي، ويصيب كبد الحقيقة في الخاتمة عندما يلاحظ انقساماً بين اليهود والمسلمين في ماي 1945 : فبينما تحتفل الملّاحات بسقوط برلين، تبكي المدن مذابح شمال

القسطنطينية. في هذا ٱلضبط المفعم دائماً بالمعرفة المتمكّنة والمتنبّه لانعطافات ظروف عائمة قبل الإنزال الأمريكي وبعده، كان بودّنا فقط أن نعرف المزيد عن هؤلاء الـ7500 يهودي أوربي الذين بحثوا عن رسوٍّ في ٱلمغرب قبل الانطلاق إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو عن ملاذٍ من الاضطهاد النازي والڤيشي فوقعوا (كم عددهم؟) في فخ (معسكرات الحجز شبه الاعتقاليّة) في المغرب الشرقي (وما علاقاتهم باليهود المغاربة)؟ كذلك ربّما كان يمكن إيلاء مزيد من ٱلانتباه ليهود ٱلجزائر كثيري العدد، خصوصاً في منطقة وجدة، والذين جرّدهم ڤيشي من الجنسية الفرنسيّة كما نعلم (نقض مرسوم كْرِيمْيُوه).

وهذه تحفّظات دنيا. لقد ٱطلع محمد كنبيب على كل الأدبيات المتوافرة عن موضوعه وتعاطى، بل لاحق أكداس الوثائق كلها التي يمكن أن تنوّره في الرباط وباريز ولندن وواشنطن. ولكنه لم يتمكن من الاطّلاع على وثائق الحركة الصهيونية : **منظّمة إعادة الاعتبار بالعمل، مؤسّسة إغاثة الطفولة، المنظمة الصهيونية العالميّة**. الأمر الذي لم يمنعه من تحليل مفصّل جدّاً للأحداث التي دفعت 20000 يهودي إلى مغادرة المغرب منذ 1948 ومن فكٍّ الحلقات التي نظّمتها. وذلك بالرغم من تعقّل حزب الاستقلال، والمحافظة على الاتفاق الودي بين وجهاء اليهود وأعيان المسلمين، ونداءات السلطان التي دعت اليهود المغاربة إلى المكوث في البلاد.

إن القارئ يخرج من هذا ٱلكتاب الزاخر بالمعرفة، راسخَ اليقين بأن العلاقات بين اليهود والمسلمين كانت حتى ٱلتمزّق النهائي سنة 1967 ذات كثافة وتعقيد يتحدّيان المختصرات ٱلتبسيطيّة والتهويل عن طريق الشعارات. وفي نهاية هذه المدّة التي تكاد تبلغ قرناً من الزمان والتي تَسِمُها سرعةُ التاريخ وتعقيدُه المدوِّخ في أثناء حدوثه، يبدو يهود المغرب صانعي تاريخهم وضحاياه في الوقت نفسه دون أن يُمْكِنَ بَعْدُ ربّما تمييزُ جانب المتحمّل والمغصوب والمجتثّ في هجرتهم الجماعية منذ 1948 من جانب المختار والمقبول والمضطَلع به. هذا الفصل الأخير الخاصّ بالعلاقات بين اليهود والمسلمين في المغرب بعد 1948 نراهن على ألّا أحد أجدر بكتابته من محمد كنبيب. وقد ذيَّل به نوعاً ما ذلك المُجْمَل الذي يقدّمه لنا، إضافةً إلى موضوعه بمعناه الحصريّ، عن هبوط المغرب ببطء في الحادث الاستعماري وٱجتيازه الحماية. وبعبارة أخرى، إن التاريخ الإجمالي للبلد هو الذي يعرضه علينا المؤلّف على مدى ما يقارب قرناً من الزمان من خلال زاوية العرض الضيقة التي ٱختارها. فما أندر مؤرخي الفترة المعاصرة الذين يغامرون في المغرب العربي في تاريخ بمثل هذا ٱلنَّفَس الطويل !

المصادر العربية لتاريخ المغرب

مُحمد المنوني
كلية الآداب ـ الرباط

المحاضرة الثالثة والعشرون
المصادر التاريخية المدونة في العصر العلوي الخامس
(1349ـ1376/1930ـ1956)

المرحلة الثانية

القسم الثاني (تابع)

نقط المحاضرة

- خ ـ مدونات الفتاوي والأحكام القضائية
- ذ ـ مصادر معربة
- ظ ـ الكناشات
- غ ـ الصحافة

خ ـ مدونات الفتاوي والأحكام القضائية

خلال هذه الفترة التي نعرض مصادرها، تابعت زمرة من الفقهاء نشاطهم في قطاع النوازل الشرعية. فالقضاة يصدرون الأحكام القضائية، والمفتون يحررون الفتاوي. وكان بين هؤلاء نخبة دونت أعمالها، فجمعوا أحكامهم وفتاواهم في سجلات منيت بعدم نشرها أو إيداعها في الخزانات العامة، وبذلك استمرت غميسة لدى أسر أصحابها، أو صارت إلى خزانات خاصة، فاحتجبت بذلك عن متناول الباحثين،

على ما يتخللها من إفادات تهم البحث التاريخي. غير أن المصير المؤلم لهذه المستندات لا ينبغي أن يكون ذريعة لإهمالها، وعلى الباحث استعمال الوسائل المشروعة للوقوف عليها. وهذا قُلّ من كُثْرٍ مما وصل إلى علمي من سجلات الأحكام والفتاوي الشرعية :

1849 ـ انطلاقا من «**مجموعة الفتاوي الشرعية**» للغازي : محمد بن الحسن بن محمد الصنهاجي ثم الفاسي، س.ذ.ق 1467، وهي موزعة بين عدة دفاتر.

1850 ـ «**مجموعة الفتاوي**»، للهلالي : محمد بن المبارك بن علي المكناسي، ت 1953/1372، دونها في أربعة أو خمسة دفاتر كبرى.

1851 ـ «**مجموعة الفتاوي**» لأبي بكر بن الطاهر زنيبر س.ذ.ق 1815 : في جزء واحد.

1852 ـ «**مجموعة الفتاوي**» للبناني : محمد بن عبد السلام بن الحسن الفاسي، ت 1956/1376: في أربع مجلدات.

1853 ـ «**النوازل البشيرية**» لمحمد البشير الفاسي، س.ذ.ق 1651 :

اِسم مجموعة الأحكام التي أصدرها مدة قضائية في قبائل بني زروال ثم بمدينة الجديدة وما إليها.

1854 ـ «**القطوف الدانية من الفتاوي التادلية**» لأحمد بن قاسم المنصوري، س.ذ.ق 1625 : دون فيها مجموعة من الفتاوي والأحكام التي صدرت عنه بهذه المنطقة.

1855 ـ «**مجموعة الفتاوي**» لابن الحاج : محمد بن محمد بن أحمد السلمي المرداسي الفاسي، ت 1968/1387. وقد كان جمعها وهيأها للطبع فحالت وفاته دون ذلك.

1856 ـ «**مجموعة الفتاوي**» للفاسي : الصديق بن أحمد بن الطاهر الفهري، ت 1975/1395.

1857 ـ «**الفتاوي الشرعية على النوازل القضائية بالإيالة المغربية**»،

للدكالي : عبد الرحمان بن أبي شعيب بن التونسي إسما العوني أصلا نزيل مراكش، ت 1976/1396.

1858 ـ «**مجموعة الفتاوي الفقهية**»، للترّاب : محمد بن محمد بن أحمد الرجراجي المكناسي ت 1986/1406 : في جزءين.

ونذيل هذه المجموعات بثلاث ملحقات :

1859 ـ بدءا من فتاوي بدر الدين بن محمد التاودي بن محمد الورياكَلي الدرداري ثم الفاسي ت 1933/1351، والقصد إلى بعض فتاويه وحكم قضائي واحد ضمن كناشة له محفوظة في خزانة خاصة.

1860 ـ «**المجموعة الفقهية في الفتاوي السوسية**»، من جمع رضى الله محمد المختار السوسي، س.ذ.ق 1619. استوعب فيها رصيدا من فتاوي فقهاء سوس انطلاقا من القرن الهجري 11، فبعث بذلك عددا مُهما من أجوبة فقهاء المنطقة المتأخرين، وفيهم محمد بن سعيد المرغيني، ومحمد بن أحمد الحضيكَي، وعبد الله بن عبد الرحمن التِّملي، وعمر بن عبد العزيز الكَرسيفي وسواهم، مما جعل هذا العمل بمثابة تذييل على مجموعات موضوعية سابقة، مما دونه زمرة من فقهاء سوس، أمثال السكتاني والثغاتيني والمنبهي والعباسي وغيرهم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، إعداد الأستاذ عبد الله الدرقاوي.

1861 ـ «**فتاوي فقهية وأحكام قضائية**» صادرة عن طائفة كبرى من فقهاء المغرب المعاصرين. في مجلد يشتمل على 423 ص في قطع كبير، بخطوط مغربية منوعة، وتواريخ مختلفة. تحتفظ بها خزانة خاصة رقم 801.

ذ ـ مصادر معرّبة

في الفترة التي نتناول مصادرها، نشطت حركة التعريب بالمغرب الشمالي، وتأسس ـ لهذه الغاية ـ في تطوان «مكتب الترجمة الإسباني العربي» بنيابة الأمور الوطنية، كما أن معهد مولاي الحسن بنفس المدينة، ساهم ـ بدوره ـ في الترجمة إلى العربية، ومن أعماله في هذه الإتجاه تعريب كتاب «**الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**» لأدم متز، بترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، مع كتاب «**تاريخ**

الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» ليوسف أشباخ، بتعريب عبد الله عنان، ثم تأسس بالعرائش معهد الخنرال فرانكو للدراسات والأبحاث الإسبانية العربية، فقام ـ من جهته ـ بعمل مماثل، وكان كل من المعهدين يتوفر على تراجمة مقيمين، ومنهم الأساتذة محمد عزيمان، وموسى عبود، وألفريد البستاني، ونجيب أبو ملهم...

ومن الجدير بالملاحظة، أن هذه المبادرات الرسمية إزاء الترجمة إلى العربية، لم يهتم بها حكام المغرب الجنوبي، فضعف بذلك مستوى هذه الحركة بالمنطقة السلطانية، وانحصرت في بعض الأعمال الفردية دون أي تشجيع رسمي.

وهذه لائحة محدودة بالمصادر المعربة في المنطقتين.

1862 ـ كتاب «**الأندلسيون بالمغرب**» للمستعرب الإسباني كاخيكاس، ترجمه ـ من الإسبانية ـ بنونة : الحاج عبد السلام بن الحاج العربي بن المهدي التطواني، ت 1935/1353، لا يزال مخطوطا في حوزة أسرة المؤلف.

1863 ـ «**محور السياستين**» للمستعرب الفرنسي أودينو، دون فيه مناقشات سياسية واجتماعية بين المغرب وفرنسا، ثم عربه ابن الشيخ : محمد بن الطيب الأموي، الفاسي، وجعل عنوانه «**حياة القائد عبد الله**» : (**ابن الجيلالي بوحمارة**)، المطبعة الجديدة بفاس 1928/1347، 231 ص في قطع صغير.

1864 ـ «**مسامرتان عن المغرب والأندلس أيام المرابطين والموحدين**»، قدمهما ـ بالفرنسية ـ الأخوان : جان وجيروم طارو، تعريب الأستاذين محمد الفاسي، س.ذ.ق 1624، وأحمد بن عبد السلام بلافريج الرباطي، ت 1410/ 1990، ووضعا لعملهما عنواناً دالا باسم «**أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين**». المطبعة الوطنية بالرباط 1349هـ، 143 ص متنا وتقديما وتذييلا، في قطع صغير.

1865 ـ «**موقف الأمة المغربية إزاء الحماية الفرنسية**»، كتبه بالفرنسية الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني، س.ذ.ق 1637، ونقله للعربية الشيخ محمد المكي الناصري، س.ذ.ق 1816، مطبعة الوحدة المغربية بطنجة 1946/1365، ونشر معه «**المغرب ضد الحماية**»، عمل الوزاني بالفرنسية، وتعريب الناصري.

يلحق هنا «**تاريخ إفريقيا الشمالية في العصر القديم**»، تأليف المؤرخ

الفرنسي لوكارد ديسو، المنشور باريس سنة 1864، وعربه من الفرنسية محمد بن محمد البزيوي ثم الفاسي، وقد مر ذكره في مناسبة أخرى عند رقم 1615.

ظ ـ الكناشات

وأهميتها في احتفاظها بإفادات دفينة تكشف عن حقائق تاريخية لم يتناولها المؤرخون العاديون بالمرة أو دونوها ناقصة. ولمزيد الإطلاع على الأهمية التاريخية لهذا النمط من المصادر، يحسن الرجوع إلى بحث بعنوان «**الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية**»، وخصوصا مقدمة هذا البحث وتعاليقه، مجلة **المناهل**، ع 2، 1975، ص. 196 ـ 232.

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض أصحاب هذا اللون من التاليف، لا يدونون كناشة واحدة، وإنما يتركون مجموعة منها قد تتجاوز العشرة.

1866 ـ ومن هؤلاء الإسم الذي يأتي فاتحة هذه النماذج : محمد بن أحمد العبدي الكانوني، س.ذ.ق 1642، فيذكر المؤرخ عبد السلام ابن سودة في دليله أن وقف للمنوه به على أزيد من خمسة عشر كناشة، ودخل لخزانته ستة منها بعد وفاته، وهي التي وقعت عليها، فرأيت في ستتها ـ المدونة بخط صاحبها في دفاتر مدرسية ـ ألوانا من الإفادات المهمة، ومنها مسودات بعض مؤلفات صاحب الكناشة، ووثائق وقصائد وأشعار يتصل غالبها بأخبار منطقة أسفي وما إليه، إلى موضوعات في الأنساب والتراجم والتاريخ بصفة عامة، مع صفحات ينقلها من كناشات المهتمين، ونسخ من رسوم بعض التركات، وما خلفه أصحابها من كتب، فضلا عن نسخ من ظهائر لأسرة الشيخ أبي محمد صالح دفين أسفي : من العصر المريني فما بعده... الكناشات في حوزة أسرة عبد السلام بن سودة.

1867 ـ كناشة فرفرة : محمد بن عبد القادر الأندلسي ثم الرباطي، ت 1371/ 1952، ملأى بالمعلومات النادرة، خصوصا عن تاريخ العدوتين الرباط وسلا خلال ق 20. وفي هذا الإتجاه يثبت المؤلف بعض النصوص والمؤلفات القصيرة، فضلا عن موضوعات في مواد منوعة، مغربية ومشرقية.

من مخطوطات مؤسسة علال الفاسي رقم 676 : 189 ص في دفتر كبير.

1868 ــ جونة العطار في طرف الفوائد ونوادر الأخبار لأبي الفيض أحمد بن الصديق الحسني س. ذ. ق 1686.

كناشة كبرى تطغى عليها الإفادات الحديثية متونا ورجالا، وبها ارتسامات المؤلف عمن خالطهم أو رءاهم بالمغرب، وبمصر والشام في رحلاته إليها، وما جرى له مع عدد منهم من المذاكرات والمناقشات، فضلا عن أخبار بعض نوادر الكتب التي وقف عليها، وغرائب بعض المدن التي دخلها. وبالكناشة عدد من المؤلفات الصغرى بنصها أو ملخصاتها، وإشارات لعدد من شيوخه المشارقة وبعض المغاربة، إلى انتقادات صارخة منوعة.

يعرف من الكناشة ثلاثة أسفار بخط المؤلف في المكتبة العامة بتطوان : الأول يحمل رقم 863 : 256 ص، والثاني : رقم 864 : 279 ص. الثالث : رقم :

1869 ــ كناشات لمحمد العابد بن عبد الله الفاسي س. ذ. ق 1664. يتجاوز عددها العشرة، وهي ــ حسب عبد السلام ابن سودة ــ جامعة لكل ما يستطاب ويستملح. في حوزة أسرة صاحبها.

1870 ــ كناشات عبد السلام ابن سودة مؤلف «**دليل مؤرخ المغرب الأقصى**» س.ذ.ق 1867. وصفها في «**الدليل**» بأنه جمع فيها جل ما استحسنه من الفوائد التاريخية وغيرها، مما شاهده واستوعبه. في حوزة أسرته.

1871 ــ ويلحق بالكناشات مجموعات مقالات للأستاذ عبد الله كَنون س.ذ.ق 1741 موضوعها العام هو الأدب والنقد من غير تقيد بمغرب أو مشرق، وقد أصدر منها ستة أجزاء، تحمل العناوين التالية :

1871 ــ «**التعاشيب**»، 18 مقالة، المطبعة المهدية، تطوان، دون تاريخ، 199 ص، في قطع متوسط.

1872 ــ «**واحة الفكر**»، مقالة، نفس المطبعة 1367/1948، 165 ص في قطع صغير.

1873 ــ «**خل وبقل**»، 22 مقالة، نفس المطبعة، دون تاريخ، 277 ص، في حجم صغير.

1874 ـ «**العصف والريحان**»، 22 مقالة، مطبعة كريما ديس، تطوان، 1969، 259 ص، في حجم صغير.

1875 ـ «**أزهار برية**»، 24 مقالة، مطبعة ديسبريس، تطوان، 1976، 196 ص، في حجم متوسط.

1876 ـ «**أشذاء وأنداء**»، 20 مقالة، مطبعة البوغاز، ش. م، طنجة، 1986، 201 ص، في حجم متوسط.

غ ـ الصحافة

استمرت فرنسا بعد فرض الحماية تعاكس مطالب النخبة الوطنية بحرية الصحافة وخصوصا الجرائد والمجلات العربية، مستعملة في ذلك مجموعة من العراقيل، مما حفز المهتمين إلى أن يلجأوا إلى الصحف العربية والمجلات المسموح لها بالوصول إلى المغرب، وكان من بينها «**الشهاب**» الجزائرية، و«**الزهرة**» و«**النهضة**» من تونس، وجرائد ومجلات من المشرق العربي وخصوصا مصر. وقد امتدت هذه الأزمة ضد حرية الصحافة حقبة طويلة حتى ناهزت 25 سنة، وفي عام 1937 سمحت الحماية الفرنسية بإصدار صحف ومجلات عربية حرة، غير أن غالبها لم يعمر طويلا من جراء متابعتها بمختلف الوسائل التي تعيق استمرارها. وفي ظل هذا الإنفراج القصير الأمد والمحفوف بالمخاطر، كان صدور أول صحيفة حرة : جريدة «**الأطلس**» بتاريخ 12 فبراير 1937، وفي المغرب الشمالي كان الإنفراج مبكرا نسبيا، فصدر بتطوان أول عدد من جريدة «**الحياة**» بتاريخ 1934/3/1.

وفيما يلي تعريف وجيز بكل واحدة من هذه الصحف الجديدة، موزَّعة في ذلك بين ثلاثة أصناف، كل صنف يسير ترتيبه حسب التسلسل التاريخي، وبعدها يأتي دور المجلات :

* **الجرائد :**

1877 : ـ «**الحياة**» ـ تطوان : أسبوعية تدافع عن المصالح القومية، تاريخ ظهورها 1352/11/15ـ1934/3/1، المدير ورئيس التحرير : عبد الخالق الطريس، ثم التهامي الوزاني، الصفحات : 8، توقفت عن الصدور عند العدد 77.

1878 ـ «**الأخبار**»، تطوان : أسبوعية وطنية جامعة، تاريخ التأسيس : 1354/12/21ـ1936/3/14، المدير : محمد داود، الصفحات : 8، توقفت عن الصدور.

1879 ـ «**الريف**» ـ تطوان : أسبوعية وطنية حرة سياسية ثقافية، تاريخ التأسيس : 1355/6/9ـ1936/8/27، المدير : التهامي الوزاني، الصفحات : 4، توقفت عن الصدور.

1880 ـ «**الوحدة المغربية**» ـ تطوان : لسان حزب الوحدة المغربية، تاريخ التأسيس : 1355/11/21ـ1937/2/3، المدير : عبد السلام التمسماني، المحرر : محمد المكي الناصري، الصفحات : من 4 إلى 8، ميعاد الصدور : مرتان في الأسبوع، توقفت عن الصدور.

1881 ـ «**الأطلس**» ـ بالرباط : لسان كتلة العمل الوطني، ثم لسان الحركة الوطنية لتحقيق المطالب، ثم لسان الحزب الوطني لتحقيق المطالب، تاريخ التأسيس: 1355/12/1ـ1937/2/12، المدير: محمد اليزيدي، الصفحات : 8، ميعاد الصدور : أسبوعية، وقفت عن الصدور عند العدد 35 بتاريخ 1937/10/14.

1882 ـ «**الحرية**» ـ تطوان : لسان حال الحزب الوطني للإصلاح، ت.ت.(*) :1356/1/1، المدير: أحمد غيلان، ثم مصطفى بن عبد الوهاب، رئيس التحرير : عبد الخالق الطريس، ثم محمد الخطيب، الصفحات : 8، ميعاد الصدور: أسبوعية ثم يومية، توقفت عن الصدور.

1883 ـ «**المغرب**» ـ سلا : يومية إخبارية سياسية، ت.ت. : 2/4/1356ـ1937/4/16، المدير: سعيد حجي، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : ثلاث مرات في الأسبوع.

ملاحظة : توفي مدير الجريدة فخلفه قاسم الزهيري ثم توقفت عن الصدور، وعادت بعد الإستقلال بإدارة عبد الكريم حجي، وأخيرا توقفت عن الصدور بالمرة.

(*) من هنا ستكون (ت.ت.) اختصاراً لعبارة تاريخ التأسيس.

1884 ـ «**الدفاع**» ـ فاس : لسان الحركة القومية، ت. ت. : 1356/6/23ـ1937/8/31، المدير: محمد بن الحسن الوزاني، المحرر : عبد الهادي الشرايبي، الصفحات : 6، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

1885 ـ «**العلم**» ـ الرباط : لسان حزب الِاستقلال، ت.ت. : 1946/9/11، المدير : عبد الجليل القباج ثم قاسم الزهيري ثم عبد الكريم غلاب، الصفحات : 4 في البداية، ميعاد الصدور : يومية، لا زالت تصدر.

1886 ـ «**الرأي العام**» ـ الدار البيضاء : لسان حزب الشورىٰ والِاستقلال، ت.ت. : 1947/4/16، المدير: أحمد بن سودة، الصفحات : 4 في البداية، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

1887 ـ «**الشباب المغربي**» ـ الرباط : لسان حال الشبان المسلمين، ت.ت. : 1947/1366، المدير: أحمد المعطي بوهلال، رئيس التحرير : علي محمد ملين، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : مرتان في الشهر، توقفت عن الصدور.

1888 ـ «**منبر الشعب**» ـ طنجة : لسان الدفاع عن المصالح المغربية، ت.ت. : 1368/9/8ـ1949/7/5، المدير : الحاج عبد السلام التمسماني، المحرر : محمد المكي الناصري، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : يومية، توقفت عن الصدور.

1889 ـ «**الأمة**» ـ تطوان : لسان حزب الإصلاح الوطني، ت. ت : 1371/8/6 ـ 1952/5/1، المدير : عبد الخالق الطريس، رئيس التحرير : محمد بن محمد الخطيب، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : ثلاث مرات في الأسبوع ثم يومية، توقفت عن الصدور.

1890 ـ «**الشعب**» ـ طنجة : («**منبر الشعب**» سابقا)، لسان حزب الوحدة والِاستقلال، ت.ت. : 1952/1371، المدير: محمد المكي الناصري، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : يومية في البداية، توقفت عن الصدور.

1891 ـ «**المغرب الحر**» ـ تطوان، لسان حال حزب المغرب الحر،

ت.ت.: 1952/1371، المدير : عبد السلام الطود، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

* * *

فهذه خمس عشرة جريدة، وغالبيتها ناطقة باسم هيئة من الأحزاب في شمال المغرب وجنوبه، ونضيف لها جريدتين شبه رسميتين من المنطقة الشمالية، وهما :

1892 ـ «**الأخبار**» ـ تطوان : إخبارية ثقافية مصورة، ت.ت : 29/3/1362ـ5/4/1943، المدير : عبد السلام العسري، رئيس التحرير : ألفريد البستاني، الصفحات : بين 4ـ6، ميعاد الصدور : يومية، توقفت عن الصدور.

1893 ـ «**النهار**» ـ تطوان : لسان حال المنطقة الخليفية، ت. ت : 1947/12/8، المدير : محمد أبو العيش بيضة، الصفحات : 8، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

* * *

وهذه الجرائد الناطقة باسم هيئات منوعة، نقفي عليها بالصحف المعبرة عن آراء مؤسسيها خاصة، ونقدمها حسب تسلسل ظهورها :

1894 ـ «**الوداد**» ـ سلا، ت.ت : 1356/4/15ـ 1937/6/24، المدير المحرر : محمد اشماعو، الصفحات : 4، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

1985 ـ «**راديو المغرب**» ـ فاس، أدبية فنية أسبوعية، ت.ت : ربيع 2 1356، يونيو 1937، المدير: عبد الواحد الشاوي، الصفحات : 4، توقفت عن الصدور.

1896 ـ «**العمل**» ـ الدار البيضاء : ت.ت. : 1937/4/15، المدير: عبد اللطيف الصبيحي. صدر منها أربعة أعداد ثم توقفت في السنة نفسها، وكان مؤسسها قد قدم طلباً للحماية لإصدار هذه الجريدة منذ 1933/1/18، ولم يتوصل بالترخيص إلاّ في سنة 1937.

1897 ـ «**التقدم**» ـ سلا، أسبوعية للأدب والثقافة والسياسة، ت.ت :

1357/6/1ـ1938/7/29، المدير المحرر: أحمد بن احساين النجار، الصفحات: 6ـ8، توقفت عن الصدور.

1898 ـ «**بريد الصباح**» ـ تطوان، يومية إخبارية، ت.ت : 1358هـ/ 1939م، المدير: محمد بن عبد الله الوزاني، الصفحات : 2، ميعاد الصدور : يومية، توقفت عن الصدور.

2/1898 ـ «**المرشد**» ـ الرباط.

1899 ـ «**مراكش**» ـ طنجة، إخبارية يومية، ت.ت: 12/23 /1365ـ 1946/11/18، المدير : أحمد البلغيتي التلمساني، عدد الصفحات : 4، ميعاد الصدور : مرتان في الأسبوع، توقفت عن الصدور.

1900 ـ «**الشهاب**» ـ تطوان، أسبوعية جامعية حرة، ت.ت: 1365/ 1946، المدير ورئيس التحرير: محمد العربي الشويخ، عدد الصفحات : 4، توقفت عن الصدور.

1901 ـ «**الدستور**» ـ تطوان، عربية قومية سياسية إخبارية، ت.ت: 3/17 /1367ـ1948/1/30، المدير ورئيس التحرير : إبراهيم الوزاني، عدد الصفحات : 4، ميعاد الصدور : مرتان في الأسبوع، توقفت عن الصدور.

1902 ـ «**المعرفة**» ـ تطوان، جريدة سياسية أسبوعية، ت.ت: 10 شعبان 1372ـ3 ماي 1953، المدير والمحرر: حسن أحمد المصمودي، عدد الصفحات : 4، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

* **المجلات** :

1903 ـ «**مجلة المغرب**» ـ الرباط، آقتصادية، صحية، أخلاقية، فكرية، إخبارية، ت.ت: 1351/3/1ـ1932/7/5، المدير ورئيس التحرير: محمد الصالح ميسة الجزائري نزيل المغرب، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور مرتان في الشهر، توقفت عن الصدور نحو 1937.

1904 ـ «**السلام**» ـ تطوان، مجلة شهرية مصورة جامعة، ت. ت : جمادى II 1352 ـ أكتوبر 1933، صاحبها ورئيس تحريرها : محمد داود، عدد

الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور مرتان في الشهر، توقفت عن الصدور عند الجزء العاشر

1905 ـ «**المغرب الجديد**» ـ تطوان : السلسلة الأولى، مجلة علمية لخدمة الثقافة المغربية، ت.ت : ربيع النبوي 1354 ـ يونيو 1935، رئيس التحرير: محمد المكي الناصري، عدد الصفحات : 48، ميعاد الصدور : مرة في الشهر، توقفت عند الجزء 9ـ10 (مزدوج) عند نهاية السنة الأولى.

1906 ـ «**المغرب الجديد**» ـ تطوان : السلسلة الثانية، مجلة أسبوعية لخدمة الثقافة المغربية، ت. ت : فاتح ربيع النبوي 1355 ـ ماي 1936، صاحب الامتياز : محمد العربي بن جلون، رئيس التحرير : محمد المكي الناصري، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور : نصف شهرية مؤقتا، توقفت عن الصدور.

ملاحظة : تبتدئ هذه السلسلة الثانية حيث وقفت الأولى، وقد كانت هذه وقفت عند الجزء 9ـ10 (مزدوج)، لتبتدئ السلسلة الثانية عند الجزء 11، بداية السنة الثانية، وصدرت في حجم أطول وصفحات أقل.

1907 ـ «**المجلة المغربية لإفريقيا الشمالية**» ـ الرباط، مجلة قانونية عربية فرنسية، ت.ت : 1935، المؤسس : پول زايس، عدد الصفحات مختلف، ميعاد الصدور : كل ثلاثة أشهر، توقفت عن الصدور ـ **ملاحظة** : لها نشرة بالعربية.

1908 ـ «**الإرشاد الديني**» ـ تطوان : مجلة إسلامية ثقافية، ت. ت: ذو القعدة 1357 ـ يناير 1939، المدير: محمد الطنجي، عدد الصفحات : 4، ميعاد الصدور : شهرية، توقفت عن الصدور.

1909 ـ «**مجلة الثقافة المغربية**» ـ الرباط ـ سلا، مجلة فكرية شهرية، ت.ت: غشت 1941، الإصدار: دار المغرب، عدد الصفحات: 48، ميعاد الصدور: شهرية، توقفت عن الصدور عند العدد 7 صفر 1361/فبراير ـ مارس 1942.

1910 ـ «**الثقافة المغربية**» ـ الرباط : للآداب والفنون والعلوم، ت.ت: 19 شعبان 1361ـ1 شتنبر 1942، المدير: أحمد ابن غبريط، المحرر : علال الجامعي، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور : شهرية، توقفت عن الصدور عند عدد : رجب ـ شعبان 1364/جوان ـ جويي 1945.

1911 ـ **«رسالة المغرب»** ـ الرباط، في العلم والأدب والإجتماع، ت.ت: 20 رمضان 1361ـ1 أكتوبر 1942، المدير : محمد غازي، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، توقفت عن الصدور عند العدد الخامس من السنة الثانية بتاريخ 1963/1/10ـ1944/1/7.

1912 ـ **«رسالة المغرب»** ـ الرباط، السلسلة الشهرية في العلم والأدب والإجتماع، ت.ت: شوال 1366 ـ غشت 1947، المدير: محمد غازي، رئيس التحرير: عبد الكريم غلاب، عدد الصفحات: مختلف، ميعاد الصدور: شهرية، توقفت عن الصدور عند عدد صفر 1372/نونبر 1952.

1913 ـ **«رسالة المغرب»** ـ الرباط، السلسلة الأسبوعية في العلم والأدب والإجتماع، ت.ت: 1368/4/22ـ1949/2/21، المدير: محمد غازي، رئيس التحرير: عبد الكريم غلاب، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور: مرة في الأسبوع، توقفت عن الصدور.

1914 ـ **«الأنوار»** ـ تطوان، مجلة شهرية للمسرح والسينما والراديو، ت.ت: شعبان 1365 ـ يناير 1946، صاحب المجلة: أحمد مدينة، المدير: محمد مدينة، رئيس التحرير: عبد الله كَنون، عدد الصفحات: 32، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، توقفت عن الصدور.

1915 ـ **«لسان الدين»** ـ تطوان، مجلة ثقافية جامعية، ت.ت: شعبان 1365 ـ يوليوز 1946، رئيس التحرير: محمد تقي الدين الهلالي ثم عبد الله كَنون، المدير المسؤول: أحمد بن عبد السلام هارون ثم محمد بن محمد ابن فريحة، عدد الصفحات : 16 ثم 24، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، توقفت عن الصدور.

ملاحظة : مؤسس المجلة هو الشيخ محمد تقي الدين الهلالي. ولما انتقل من تطوان إلى العراق، سلم تحريرها إلى الأستاذ عبد الله كَنون فقام بمهمته ابتداء من العدد الثالث.

1916 ـ **«الأنيس»** ـ تطوان، مجلة ثقافية فنية فكاهية، ت. ت : ربيع II 1365ـ مارس 1946، المدير : محمد المراكشي ثم محمد الجحرة، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور : مرتان في الشهر، توقفت عن الصدور عند عدد ماي 1953.

1917 ـ «**المعرفة**» ـ تطوان، مجلة مستقلة حرة، ت.ت : رمضان 1366ـ غشت 1947، المدير والمحرر: حسن أحمد المصمودي، عدد الصفحات : 24، ميعاد الصدور : نصف شهرية، توقفت عن الصدور خلال عام 1953/1372 وتحولت إلى جريدة «**المعرفة**» السابقة الذكر عند رقم 1902.

1918 ـ «**المغرب الإقتصادي**» ـ الدار البيضاء، مجلة عربية ـ فرنسية، تجارية، فلاحية...، ت.ت: 1948/1367، المدير: عثمان الفياش، عدد الصفحات : 44، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، توقفت عن الصدور.

1919 ـ «**القافلة**» ـ الدار البيضاء، مجلة شهرية جامعة، ت. ت : ربيع النبوي 1369 ـ يناير 1950، المدير المحرر: محمد علي الرحماني، عدد الصفحات : 20، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، توقفت عن الصدور.

1920 ـ «**الأثير**» ـ الدار البيضاء، نشرة تصدرها مصلحة الإذاعة العربية برادیو المغرب، ت. ت : أبريل 1950، المحرر: عبد الحفيظ الفاسي، الصفحات : 16، ميعاد الصدور: نصف شهرية، توقفت عن الصدور.

1921 ـ «**المصباح**» ـ تطوان، مجلة ثقافية علمية جامعة، ت.ت: مارس 1951، المدير ورئيس التحرير: محمد النجار، عدد الصفحات: 80، ميعاد الصدور: غير مذكور، توقفت عن الصدور.

1922 ـ «**الرابطة الرياضية**» ـ تطوان، مجلة رياضية أسبوعية، ت. ت: 1951، المدير: بركة المنتصر الريسوني، رئيس التحرير: محمد أحمد البوري، عدد الصفحات : 8، ميعاد الصدور : أسبوعية، توقفت عن الصدور.

1923 ـ «**العدوتان**» ـ طنجة، مجلة شهرية مزدوجة اللغة، للثقافة المغربية/ الأندلسية، ت.ت: ربيع 1ـ2 1952/1371، المدير المسؤول : عبد الكبير بن عبد الحفيظ : الفهري الفاسي، عدد الصفحات : 96، ميعاد الصدور : مرة في الشهر، صدر منها عدد واحد.

1924 ـ «**الحديقة**» ـ تطوان، مجلة ثقافية أخلاقية، ت.ت: فاتح جمادى I. 1374 ـ دجنبر 1954، المدير: محمد بوخبزة، الصفحات: 36، ميعاد الصدور: مرة في الشهر، وقفت عن الصدور عند العدد 5 بتاريخ رمضان 1374ـ 1955.

1925 ـ «**النبراس**» ـ تطوان، مجلة ثقافية جامعة، المدير العام : أحمد محمد بلقات، رئيس التحرير: محمد أحمد اللواح، سكرتير التحرير: محمد الأسكرمي، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور: كل شهر مؤقتا، توقفت عن الصدور.

* **ملاحق صحفية :**

1926 ـ «**ملحق جريدة المغرب**»، سابقة الذكر، (1883) ـ سلا، مجلة للثقافة المغربية، ت. ت : 3 صفر 1357ـ7 أبريل 1938، المدير والمحرر: سعيد حجي، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور: مرتان في الأسبوع، صدر منه 19 عددا.

1927 ـ «**الأعداد الممتازة**» من جريدة «**المغرب**» ـ سلا، للثقافة المغربية، ت.ت: 11 القعدة 1358ـ23 ديسمبر 1939، المدير والمحرر: سعيد حجي، عدد الصفحات : مختلف، ميعاد الصدور: مرتان في الشهر، صدر منه ما يقرب من 20 عددا.

1928 ـ «**النبوغ**» ملحق جريدة «**السعادة**»، سابقة الذكر (1153) ـ الرباط، مجلة علمية، تاريخية، أدبية...، ت. ت: جمادى I. 1358 ـ يوليوز 1939، المدير: غير مذكور، عدد الصفحات: مختلف، ميعاد الصدور: كل شهر، صدر منه عددان وتوقف عن الصدور.

* **الصحافة السرية :**

1929 ـ جريدة «**الوداد**» السرية ـ سلا، ت. ت : رجب 1346ـ يناير 1927، المساهمون: جماعة من الشبان من مختلف المدن المغربية، ويكتبونها بأيديهم، الصفحات : غير مذكورة، ميعاد الصدور: أسبوعية، استمرت في الصدور أكثر من 4 سنوات.

1930 ـ جريدة «**المدرسة**» ـ سلا، أسبوعية.

1931 ـ جريدة «**الوطن**» ـ سلا.

ملاحظة : من المساهمين السلويين بالكتابة في هذه الجرائد الخطية الأساتذة محمد اشماعو والمرحوم سعيد حجي وبوبكر القادري والصديق بلعربي رحمه الله.

1932 ـ مناشير الأحزاب الوطنية بالمغرب الجنوبي والشمالي.

1933 ـ «**حياة الشعب**» لسان الحزب الشيوعي المغربي.

ونتتقل ـ بعد هذا إلى فاس، وقد أشارت المحاضرة 22 إلى صحافتها السرية صدر الثلاثينيات، وخلال الأربعينيات نشطت مجموعة من طلبة القرويين للمساهمة في هذا التوجه، فيعرف ـ الآن ـ من عملهم إصدار صحيفتين إثنتين، ونظرا لطبيعة السرية خلت كل من النشرتين من إسم المدينة الصادرة بها، ومن إسم المدير والمحرر، كما أن كتابهما يذيلون مقالاتهم بأسماء مستعارة.

1934 ـ وكانت أولى الصحيفتين باسم «**صوت الشباب**»، جريدة إسلامية نصف شهرية، والمعروف منها ـ الآن ـ هو العدد الأول الصادر عام 1362/ «1943»، في ثمان صفحات مكتوبة بخط اليد.

1935 ـ أما الثانية فتحمل إسم «**القرويين**»، مجلة شهرية للثقافة وتنوير الأفكار، ظهر العدد الأول منها في رجب 1365/جوان 1946، ويتصدر صفحتها الأولى صورة جلالة الملك محمد الخامس، مع فقرة من إحدى خطبه، والمعروف منها ـ اليوم ـ هو العدد الأول المكتوب بالآلة الراقنة.

* * *

إستدراك

نستدرك هنا على قسم الصحافة المأذونة الجرائد والمجلات التالية في مسرد مقتضب :

1936 ـ «**المرشد**» ـ الرباط، جريدة أسبوعية جامعة، ت.ت : 1944، توقفت عن الصدور.

1937 ـ «**الهدى**» ـ تطوان، أسبوعية تصدرها نخبة من أعضاء جمعية زهرة الأدب المغربية، ت. ت : 1944، توقفت عن الصدور.

1938 ـ «**المغربي**» ـ الدار البيضاء، جريدة أسبوعية مستقلة، ت.ت : 1946، توقفت عن الصدور.

1939 ـ «**المعتمد**» ـ العرائش، مجلة أدبية عربية إسبانية شهرية، ت.ت: 1947، توقفت عن الصدور.

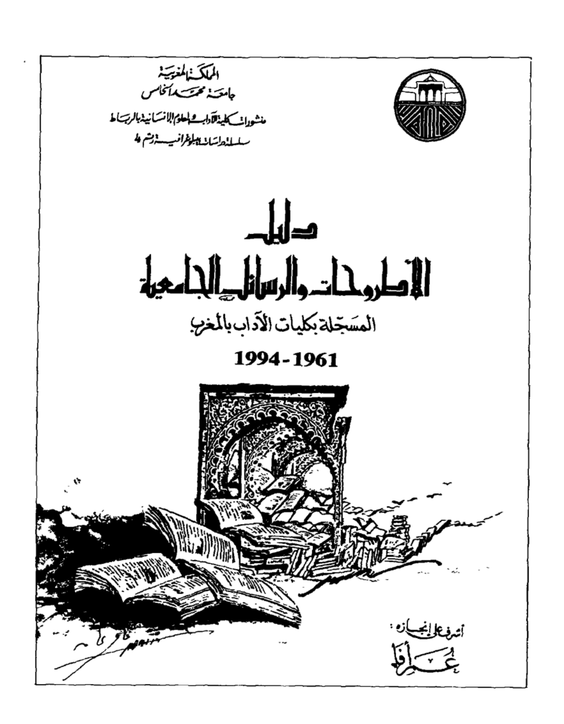
1940 ـ **«العلوم والفنون»** ـ طنجة، مجلة نصف شهرية للثقافة العصرية، ت.ت : 1951، توقفت عن الصدور.

1941 ـ **«العزيمة»** ـ الدار البيضاء، جريدة أسبوعية، ت.ت : 1951، توقفت عن الصدور.

1942 ـ **«القيامة»** ـ فاس، جريدة يومية، ت. ت : 1952، توقفت عن الصدور.

1943 ـ **«كتامة»** ـ تطوان، ملحق أدبي لمجلة تمودة، ت. ت : 1953، توقف عن الصدور.

1944 ـ **«المطرقة»** ـ الرباط، جريدة أسبوعية، ت. ت : 1954، توقفت عن الصدور.



المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة دراسات ببليوغرافية رقم 4

دليل
الأطروحات والرسائل الجامعية
المسجلة بكليات الآداب بالمغرب
1994 - 1961

أشرف على إنجازه :
عمر أفا



يسعدنا أن نزف إلى عموم الأساتذة الباحثين والطلبة أن كلية الآداب بالرباط أصدرت ضمن منشوراتها كتاب **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية لكليات الآداب ما بين 1961 و1994**. ولقد تم إنجاز هذا الدليل بتعاون مع مصالح الدراسات العليا بمختلف كليات الآداب بالمغرب.

وكانت الحاجة إلى هذا الدليل ملحة، نتيجة تزايد أفواج الباحثين المنتمين إلى مختلف التخصصات في الآداب والعلوم الإنسانية؛ ونظرا لاتساع آفاق هذه العلوم وتعدد لغاتها، فقد حصل تراكم في الأطروحات والرسائل الجامعية التي دأبت هذه الكليات على الإشراف عليها، ما بين رسائل مسجلة وأخرى مناقشة، وظهرت مشكلة مستجدة تتلخص في كون الكثير منها يتكرر تسجيله شكلا ومضمونا في أكثر من كلية دون أن تملك إدارة هذه الكليات ولا أساتذتها المشرفون ولا الطلبة الباحثون أداة لمعرفة ما إذا كانت المواضيع التي يقترحونها للتسجيل بإحدى الكليات غير مسبوق إليها في كليات أخرى.

فجاء هذا الدليل ليشكل هذه الأداة في أيدي الأساتذة والطلبة وفي الوقت نفسه ليعرف بما أنتجه الفكر المغربي من دراسات منهجية في مجالات اللغة العربية والدراسات الإسلامية، والتاريخ والجغرافية والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس وفي مجال اللغات والآداب الأجنبية.

وقد قررت الكلية تعزيز هذا الإصدار بالقيام :

1 ـ بإصدار ملحق سنوي يستوعب ما استجد من الأطروحات والرسائل بمختلف الكليات.

2 ـ بإحداث مركز لتخزين ومعالجة قوائم الرسائل الجامعية بالحاسوب قصد وضعها رهن إشارة الطلبة والباحثين ابتداء من مستهل سنة **1997**.

قائمة الأطروحات والرسائل الجامعية

المناقشة والمسجلة بكلية الآداب بالرباط

القسم العاشر لسنة 1995

إعداد مصلحة النشر

نشرت مجلة الكلية الأقسام السابقة من هذه القائمة في الأعداد الماضية :

القسم الأول	: العدد السابع	: صفحات 289 ـ 305
القسم الثاني	: العدد الثاني عشر	: صفحات 221 ـ 241
القسم الثالث	: العدد الثالث عشر	: صفحات 291 ـ 307
القسم الرابع	: العدد الرابع عشر	: صفحات 231 ـ 249
القسم الخامس	: العدد الخامس عشر	: صفحات 239 ـ 274
القسم السادس	: العدد السادس عشر	: صفحات 253 ـ 273
القسم السابع	: العدد السابع عشر	: صفحات 167 ـ 193
القسم الثامن	: العدد الثامن عشر	: صفحات 219 ـ 247
القسم التاسع	: العدد التاسع عشر	: صفحات 229 ـ 264

وننشر ضمن هذا العدد القسم العاشر الخاص بالأطروحات والرسائل لسنة 1995، وذلك حسب التصنيف التالي :

I ـ دكتوراه الدولة

ترتيب المواد حسب تخصصات الشعب

1 ـ الأطروحات المناقشة

2 ـ الأطروحات المسجلة

II ـ دبلوم الدراسات العليا

ترتيب المواد حسب تخصصات الشعب

1 ـ الرسائل المناقشة

2 ـ الرسائل المسجلة

ملاحظة : نُشرت الأقسام التسعة الأولى ضمن : **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية بكليات الآداب بالمغرب**، وينشر القسم العاشر ضمن **ملحق** خاص بالدليل لسنة 1995.

I ـ دكتوراه الدولة

أولا : اللغة العربية وآدابها

الأطروحات المسجلة

أ ـ الأدب

موضـــوع الأطـروحــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
الشعراء المعمرون من الجاهلية إلى نهاية القرن الأول الهجري.	مولاي علياالخاميري	إبراهيم المزدالي	95/01/26
«نزهة المتعلم وراحة المتألم» لعبد الله بن أحمد بن محمد ابن عبد المالك القاضوي اليحيوي المتوفي عام 1203هـ ـ دراسة وتحقيق.	محمد الوهابي	محمد مفتاح	95/06/01
الصلات الثقافية بين الأندلس والمشرق العربي.	سعيد لمرابطي	محمد بنشريفة	95/06/05
مناهج الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب في سنوات الثمانين.	محمد احميد	محمد عبد الاوي	95/10/10
المديح السلطاني عند شعراء شنقيط على عهد العلويين.	بوبكر أولياس	نجاة المريني	95/12/05

ب ـ اللسانيات

موضـــوع الأطـروحــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
الإضمار في اللغة العربية	محمد ضامر	عبد القادر الفاسي الفهري	95/02/24

ثانياً : اللغة الفرنسية وآدابها

الأطروحات المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
01/02/95	A. ZEGGAF et A.M. ALAOUI	Viviane MICHEL	La littérature coloniale au Maroc et l'Islam.
08/03/95	K. Mouhsine et B. MEYER	Ilias ZELLOU	L'énoncé analogique balzacien dans *Illusions perdues* et *Splendeurs et misères des courtisanes.*
20/04/95	Abdellah M'D. ALAOUI	Hamid AIDOUNI	*Les Mille et une nuits,* stratégies de lecture et d'interprétation.
12/07/95	A.M. ALAOUI et M. RAIMOND	DINIA Khalid	Production romanesque et vision du monde chez Proust.
12/10/95	Mohamed El BEKKALI-YEDRI	Fatima Zahra SALIH	La parole conquise ou l'écriture romanesque au féminin : C. Cixous, M. Duras, N. Sarraute, D. Rolin.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
03/07/95	Ahmed BOUKOUS	Aïcha BOUHJAR	Bilinguisme et migration : le cas des Marocains à Bruxelles.
04/07/95	Ahmed El MOUTAOUAKIL	Mohamed BOUIDEH	Pragmatique et modélisation linguistique: la grammaire fonctionnelle comme exemple.
12/10/95	E. MOUJAHID et J. GUERON	Mostafa RECHAD	Typologie des pronoms : étude sur l'interface, syntaxe, morphologie.
03/11/95	E. MOUJAHID et G. BOHAS	Abdellah CHEKAYRI	Contribution à une réorganisation du lexique et de la grammaire de l'arabe.

رابعاً : اللغة الإنجليزية وآدابها

الأطروحات المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
19/10/95	Fouzia RHISSASSI	Mostafa EL MOUJIL	The Meaning and Critical Implications of Shakespeare's Departures from His Sources in the tragedies.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
03/11/95	Abdesslam ELHAKKOUMI	Moustapha TALAY	Pragmatic Knowledge and the Role of Metacognition in the acquisition of Pragmatic Competence in Foreign Language.

سابعاً : الدراسات الإسلامية

1 ـ الأطروحات المناقشة

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع الأطروحة
95/06/30	فاروق حمادة ومحمد بلبشير	علي بن محمد يوسف	أثر السنة النبوية في الحياة الفكرية الإسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى.
95/07/12	فاروق حمادة	عبد الرزاق هرماس	الاتجاه العلمي في التفسير أدواره وأصوله دراسة تاريخية ومنهجية في ضوء علوم القرآن.
95/07/19	فاروق حمادة	محمد علي بن الصديق	عبد الرحمان بن القاسم وأثره في الفقه المالكي.

2 ـ الأطروحات المسجلة

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع الأطروحة
95/03/14	قاسم الحسيني	عبد السلام بكاري	اتجاهات العلماء المغاربة في تأويل آيات العقيدة خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة.
95/03/14	إبراهيم ابن الصديق	علي إسماعيل تمام	زوائد الحافظ أبي العلاء إدريس العراقي الفاسي (ت 1183 هـ) على الجامع الكبير للحافظ السيوطي ـ دراسة وتحقيق.
95/06/28	فاروق حمادة	محمد عزيز الوكيلي	المدارس الباطنية بين العلم والفلسفة والعقيدة والدين.

ثامنا : التاريخ

1 ـ الأطروحات المناقشة

التاريخ	الأستاذ المشرف	اسم الباحث	موضوع الأطروحة
95/07/11	إبراهيم بوطالب	بوشتى بوعسرية	مكناس المدينة الجديدة التأسيس، البنيات الإدارية، التناقضات (1911ـ1932).
95/12/16	إبراهيم بوطالب	فاضل محمد عبد الحسين	العلاقات البريطانية العمانية 1913ـ1939.

2 ـ الأطروحات المسجلة

موضوع الأطروحة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
سوس والمخزن ما بين 1672ـ1790.	محمد حنداين	محمد حجي	95/02/13
العلاقات الفرنسية والإسبانية بالمغرب في عهد الحماية (1912ـ1956).	عبد الجليل ظريف	محمد أمين البزاز	95/02/14
المرأة والمجتمع (1822ـ1930).	فاطمة العيساوي	عبد الله العروي	95/02/14
النظام الجبائي المغربي (1859ـ1912) ـ دراسة وثائقية.	محمد نجيدي	عبد الله العروي	95/06/02
مراكش في القرن التاسع عشر.	مولاي حسن كفناني	إبراهيم بوطالب	95/06/02
المغرب الشرقي أبحاث في الأركيولوجيا.	مبروك الصغير	محمد حمام وحودية حصار	95/06/02
العمارة الإسلامية في جنوب ليبيا ـ دراسة تاريخية أثرية لواحتي زويلة ومرزق.	عبد السلام أبوبكر محمد لاغا	ع العزيز توري وم. حمام	95/07/14
مساهمة في دراسة تاريخ التصوف المغربي: الحركة الصوفية بمنطقة سوس الأقصى ما بين القرنين 16 و19م.	حمد بومزكو	فاطمة الحراق ومحمد المنصور	95/12/07

تاسعا : الجغرافية

1 ـ الأطروحات المناقشة

موضوع الأطروحة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
إنتاج وهيكلة المجال الحضري بمدينة الدار البيضاء.	المصطفى شويكي	أحمد الغرباوي	95/03/20
دراسة تحليلية لظواهر الجو الغبارية في محافظة البصرة ـ جمهورية العراق.	عدنان هزاع رشيد البياتي	أحمد الغرباوي	95/06/12

2 ـ الأطروحات المسجلة

موضوع الأطروحة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
المدن الصغرى والمتوسطة ودورها في الهيكلة المجالية لمنطقة الغرب.	امبارك الشيكر	إسماعيل العلوي	95/02/01
ظاهرة التصحر واستراتيجيات محاربة زحف الرمال بالجنوب الشرقي المغربي ـ نموذج القسم الغربي من حوض الرشيدية بودنيب.	خديجة الحارث	عبد الله العوينة وموح الرجدالي	95/10/05
Télédétection et SIG pour la gestion et la recherche en eau dans deux bassins test : Tensift et Moulouya.	حنيفة جابري	عبد الله العوينة وم. مسلم القباج	95/11/20

عاشراً : الفلسفة

الأطروحات المسجلة

موضـــوع الأطـروحــة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
مسألة الدولة في الفكر العربي المعاصر.	عبد الإله بلقزيز	سعيد بنسعيد العلوي	95/01/05
مسألة الحد بين المنطق والميتافيزيقا عند ابن رشد.	محمد مساعد	طه عبد الرحمن	95/02/10
التحولات النظرية للثقافة السياسية الوطنية بالمغرب.	فريد الوهابي	محمد سبيلا	95/06/07
النخبة المثقفة المغربية وإشكالية التحديث : الثابت والمتحول في علاقة النخبة الثقافية المغربية المعاصرة بالدولة والمجتمع وموقفها من إشكالية التحديث.	عبد السلام حيمر	محمد سبيلا	95/07/03

حادي عاشراً : علم الإجتماع

الأطروحات المسجلة

موضـــوع الأطـروحــة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
الشباب وتوجهات المستقبل: مقاربة سوسيولوجية لمشروع المهنة وتمثل المستقبل لدى الشباب.	المصطفى محسن	محمد جسوس	95/09/26

ثاني عاشر : علم النفس

الأطروحات المسجلة

موضـــوع الأطـروحــة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
دور الجماعة في تكوين القيم الإنتاجية والتعاونية لدى الفرد في الوسط القروي ـ الجماعة التعاونية الفلاحية ـ كحالة دراسة نفسية اجتماعية. المهنة وتمثل المستقبل لدى الشباب.	المصطفى بوشفرة	المصطفى حدية	95/01/26
مستوى الطموح وعلاقته بالإنعصاب لدى المرأة العاملة (دراسة نفسية اجتماعية ميدانية على ضوء بعض المتغيرات).	محمد الكير	مبارك ربيع	95/11/14

II ـ دبلوم الدراسات العليا

أولاً : اللغة العربية وآدابها

1 ـ الرسائل المناقشة

أ ـ الأدب

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
شعر التوسل في موريتانيا في القرن الثالث عشر الهجري (18ـ19 م).	أحمد بابا ولد الطالب	فاطمة طحطح	95/01/20
«رسالة الصاهل والشاحج» ـ دراسة نقدية.	عبد الإله مويلي	علال الغازي	95/02/22
«الأنيس النفيس المغني عن الجليس» لأبي القاسم الزياني 1147ـ1249هـ/1734ـ1833م ـ تقديم وتحقيق.	فاطمة فكراش	علال الغازي	95/02/28
المدرسة الإلغية وإشعاعها الأدبي في سوس.	المهدي السعيدي	علال الغازي	95/03/07
الشعر الحر بين الإبداع والنقد ـ دراسة وتحليل : نازك الملائكة نموذجا.	حسن عمراوي	أحمد الطريسي	95/04/06
الخطاب التكويني ـ محاولة في تأسيس نموذج لما قبل النص.	عبد الباسط لكراري	أحمد الطريسي	95/04/07
نصوص الكرامات في الأدب المغربي خلال القرن السادس الهجري.	عبد الحميد شهبون	محمد بنشريفة	95/04/25
«النشر الطيب من منظومة الشيخ الطيب» لأحمد بن محمد الرهوني ـ تقديم وتحقيق.	عبد العزيز الطاهري	ثريا لهي	95/04/27
شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني : جمع وتحقيق ودراسة.	نور الدين هريشي	محمد بنشريفة	95/05/22
ديوان المقري أشعاره ومنظوماته ـ جمع وتقديم وتحقيق.	صباح الخطابي	علال الغازي	95/05/24
المدن في الشعر الأندلسي.	ليلى موراي	محمد بنشريفة	95/05/24
الحيوان في الشعر الأندلسي.	سعيد التقيفي	محمد بنشريفة	95/05/25
«كتاب ثمرة أنسي في التعريف بنفسي» لسليمان الحوات، 1160ـ1231 ـ دراسة وتحقيق.	جهيد شداد	علال الغازي	95/05/26
«اختصار وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لأبي القاسم بن محمد بن طركاط العكي.	نادية أبو رحيم	أحمد شوقي بنبين	95/05/29
مستويات الوعي في أعمال عبد الكريم غلاب الروائية (نحو مقاربة سوسيونقدية).	فاطمة كدو	أحمد اليبوري وسعيد يقطين	95/06/27
تحقيق وتقديم كتاب «اقتطاف الزهر واجتناء الثمر» لأبي الحسن علي بن محمد بن علي التازي المعروف بابن بري.	طيفة حسناوي	محمد بنشريفة	95/06/29

موضـــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستـاذ المـشـرف	التاريـخ
الرجز في الأندلس.	المهدي لعرج	ثريا لهي	95/07/03
النص الروائي العربي واشتغال التراث السردي.	عبد السلام أقلمون	أحمد المعداوي وحسن بحراوي	95/06/23
أبو القاسم الشابي والتحديث الشعري.	فاطمة عماري	محمد بنيس	95/07/07
تقديم وتحقيق لكتاب «شرح ما في صدر المقامات من المعاني واللغات» للشريشي.	بشرى الحلوة	محمد بنشريفة	95/07/11
اشتغال المتخيل في الرواية المغربية (بدر زمانه) نموذجا.	أحمد بن اشريف	سعيد علوش	95/07/12
ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية : ج 2 للشيخ محمد الغيث النعمة ـ تقديم وتحقيق.	محمد المختار المداح	محمد بنشريفة	95/07/13
«الدر الثمين في مبحث التضمين» تأليف عبد الله بن عبد الرحمان الدنوشي (ت 1025) ـ تقديم وتحقيق.	كريمة اشطيطح	علال الغازي	95/09/21
النقد الأدبي التطبيقي للشعر في المغرب من خلال شروح القرنين 13 و14 هـ.	شريفة حافظي علوي	عباس الجراري	95/10/02
شعر شاعر الريف محمد بن علي الوكيلي بولحية (جمع ـ تحقيق ـ دراسة).	عمر الصابري	أحمد الطريسي	95/10/06
المدينة في الشعر العربي بالمغرب (1912ـ1956).	جمال بنسليمان	عباس الجراري	95/10/09
«تحقيق شرح القصيدة الشمقمقية» تأليف الأديب أبي فارس عبد العزيز بن محمد الأدوزي.	محمد علي عطفاي	علال الغازي	95/10/11
غرض المدح من شعر محمد عبد الله ولد اعبيد الرحمن ـ جمع وتحقيق ودراسة.	اخديج بنت لداعة	محمد بنشريفة	95/10/13
ديوان مولاي الطيب العلوي ـ تقديم وتحقيق.	محمد منصوري	أحمد الطريسي	95/10/17
أدب الرحلة في بلاد شنقيط خلال القرنين 13 و14 هـ (18ـ19م) ـ مقاربة وتنظير.	محمدن بن أحمد بن المحبوبي	محمد بنشريفة	95/10/19
مفهوم الحداثة في تنظير الشعر العربي الحديث ـ قراءة في الأصول المرجعية.	كمال أحمد	أحمد الطريسي	95/10/26
ديوان عمارة اليمني ـ دراسة وتحقيق.	عبد الحميد البقالي	أحمد شوقي بنبين	95/11/10
مقاربة أسلوبية للقصيدة الشعرية عند المتنبي.	الحسين أوشني	إدريس بلمليح	95/11/20
الفكاهة والتندُّر بالهجاء في الأدب الأندلسي.	علي البقالي	ثريا لهي	95/11/23
حركة الإستغلاب وأثرها في الشعر الأندلسي خلال القرنين السابع الهجري.	عبد العزيز عماري	ثريا لهي	95/11/30
أفق الكتابة الشعرية عند بدر شاكر السياب.	أحمد باعسو	محمد برادة	95/12/01
الرومانسية الواقعية في شعر الشابي.	مينة مناش	أحمد الطريسي	95/12/12
مقاربة سوسيونقدية لنماذج روائية مغربية : «عين الفرس» ـ «المباءة» ـ «أوراق».	سعاد بنعمرو	اليبوري	95/12/14

ب ـ اللسانيات

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
اكتساب اللغة عند الطفل : الطفل العربي نموذجا.	بشرى الفكيكي	عبد القادر الفاسي	95/01/31
بعض الجوانب النظرية في المعجم العربي : معجم الألوان نموذجا.	فاطمة أبركان	عبد القادر الفاسي الفهري	95/06/19
الفراء وآراؤه النحوية واللغوية من خلال كتابه «معاني القرآن».	عبد الحكيم العصامي	التهامي الراجي	95/06/30
ظواهر لغوية ومعجمية في شعر النابغة الذبياني.	مليكة طويل	عبد العلي الودغيري	95/07/20
معجم العربية الجاهلية : المعلقات السبع.	محمد البوقاعي	عبد العلي الودغيري	95/07/20
القالب العاملي في اللغة العربية.	محمد الراضي	عبد القادر الفاسي الفهري	95/10/27
مصدر الثلاثي في اللغة العربية ـ دراسة صرفية.	عبد الرزاق تورابي	عبد القادر الفاسي الفهري	95/11/15
الإعراب في الأفعال : بحث في المقاولات الصرفية.	خالد الأشهب	عبد القادر الفاسي الفهري	95/11/29

2 ـ الرسائل المسجلة

أ ـ الأدب

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
الصورة الشعرية عند مسلم بن الوليد.	الزهراء الجباري	محمد عبدالاوي	95/01/12
تجليات غرض شعر الصيد من خلال «المفضليات والأصمعيات» (دراسة نصية للمكان والزمان والحيوان).	محمد الكاسي	محمد عبدالاوي	95/01/18
مدخل إلى الكوديكولوجيا ـ ترجمة وتقديم.	مصطفى طوبي	أحمد شوقي بنبين	95/01/24
اليهود المغاربة في الدراسات الفرنسية ما بين 1900ـ 1994.	عبد السلام شرماط	أحمد شحلان	95/02/08
كتاب «زهر الأكم في الأمثال والحكم» للحسن بن سعود اليوسي ـ تقديم وتحقيق الجزء الثالث.	عبد الإله المزيتي	محمد عبدالاوي	95/02/08
التعدد اللغوي عند هاني الراهب.	عبد المجيد الحسيب	فاطمة طحطح	95/02/15
الصوت في شعر الجاهلية وصدر الإسلام.	طامو آيت مبارك	إبراهيم المزدالي	95/02/24
الأغراض الشعرية في النقد العربي القديم، من القرن الثالث إلى القرن الثامن الهجريين ـ نحو مقاربة تصنيفية.	بوبكر بعاض	أحمد يزن	95/02/24
القصيدة المدحية الأندلسية في العصرين المرابطي والموحدي.	فاطمة بنعمارة	فاطمة طحطح	95/03/21
التآليف الأندلسية في فن السياسة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.	محمد مداد	ثريا لهي	95/04/04

موضـــوع الرســالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
الموقف الشعري عند الشعراء الصعاليك : شعر عروة بن الورد ـ دراسة تحليلية في اللغة والدلالة.	محمد الشبي	محمد عبدالاوي	95/04/11
علاقة العجائبي والإيديولوجي في الرواية العربية.	حميد رزقي	فاطمة طحطح ونجيب العوفي	95/04/12
إشكال التلقي في التراث النقدي : جهاز القراءة عند ابن قتيبة نموذجا.	زينب العناشي	إدريس بلمليح	95/04/19
دراسة نصية إحصائية لشعر اللصوص الصعاليك : مالك بن الريب ـ عبدة بن الطبيب ـ القتال الكلابي ـ الأعلم الهذلي ـ الشنفري.	خديجة كربرب	إبراهيم المزدالي	95/04/19
الأصمعي وتلقي النص الشعري القديم مدخل إلى جمالية تلق عربية.	خاليد لوزيعا	إدريس بلمليح	95/04/19
بنية المستويات اللغوية في شعر المدح النبوي ـ دراسة من خلال شعر الشيخ إبراهيم نياس السنيغالي.	عمر تيام	إدريس بلمليح	95/05/29
النزعة الدينية في الشعر الأندلسي خلال القرنين السابع والثامن للهجرة.	حليمة هلال	عبد الباقي بنجامع	95/06/01
النثر الفني في القرن 8 م.	حفيظة خمار	عبد الباقي بنجامع	95/06/01
منتخب من كتاب «درر الآداب ومحاسن ذوي للألباب»، تأليف الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه ابن أيوب ـ تقديم وتحقيق.	ثورية حريشي	علال الغازي	95/06/02
مظاهر التجريب في الرواية المغربية: أحمد المديني نموذجا.	خديجة زروالي	أحمد اليبوري وحسن بحراوي	95/06/22
الخطاب الروائي من خلال أعمال صنع الله إبراهيم.	سعاد العابوسي	فاطمة طحطح وسعيد يقطين	95/06/23
اشتغال المحكي في الرواية العربية الحديثة من خلال بعض النماذج.	عبد العزيز ضويو	المصطفى الشاذلي وحسن بحراوي	95/06/23
الإيقاع في شعر محمد بنيس.	عائشة جابر	إدريس بلمليح	95/06/28
ظاهرة البؤس في شعر الحطيئة مقاربة نفسية.	الولة لعويفي	محمد عبدالاوي	95/06/28
«فتح المغلق من أرجوزة ابن أبي الشمقمق» لمحمد بن محمد بن عبد السلام بناني ـ دراسة وتحقيق.	حفيظة مزرعات	علال الغازي	95/06/28
خطاب نقد النقد المغربي المعاصر بين التأسيس المنهجي والتأصيل المعرفي.	أحمد القصوار	المصطفى الشاذلي وأحمد بوحسن	95/07/14
تحقيق كتاب «شرح الخزرجية في العروض» للشريف الغرناطي (ت 760 هـ).	عائشة البوحاميد	محمد عبدالاوي	95/07/14

موضــــوع الرسـالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
جدلية الأسطيقي والإيديولوجي في الرواية المغربية (نصوص «أوراق» ع. العروي، «مجنون الحكم» بنسالم حميش، «شروخ في المرايا» ع. ك. غلاب نموذجا).	علي برعيش	المصطفى الشاذلي وأحمد بوحسن	95/07/14
المناقب الصوفية : نموذج مناقب الصوفي أبي يعزى مقاربة تحليلية ظاهراتية.	نور الهدى أزطيط	فاطمة طحطح وسعيد يقطين	95/07/14
شعر عثمان جوريو : جمع ودراسة.	حبيبة شيخ عاطف	عباس الجراري	95/10/24
السيرة الذاتية : أنماط السرد وأنساق الميثاق السيرذاتي : العربي العياشي نموذجا.	عبد العزيز بالقاضي	إدريس بلمليح	95/10/25
أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي حياته وآثاره.	عبد الرحمان بناتة	ثريا لهي	95/11/03
شعر الشيب والشباب في العصر العباسي.	ماركة بنمختار	محمد عبدالاوي	95/11/29

ب ـ اللسانيات

موضــــوع الرسـالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
حدود التأويل في الأبحاث السيميوتيكية واللغويات التصويرية.	عبد الله لمين	أحمد العلوي	95/02/03
مظاهر التجديد اللغوي في المعجم العربي الحديث : معجم «الرائد» لجبران مسعود نموذجا.	نادية عقيل	بوشتى العطار	95/02/15
معجم المعاني.	مينة العطار	ع. القادر الفاسي الفهري	95/03/22
بنية «كان» في اللغة العربية.	رشيدة العلوي كمال	عبد القادر الفاسي الفهري	95/04/07
النقد المعجمي العربي الحديث تنظيرا وتطبيقا.	زهرة نكي	عبد العلي الودغيري	95/05/24
دراسة وظيفية للبنيات الأموية من خلال متكلم أمازيغي من منطقة ميدلت.	سعود طالبي	أحمد العلوي	95/06/02
«إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس» لابن الطيب الشرقي (ت 1170 هـ) : من باب الثاء إلى باب الخاء ـ وتقديم وتحقيق.	إبراهيم بلعيدي	عبد العلي الودغيري	95/07/20
استعمال آلية المجاز في الممارسة التأويلية عند الزمخشري من خلال «الكشاف».	عبد العزيز زيدي	ع. ع. الودغيري وع. ع. حليلي	95/11/01
التحجر في اللغة العربية ـ مقاربة وظيفية.	أحمد شناعي	أحمد العلوي ومحمد السيدي	95/11/14

ثانياً : اللغة الفرنسية وآدابها

1 ـ الرسائل المناقشة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
18/09/95	Abdelfettah KILITO	Fatima Zohra DINIA	Le merveilleux dans les romans de Gaston Leroux.
21/09/95	Abdelfettah KILITO	Sanaa ZELLOU	Le secret généalogique dans la série des *Mousquetaires* d'Alexandre Dumas.
20/10/95	Mohamed ESSAOURI	Youssef OUAHBOUN	Baudelaire et l'art : critique d'art et création poétique.
15/11/95	A. Alaoui M'DAGHRI	Taoufik RAOUKI	Le point de vue dans *Topographie idéale pour une agression caractérisée* et *Le vainqueur de coupe* de Rachid Boudjedra.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
28/06/95	Ahmed El MOUTAOUAKIL	Leyla EL BAAJ	La négation en arabe : approche fonctionnelle.
28/06/95	Ahmed El MOUTAOUAKIL	Bahija LYOUBI	Les énoncés directifs : éléments pour une approche fonctionelle.
12/07/95	Ahmed BOUKOUS	Mohamed MELIANI	Formation de l'adjectif en arabe marocain: approche prosodique.

2 ـ الرسائل المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
21/04/95	Mohamed BEKKALI YEDRI	Karima TOUNSI	Maurice Le glay et la naissance du mythe berbère.
05/07/95	Abdallah MEMMES	Driss KOURCH	L'écriture du délire dans l'œuvre de R. Boudjedra.
05/07/95	Mohamed BEKKALI YEDRI	Abdellah HACHIMI	Du politique au mythique dans la *Trilogie berbère* de Barrère-Affre.
05/07/95	Driss BELLAMINE	Karima ILARZEG	La poétique de l'engagement dans *L'étreinte du monde*de Abdellatif Laabi.
05/07/95	Abdallah MEMMES	Touria OUASSAT	L'interculturalité dans les textes de Driss Chraïbi.
05/07/95	Mohamed BEKKALI YEDRI	Rabia GHARNIT	Littérature et colonisation, le cas des frères Tharaud.

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
05/07/95	Abdallah MEMMES	Bouchra BENRAHHAL	La modernité de l'écriture chez Rachid Boudjedra.
19/10/95	Abdelfattah KILITO	Meryem SERRAJ	La nuit dans l'œuvre de Cioran.
01/11/95	Drisss BELLAMINE	Abdelhakim MOUCHERIG	Rythme et prosodie dans *Alcools et calligramme* de Guillaume Apollinaire.
01/11/95	Drisss BELLAMINE	Abdelhak NAJIB	La dialectique de la plurarité et de l'unité dans l'œuvre poétique de René Char.
05/07/95	F. BENZAKOUR et H. SKIK	LAJILI Leïla NAJIB	
21/11/95	Khadija MOUHCINE	Ahmed KHALLOUKI	Les troubles interactionnels dans le drame beckettien : étude structurelle et interprétative.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
20/01/95	A. Alaoui M'DAGHRI	Latifa EL HADRATI	Enquête sur les textes littéraires destinés à la jeunesse marocaine.
31/01/95	A. Alaoui M'DAGHRI	Abdelghani FENNANE	Intertextualité et interculturalité dans le paratexte du roman khatibien *Le livre du sang, Un été à Stockholm* et *Triptyque de Rabat*.
05/05/95	Ahmed El MOUTAOUAKIL	Jamal ALAMJAD	Pragmatique et prosodie en grammaire fonctionnelle : l'expression suprasegmentale de la force illocutionnaire et des fonctions pragmatiques.
19/05/95	El Houssaïne MOUJAHID	Samira MALAKI	Analyse syntaxique du syntagme prépositionnel dans la grammaire modulaire.
23/06/95	Boujamaa ELAKHDAR	Abdelilah JOUBAIR	La préfixation en français.
05/07/95	Fouzia BENZAKOUR	Mohamed SGUENFLE	La métaphore dans la littérature berbère - Approche pragmasémantique.
05/07/95	F. BENZAKOUR et H. SKIK	Leïla LAJILI	Les particularités lexicales du français en Tunisie.
21/11/95	Khadija MOUHCINE	Ahmed KHALLOUKI	Les troubles interactionnels dans le drame beckettien : étude structurelle et interprétative.

ثالثاً : اللغة الإسبانية وآدابها

1 ـ الرسائل المناقشة

الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
28/06/95	Oumama AOUAD	Younès GNAOUI	Dialectica del Espacio en la Narrativa de Julio Cortazar.
12/09/95	Oumama AOUAD	Rachid AZHAR	La dinamica de la transgresión en la novelistica de Reinaldo Arenas.

2 ـ الرسائل المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
05/07/95	O. AOUAD y F. BENLABBAH	Abderrahman LAAOUINA	El imaginario femenino en la poesia española actual.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
10/02/95	Abdesslam OKAB	El Hassan BOUTAKKA	Lecture semiotica de tres novelas de Jésus Ferrero : *Belvir Yin, Lady Pepa* y *Alis el Salvaje*.
01/03/95	Abdesslam OKAB	Mohamed ED-DAKAMER	Sintaxos Teresiana.
28/04/95	SIMON Lévy	Moulay Rchid ALAOUI	Las hablas arabes de Tafilalet.
01/06/95	Abdesslam OKAB	Jamal OUAZOURASSEN	Uso y dimension semantica de las figuras estilisticas en la narrativa de Jésus Ferrero.
01/06/95	Abdesslam OKAB	Abdennasseur BENKADDOUR	Las imagenes en Santa Teresa de Jésus : descripción estilistica y analisis semantico.
05/07/95	Abdesslam OKAB	Lahoucine EL-GHAZOUANI	Estudio semantico comparativo contrastivo de la expresion amorosa en *El libro de Buen Amor* del arcipreste de Hita y en *El collar de la Paloma* de Ibn HAzm de Cordoba.

رابعاً : اللغة الإنجليزية وآدابها

1 ـ الرسائل المناقشة

اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
27/01/95	Jilali SAIB	Abdellatif BOUHLAL	Spirantization in Tashelhyit Berber : Diachrony and Synchrony.
02/06/95	Abderrafii BENHALLAM	Abdellah ADNOR	Stress Assignment in Idaw Tanane's Tashlhit : A Metrical Approach.
27/06/95	Jilali SAIB	Mohamed Réda BERNOUSS	A Non-Concatenative Approach to Moroccan Arabic Verb Morphology : Derivation.
21/07/95	Abderrahim YOUSSI	Abdelaziz EL HADRI	Literary Arabic Idioms a Functional and Semiolinguistic Study.
23/11/95	Abderrahim JAMARI	Amina EL FALH	The Syntax of Expletives in Standard Arabic.

2 ـ الرسائل المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
23/02/95	Mohamed EZZROURA	Mohamed DAOUDI	Apocaliptic Tones in Modern Critical Theory : A Study in Postmodernism.
23/06/95	Taïb BENGHAZI	Nadira REGRAG	The Problematic of Identity and the Articulation of Postmodern and Postcolonial Issues in the Works of J.M. Coetzee.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
16/02//95	Abderrafii BENHALLAM	Daouia LAABOUDI	Syllable Structure and Syllable Related Issues in Moroccan Arabic : Dialect of Beni-Zeroual.
21/02/95	Jilali SAIB	Rdouan FAIZI	Stress and Syllabicity in the Goulmima Dialect of Berber.
21/02/95	Jilali SAIB	Youcef HDOUCH	Some Aspects of Extraprosodicity in Tamazight Berber an Optimality Theoretic Approach.
26/05/95	Abderrahim JAMARI	Mohammed EL GHAZI	A G.B. Approach to Negation : A Study of Sentential Negation in Literary Arabic.
14/07/95	Jilali SAIB	Rajar SALMI	The Impact of Arabicization on the Speech of the Semi-Literate and Illiterate Moroccan.

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
17/07/95	Abderrahim JAMARI	Naïma OMARI	Sentential Negation in Tashelhit : A G.B. Approach.

سادساً : اللغة الإيطالية وآدابها

الرسائل المسجلة

أ ـ الأدب

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
30/10/95	Mario PAZZAGLIA	Abdelkrim EL ALAMI	Ricerche su Dante e la Cultura Islamica.
30/10/95	Fabrizio FRASNEDI	Mohammed MOKTARY	Titolo : Il Lettore e il Senso. Teorie novecentesche dell'interpretazione letteraria.
30/10/95	Brubo BASILE	Abdelouahab ADDAB	Le Crociate nella Gerusalemme Liberata : Fonti i Poesia.
05/11/95	Mario MANCINI	Zakaria BOUDHIM	Verso una nuovo ottica del rapporto Dante e la cultura arabo-islamica.
05/11/95	Andrea BATTISTINI	Khadija ROCHDI	Il Gioco dell'intertestualita nelle opere di Italo Calvino.
20/11/95	Andrea BATTISTINI	Najat BENABBOU	Verso un'analisi psico-temporale delle *Ultime Lettere di Jacopo Ortis* di Ugo Foscolo.
20/11/95	Luciano BOTTONI	Hicham ZINE-EDDINE	Le figure Femminili -Nelle Commedie di Carlo Goldoni.
14/12/95	Niva LORENZINI	Mohamed CHAFIK	Pasolini e il Mondo Arabo.

ب ـ اللسانيات

Date	Professeur	Chercheur	Sujet de thèse
30/10/95	Fabrizio FRASNEDI	Ali DAHBI	L'analisi e l'interpretazione della Metafora nell'opera di B. Fenoglio : Una questione privata.
28/11/95	Fabrizio FRASNEDI	Laïla MOUNIR	Il Predicato : Che cosa controlla il verbo e cosa non controlla (un confronto tra la lingua italiana e la lingua araba).

سابعاً : الدراسات الإسلامية

1 ـ الرسائل المناقشة

موضـــوع الرسالـــة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
اختلاف القراء والنحاة في توجيه القراءات	إبراهيم سزيدي	التهامي الراجي	95/01/09
«شرح رسالة التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد» لأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي المراكشي الضرير (ت 520هـ) لأبي عبد الله محمد بن خليل السكوني ـ تقديم وتحقيق.	محمد عزيز الوكيلي	محمد أمين الإسماعيلي	95/01/16
التغريب وانعكاساته على المؤسسات الاجتماعية والثقافية في المجتمع المغربي المعاصر.	محسن ابن زاكور	محمد بلبشير	95/01/20
مسؤولية المرأة في الإسلام.	عبد الحميد بلحاج	فاروق حمادة	95/01/24
القديم والجديد في فقه الشافعي.	لمين الناجي	محمد الروكي	95/01/26
«شرح طيبة النشر في القراءات العشر» للإمام النويري باب فرش السور ـ دراسة وتحقيق.	رشيدة ناصر رشيدة	التهامي الراجي	95/01/30
ابن القيم الجوزية وجهوده في السيرة النبوية.	عبد الحفيظ بنبراهيم	فاروق حمادة	95/01/31
«تحرير مسألة القبول على ما تقتضيه قواعد الأصول والمعقول» لأحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي (ت 1156هـ) ـ دراسة وتحقيق.	الحبيب عيادي	أحمد الريسوني	95/02/09
الونشريسي فقيها.	فريدة قداوي	التهامي الراجي	95/02/09
سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع ولاة الأمصار.	سعيد الوالي	عصمت دندش	95/03/07
مكانة القراءات من خلال منهج القراء في التفسير.	الميلودي بوكرمة	فاروق حمادة	95/03/09
يحيى بن سلام ومنهجه في التفسير في الغرب الإسلامي (القرن الثاني الهجري).	سلوى بنكروم	التهامي الراجي	95/03/21
المناهج التأويلية بين الشيعة الإمامية الإثنا عشرية والأشاعرة.	محمد الخراق	محمد أمين الإسماعيلي	95/04/05
فقه السنة عند أهل الظاهر وأهل التأويل.	عبد الحميد بونعيم	فاروق حمادة	95/04/17
قسم المغازي من «شرح الشيخ الطيب ابن كيران على ألفية العراقي «في السيرة النبوية» ـ تقديم وتحقيق.	محمد بن جبور	محمد يسف وم. أ. الإسماعيلي	95/04/17
الوجوه الإعرابية في القرآن وأثرها في اختلاف الفقهاء.	عبد الرزاق الوركيني	محمد الروكي	95/04/27
الدراسات الأصولية في الغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.	مصطفى لخصر	التهامي الراجي	95/04/28
المنطق وفقهاء الغرب الإسلامي.	ميمون باريش	طه عبد الرحمن ومحمد بلبشير	95/05/29
كتاب «الأحكام الشرعية الوسطى» لأبي محمد عبد الحق عبد الرحمن الإشبيلي المعروف بابن الخراط (510ـ581 هـ) ـ دراسة وتحقيق.	إبراهيم الشيخ راشد المريخي	إبراهيم بن الصديق وفاروق حمادة	95/05/30

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
التربية الإسلامية ومعوقات التجديد الإجتماعي بالمغرب.	حميد عشاق	محمد بلبشير	95/06/02
القواعد الفقهية من خلال «المغني» لابن قدامة المقدسي.	عبد الواحد الإدريسي	محمد الروكي	95/06/02
القاضي برهان الدين بن فرحون وجهوده في الفقه المالكي	نجيبة أغرابي	محمد الروكي	95/06/16
ابن القيم ومنهجه في نقد السنة.	عبد الفتاح صديق	محمد بلبشير وزين العابدين بلافريج	95/06/19
أبو عمرو السلالجي وفكره العقدي دراسة لجانب من الفكر الأشعري بالمغرب من خلال «البرهانية» وشروحها.	علال البختي جمال	محمد أمين الإسماعيلي	95/06/20
«معجم غريب ما في تفسير الجواهر الحسان» للشيخ أبي زيد عبد الرحمان الثعالبي (ت 885 هـ) ـ دراسة وتحقيق.	محمد بنيطوا	التهامي الراجي	95/06/23
الفقه الإسلامي وتطبيقاته بالمغرب خلال فترة الحماية.	محيي الدين البقالي الطاهري	محمد بلبشير ومحمد الحبيب التجكاني	95/06/26
«القصد النافع لبغية الناشئ والبارع في شرح الدرر اللوامع» لأبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم الخراز (ت 718) ـ دراسة وتحقيق.	نعيمة شابلي	التهامي الراجي	95/06/26
الرازي أصوليا من خلال (التفسير الكبير).	لخضر زحوط	التهامي الراجي	95/06/27
أثر علم المنطق في الدراسات العقدية عند شيخ الإسلام ابن تيمية.	عبد القادر بطار	محمد أمين الإسماعيلي	95/06/27
منهج الإستقراء عند الأصوليين والفقهاء.	عمر جدية	محمد الروكي	95/06/28
القاضي عياض وأثره في الدراسات الأصولية	محمد بنوار	التهامي الراجي	95/06/29
أبو عبد الله المقري وقواعده الفقهية.	امحمد أكناو	محمد الروكي	95/07/03
علم الجرح والتعديل في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري : أعلامه ومناهجه.	عائشة شهيد	فاروق حمادة	95/07/14
دراسة منهجية لعقائد اليهود والنصارى في القرآن والسنة.	مريم أيت أحمد وعلي	قاسم الحسيني	95/07/13
«التمييز لما أودعه الزمخشري من الإعتزال في تفسيره للكتاب العزيز» تأليف أبي علي عمر بن محمد السكوني (ت 717 هـ) ـ تقديم وتحقيق.	الزهراء الخوتاري	م. أ. الإسماعيلي	95/09/21
تحقيق نوازل سيدي محمد ابن المختار ابن الأعمش.	محمد الأمين ولد الشيخ محمد الحافظ	محمد أمين الإسماعيلي	95/11/02
تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال.	عبد المجيد المرزوقي	أحمد أبو زيد	95/11/22
كتاب «الكوكب الدري المستخرج من كلام النبي محمد المصطفى المكرم ﷺ» ـ دراسة وتحقيق.	محمد يماني	فاروق حمادة	95/12/15

موضــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستــاذ المشــرف	التاريــخ
أصول الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ـ دراسة مقارنة مع أهل السنة.	خالد زهري	أحمد الريسوني	95/12/15
المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري نشأةً وخصائصَ.	مصطفى الهروس	فاروق حمادة	95/12/18
الاقتصاد الإسلامي وتغير قيمة النقود.	عبد المجيد سكي	محمد الروكي	95/12/18

2 ـ الرسائل المسجلة

موضــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستــاذ المشــرف	التاريــخ
ابن رجب الحنبلي ومنهجه في علل الحديث.	الحسين محمد حسين	فاروق حمادة	95/03/15
ابن تيمية ومنهجه في مقارنة الأديان السماوية.	عبدو علي الأحمد	محمد أمين الإسماعيلي	95/03/15
«شرح محمد سالم بن الما للكوكب الساطع» ـ دراسة. وتحقيق.	سيدي محمد أحمد بن الكاري	محمد الروكي	95/03/15
علاقة الكليات بالجزئيات في الاستدلال الشرعي.	كمال راشد	أحمد الريسوني	95/03/15
الدرس العقدي في القرآن المدني ـ دراسة منهجية تحليلية.	المصطفى ولد البشير	محمد أمين الإسماعيلي	95/03/15
الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن والتفسير.	الحسن بن سوردي	أحمد أبو زيد	95/03/15
التخريج المذهبي أصوله ومناهجه.	نوار بن الشلي	محمد الروكي	95/03/15
الفكر الإسلامي بالمغرب بين التبعية والاستقلالية عن المشرق : من الفتح إلى أواخر العهد الموحدي.	الحبيب نيوس	قاسم الحسيني	95/06/19
المصطلحات الأصولية في كتاب «الكليات» لأبي البقاء الكفوي ـ دراسة مقارنة.	تيميتي هاسندو	أحمد الريسوني	95/06/23
التفسير الموضوعي للقصص القرآني على ضوء الوحدة الموضوعية للسورة.	مليكة نايت لشقر	أحمد أبو زيد	95/06/23
«كتاب مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان» تأليف العالم الجليل السلطان المولى سيدي محمد بن عبد الله ـ دراسة وتحقيق.	آمنة أحمد عبد الله	قاسم الحسيني	95/06/23
المشروع الحضاري الإسلامي بين القدرات والعقبات في الحقل الاجتماعي: التربية نموذجا.	عبد الله هاشمي علوي	قاسم الحسيني	95/06/23

ثامنا : التاريخ

1 ـ الرسائل المناقشة

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
جهود الإسلام في تمدين البشر وترقية الإنسانية (الجزء الخاص بالسيرة النبوية) لأبي بكر بن الطاهر زنيبر (ت 1376 هـ) ـ تقديم وتحقيق.	فائزة البوكيلي	أحمد التوفيق ومحمد المغراوي	95/06/21
قيادة حاحة وقيادة متوكة في أعوام الستين في القرن 19 القبائل والسلطة (1280/1863ـ1290/1873).	محمد زرهوني	أحمد التوفيق	95/07/06
مساهمة في دراسة تاريخ موريتانيا خلال النصف الأول من القرن العشرين (1900ـ1934).	نور الدين أسريدي	رهرة طموح وع. الواحد أكمير	95/07/10
«البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأساري من يد العدو الكافر» لمحمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي (ت 1213 هـ) ـ دراسة وتحقيق.	مليكة الزاهدي	محمد المنصور	95/12/18

2 ـ الرسائل المسجلة

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
الجالية اليهودية في منطقة سوس.	عبد الله لغمائيد	محمد كنبيب	95/01/20
تطور التغذية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : المواد والوسائل والمناطق.	عبد العالي احميتي	محمد حمام	95/04/19
تأثير الحضارة المصرية على شمال إفريقيا القديمة إلى غاية الحقبة الرومانية.	الفلاح ألطاف	مولاي رشيد المصطفى	95/06/05
المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن XV إلى القرن XVIII: إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي في العصر الحديث.	الحسين عماري	مصطفى ناعمي وزهرة طموح	95/06/05
الثروة النباتية في شمال إفريقيا القديم.	منير الحاج الطاهر	حليمة غازي	95/06/05
تاريخ الغرب الإسلامي من خلال تواريخ وجغرافيات مشرقية مؤلفة قبل نهاية القرن الخامس الهجري : نصوص ودروس.	عبد الرزاق أبو الصبر	أحمد التوفيق	95/06/05
الإمتيازات الأجنبية في المشرق والمغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.	أحمد دياب	محمد كنبيب	95/06/14
البحار ودورها في التاريخ الإغريقي خلال العصر القديم من ق 8 ق م إلى ق 4 ق م.	فريات المحجوب	المصطفى مولاي رشيد	95/07/14
مؤسسات التعليم والبحث بالمغرب خلال فترة الحماية مقاربة تاريخية.	كمال حسن	محمد كنبيب	95/07/14

موضــوع الرســالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
مساهمة في دراسة تاريخ زاوية آسا.	عمر ناجيه	مصطفى ناعمي وز. طموح	95/07/18
الأطباء الأجانب في مغرب القرن التاسع عشر.	رشيد العزيزي	محمد أمين البزاز	95/12/07
بلاد جبالة تحت الحماية الإسبانية من السنة 1912 إلى السنة 1956.	أحمد الشايخي	عبد العزيز حلوق التمسماني	95/12/13
بلاد المغرب والأندلس والسودان من خلال مخطوط : «أنس المهج وروض الفرج» للشريف الإدريسي (493 هـ/560 هـ) ـ دراسة وتحقيق.	بوحي الوافي	محمد المنوني ومحمد . المغراوي	95/12/18

تاسعاً : الجغرافية

1 ـ الرسائل المناقشة

موضــوع الرســالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
السكن والسكان الهامشيون الأحياء والمراكز الهامشية بمدينة سلا.	عبد النبي كندال	محمد الغوات	95/03/10
دراسة جيومرفلوجية لمنطقة تنانت.	محمد اسنينات	أحمد الغرباوي	95/04/25
الهامش الجنوبي الشرقي لسهل الغرب التوضعات السطحية بين سد القنصرة وسيدي سليمان ـ دراسة جيومرفلوجية.	حنيفة جابري	ا. الفاسي و ع. الله العوينة	95/04/26
«Apport de la télédétection du système d'information géographique dans la cartographie des formes d'érosion dans le bassin versant de Telata - Tangérois».	عماد فنجيرو	عبد الله العوينة وعبد العزيز مرزوق	95/06/27
الحوض الأعلى والأوسط لواد الزات (أطلس مراكش) الحركية الطبيعية وتدبير الإنسان.	نعيمة الزباق	عبد الله العوينة	95/11/16
النهاية الغربية لأطلس مراكش (منطقة امي نتانوت) ـ دراسة التركات الرباعية ومظاهر التشكيل الحالي.	فاطمة أوهاب	أحمد الغرباوي	95/11/17

2 ـ الرسائل المسجلة

موضــوع الرســالــة	اسـم الباحـث	الأستـاذ المشـرف	التاريـخ
التحولات المجالية بالجنوب الغربي لظهير الرباط ونمو المدن الصغرى : حالة مدينتا الصخيرات وبوزنيقة.	محمد الواضح	محمد الرفاص	95/06/26

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
مراكز النشاط بين قضايا التنظيم والتهيئة الحضرية: مثال (حالة) الناظور والمراكز التابعة.	مريم سلطان	محمد بلفقيه	95/06/26
الحركية السكنية والتحولات السوسيومجالية: حالة خريبكة.	رجاء منير	محمد الرفاص	95/07/11
آليات وأشكال التوسع بمدينة تمارة : من الفوضى إلى التخطيط الحضري.	عبد العالي فاتح	محمد الرفاص	95/07/11

عاشراً : الفلسفة

1 ـ الرسائل المناقشة

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
القبيلة، الزاوية، المخزن.	رسيد بكاج	المكي بنطاهر	95/01/26
تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي.	يوسف احنانة	محمد عابد الجابري	95/05/16
النقد المعرفي والإيديولوجي عند ابن تومرت من خلال «أعز ما يطلب».	محمد اقويريرة	سالم يفوت	95/06/15
النفي : دراسة منطقية ولسانية.	يوسف تيبس	طه عبد الرحمان	95/07/12
مفهوم الحرية عند كانط.	علال كوزة	محمد سبيلا	95/10/25
الحداثة في فلسفة هيجل.	يعقوب ولد القاسم	محمد سبيلا	95/11/24
هيدجر والميتافيزيقا ـ بأي معنى تكون مجاوزة الميتافيزيقا ممكنة ؟	محمد طواع	سالم يفوت	95/12/19
الفلسفة المشرقية السينوية : أصولها ومضامينها المعرفية والإيديولوجية.	حمودي بن حمادي	سالم يفوت	95/12/21

2 ـ الرسائل المسجلة

موضوع الرسالة	اسم الباحث	الأستاذ المشرف	التاريخ
العلم والتقنية في الفكر الغربي المعاصر: نموذج هيدجر.	رشيدة السائحي	محمد سبيلا	95/02/02
الفكر التقليدي والفكر الحديث.	أسماء أوطاح	محمد سبيلا	95/02/02
الإنسان والحقيقة بين هوسرل وهيدجر.	السعيدة بدان	عبد الرزاق الدواي	95/04/11
علاقة اللغة بالأنطولوجية عند هايدجر.	يوسف العبوتي	محمد سبيلا	95/05/05
مفهوم المواطن في الفكر السياسي من خلال نصوص سبينوزا وجون لوك.	عبد الله الحوزي	محمد سبيلا	95/05/05
إشكالية المجتمع المدني بالمغرب.	محمد الغيلاني	محمد سبيلا	95/05/26

موضـــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستــاذ المشــرف	التاريــخ
النشأة التاريخية لإشكالية التقابل بين العقل والنقل في الفكر الإسلامي العربي القديم.	رضوان مرحوم	طه عبد الرحمن	95/06/01
العنف والطائفية : لبنان نموذجا.	محمد جلول ملحم	محمد سبيلا	95/06/23
الحداثة في علم الجمال : نموذج نيتشه وأدورنو.	عبد العالي معزوز	محمد سبيلا	95/06/30
إشكالية التأويل عند ابن رشد.	كيم جونغ	سعيد بنسعيد العلوي	95/07/04
السلطة من منظور التحليل النفسي ـ بحث في علاقة الرغبة بالسلطة عند فرويد.	المسن أسويق	محمد سبيلا	95/07/13
نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس يورغين.	فاطمة أميزي	محمد سبيلا	95/07/14
الأصول الفكرية والفلسفية لمفهوم حقوق الإنسان.	عبد الله المتوكل	محمد سبيلا	95/07/14
في دلالة الشعر عند هيدغر.	عبد الهادي مفتاح	محمد سبيلا	95/10/03
الحداثة الفلسفية عند فوكو.	مولود عباسي	محمد سبيلا	95/10/03
المنطق في «الخطابة».	محمد لوريقات	محمد مرسلي	95/11/06
ظاهرة الإعتقاد عند مرسيا إلياد.	محمد المحيفيظ	محمد سبيلا	95/11/21

حادي عشر : علم الاجتماع

1 ـ الرسائل المناقشة

مـوضـــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستــاذ المشــرف	التاريــخ
التحولات الإجتماعية وإشكالية تحديث المناطق القروية بالمغرب ـ دراسة ميدانية لمنطقة سيدي يحيى الغرب.	حمداش عمار	محمد جسوس	95/12/18

2 ـ الرسائل المسجلة

مـوضـــوع الرســالــة	اســم الباحــث	الأستــاذ المشــرف	التاريــخ
تكامل الأدوار في عملية التنشئة الإجتماعية بين الأسرة والمدرسة الأساسية في المجتمع الموريتاني.	شيخنا ولد أحمد موسى	محمد شقرون	95/02/07
مدى حضور عنصر اللعب كوسيط تربوي في الخطاب المدرسي المغربي.	ثورية جومالي	محمد شقرون	95/04/26
العلاقة بين الجنسين من خلال الأغنية الأمازيغية : نموذج أيت بوكاز.	لطيفة بلحوس	رحمة بورقية	95/04/26
الدور الإجتماعي الذي تلعبه الجمعيات الإسلامية نحو الجالية المسلمة ـ دراسة حالة.	محمد الطاهري	محمد شقرون	95/04/27
أثر عمل المرأة المغربية في تطور بنية الأسرة.	خالد بنطوجة	محمد شقرون	95/06/23

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
مساهمة في سوسيولوجيا الإتصال الشباب ووسائل الإتصال في تونس ـ دراسة ميدانية على شباب عين دراهم.	توفيق جميعي	محمد شقرون	95/06/30
التخطيط التربوي في النظام التعليمي المغربي.	نعيمة رشيح	محمد شقرون	95/07/07
الحركة الإجتماعية الحضرية بالمغرب ـ دراسة لحركتي مارس 1965 ويونيو 1981 بالدار البيضاء.	عبد العزيز الخمليشي	محمد جسوس	95/07/11

ثاني عشر : علم النفس

1 ـ الرسائل المناقشة

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
نسق تمثل الذات لدى المراهق المغربي وعلاقته بالوسط الإجتماعي ـ الثقافي.	رشيد ناجي	المصطفى حدية	95/04/21
أساليب التنشئة الأسرية وعلاقتها بالتفكير الإبداعي لدى الأطفال ـ دراسة ميدانية في الوسط الموريتاني.	سيد محمد الجكاني	مبارك ربيع	95/04/27
علاقات الإتجاهات نحو مركز المرأة بالتوافق لدى المراهقين : دراسة نفسية ـ اجتماعية ميدانية مقارنة.	محمد الكير	مبارك ربيع	95/06/29
اللعب والتكيف الزماني المكاني عند الطفل ـ دراسة تجريبيةمقارنة على بعض المعايير.	نادية التازي	مبارك ربيع	95/07/04

2 ـ الرسائل المسجلة

موضـــوع الرسـالـة	اسـم الباحـث	الأستاذ المشـرف	التاريـخ
دورة الأسرة في إعادة إدماج الفصامي ـ مداخل الحياة الجماعية.	عبد الصمد نبيل	المهدي البايض و ع. س. الداشمي	95/01/04
إدراك الحديث الجانح للخبرات المؤلمة في الطفولة وعلاقتها بميله للجنوح ـ دراسة نفسية اجتماعية بالوسط المغربي.	فاطمة السليماني	مبارك ربيع	95/04/11
الهوية وعلاقتها بالفشل الدراسي عند أبناء الجالية المغربية ببلجيكا.	زينبأدادا	المصطفى حدية	95/04/17
النوبة الهستيرية وعلاقتها بالحضرة.	مريم زينون	عبد السلام الداشمي	95/05/26
العلاقة المبكرة أم طفل : علاقة الحماية الزائدة أو الهجر والحرمان وظهور الذهان الطفلي.	بشرى لعبيدي	عبد السلام الداشمي	95/06/19
التواصل عند الأطفال المعاقين وعلاقته بالإندماج الإجتماعي : نموذج الصم والعمي.	خلاف جادر	المصطفى حدية	95/06/23
الإتجاهات المتصلبة وعلاقتها بالإستجابات التفاعلية ما بين جماعتين : وافدة ومستقبلة ـ دراسة نفسية اجتماعية لظاهرة الهجرة النسوية بمدينة تطوان.	خلود السباعي	مبارك ربيع	95/11/03

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الـربـاط

رسائل وأطروحات جامعية

Thèses et Mémoires

- نعيمة هراج التوزاني : الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1290–1311/1873–1894) مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، يناير 1979.
- سعيد بنسعيد : دولة الخلافة، دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، 1980.
- سالم يفوت : مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، 1981.
- عبد اللطيف الشاذلي : الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، 1982.
- أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إنولتان 1850/1912)، طبعة جديدة، جزءان في مجلد واحد، 1983.
- محمد مزين : فاس وباديتها (1549 ـ 1637 م)، جزءان 1986.
- مبارك ربيع : مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الإجتماعي، 1991.
- محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
- أحمد أبو زيد : التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، 1992.
- فاطمة طحطح : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، 1993.

□ محمد الروكي : نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، 1994.
□ عبد الرحمن المودن : البوادي المغربية قبل الإستعمار، 1994.
□ مصطفى الشابي : النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، 1995.
□ إدريس بلمليح : المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، 1995.
□ الحسين أفا : ديوان الحسن البونعماني، 1996.

□ Abderrahmane Taha : Langue et philosophie, essai sur les structures linguistiques de l'ontologie, Janvier 1979.
□ Ali Oumlil : L'histoire et son discours, essai sur la méthodologie d'Ibn Khaldoun, 1979.
□ Abdellatif Bencherifa : Chtouka et Massa, étude de géographie agraire, 1980.
□ Abdelkader Fassi Fehri : Linguistique arabe : forme et interprétation, 1982.
□ Ahmed Moutaouakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe, 1982.
□ Aziza Bennani : Monde mental et monde romanesque de Carlos Fuentes, 1985.
□ Larbi Mezzine : Le Tafilalt, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e^ et XVIII^e^ siècles, 1987.
□ Hassan Benhalima : Petites villes traditionnelles et mutations socio-économiques au Maroc, le cas de Sefrou, 1987.
□ Mohamed Berriane : Tourisme national et migrations de loisirs au Maroc (étude géographique), 1992.
□ Ahmed Chaouqi Binbine : Histoire des bibliothèques au Maroc, 1992.
□ M'Hamed Jadda : Bibliographie analytique des publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines (1915-1959), 1994.
□ Mohammed Kenbib : Juifs et Musulmans au Maroc (1859-1948), 1994.
□ Mohammed El Medlaoui : Aspects des représentations phonologiques dans certaines langues chamito-sémitiques, 1995.
□ Bahija Simou : Les réformes militaires au Maroc de 1844 à 1912, 1995.
□ Mohammed Refass : L'organisation urbaine de la péninsule tingitane, 1996.
□ Mohammed Kenbib : Les Protégés, contribution à l'histoire contemporaine du Maroc, 1996.
□ Mohamed Ezroura : Criticism Between Scientificity and Ideology : Theoretical Impasses in F.R. Leavis and P. Macherey, 1996.

نصوص ووثائق

Textes et Documents

- □ محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، 1980.
- □ محمد بن تاويت : جهاز مقالة (أربع مقالات مترجمة عن الفارسية)، 1982.
- □ أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، 1984.

نصوص مترجمة

Traductions

- □ جورج ماطوري : منهج المعجمية، ترجمة وتقديم عبد العلي الودغيري، 1993.
- □ سوزان ميلار : صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845 – 1846، تعريب خالد بن الصغير، 1995.
- □ فوزي عبد الرزاق : مملكة الكتاب، تاريخ الطباعة في المغرب 1865 – 1912، تعريب خالد بن الصغير، 1996.

بحوث ودراسات

Essais et Etudes

- □ محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، 1991.
- □ أحمد الطريسي أعراب : الإبداع الشعري والتحولات الإجتماعية والفكرية بالمغرب، من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين للميلاد، 1992.
- □ أحمد المتوكل : آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، 1993.
- □ عمر أفا : النقود المغربية في القرن الثامن عشر، 1993.
- □ أحمد شوقي بنبين : دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي، 1993.
- □ المكي المروني : البداغوجية المعاصرة وقضايا التعليم النظامي، 1993.
- □ سعيد بنسعيد العلوي : أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، 1995.

- □ عبد المجيد القدوري : سفراء مغاربة في أوربا، 1910–1922، في الوعي بالتفاوت، 1995.
- □ فاروق حمادة : منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا وتحقيقاً، 1995.
- □ المكي المروني : الإصلاح التعليمي بالمغرب (1956 ـ 1994)، 1996.

- □ El Mostafa Haddiya : Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc, 1991.
- □ Fouzia Rhissassi, A textual Study of Thomas Hardy's **Life's Little Ironies**, 1994.
- □ El Mostafa Chadli : Sémiotique : vers une nouvelle sémantique du texte (Problématique, enjeux et perspectives théoriques), 1995.
- □ Ahmed Boukous, Société, langues et cultures au Maroc, 1995.
- □ R. Bourqia, M. Harras, D. Bensaïd : Jeunesse estudiantine marocaine, Valeurs et stratégies, 1995.
- □ Abdesslam Dachmi : De la séduction maternelle négative : étude des interactions familiales au Maroc, 1995.
- □ Daniel Nordman : Profils du Maghreb ; Frontières, figures et territoires (XVIII^{e}-XX^{e} siècle), 1996.

بيبليوغرافيا

Bibliographie

- □ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، جزءان : 1983، 1989.
- □ لجنة من أساتذة الكلية : مرشد الباحثين في قواعد إعداد النصوص للطبع وتصحيحها، 1986.
- □ لجنة من أساتذة الكلية : ببليوغرافية الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1990.

أعمال الندوات

Colloques

- □ اللقاء المغربي الأول للسانيات والسيميائيات، عروض ومناقشات، 1979.
- □ أعمال ندوة ابن رشد، 1981.
- □ أعمال ندوة ابن خلدون، 1981.

- أعمال ندوة البحث اللساني والسيميائي، 1984.
- أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، 1985.
- أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن XIX، 1986.
- أعمال ندوة المغرب وهولندة، دراسات في التاريخ والهجرة واللسانيات وسيميائيات الثقافة، 1988.
- أعمال ندوة الإمام أبي حامد الغزالي، 1988.
- أعمال ندوة العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، 1988.
- أعمال ندوة في الِاقتصاد الإسلامي، 1989.
- أعمال ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب :

الجزء الأول : السوسيولوجيا المغربية المعاصرة، حصيلة وتقويم، 1988.

الجزء الثاني : البحث الجغرافي بالمغرب، تقويم أولي، 1989.

الجزء الثالث : البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، 1989.

الجزء الرابع : اللسانيات الِاجتماعية (Langues et société) (باللغات الأجنبية)، 1989.

- الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1991.
- المغرب وألمانيا، 1991.
- الملتقى العلمي لمدينة طنجة :

طنجة في التاريخ المعاصر (1800 ـ 1956)، 1991.

طنجة في الآداب والفنون، 1992.

طنجة : المجال والِاقتصاد والمجتمع، 1993.

- التاريخ واللسانيات، النص ومستويات التأويل (مائدة مستديرة)، 1992.
- الفكر الفلسفي بالمغرب المعاصر، 1993.
- نظرية التلقي : إشكالات وتطبيقات، 1993.
- علم النفس وقضايا المجتمع المعاصر، 1993.
- دراسات فلسفية (أعمال مهداة إلى الأستاذ الطاهر وعزيز)، 1993.
- التحولات الِاجتماعية المجالية الحديثة في الأرياف المغربية، 1993.
- الزكاة وانعكاساتها في المجالين الِاقتصادي والِاجتماعي، 1994.
- مجالات لغوية : الكليات والوسائط، 1994.

- في ذكرى جرمان عياش، 1994.
- الإسطوغرافيا والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، 1994.
- المخطوط العربي وعلم المخطوطات، 1994.
- من قضايا التلقي والتأويل، 1995.
- الترجمة والتأويل، 1995.
- مدينة أبي الجعد : الذاكرة والمستقبل، 1995.
- المغارب في العهد العثماني، 1995.
- الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، 1995.
- التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، 1995.
- المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية، 1995.
- الشباب ومشكلات الاندماج، 1995.
- اللسانيات المقارنة واللغات في المغرب، 1996.
- الاجتهاد الفقهي، أي دور وأي جديد، 1996.
- دراسات في تاريخ العلوم والإبستيمولوجيا، 1996.
- اندماج الشباب وقضايا الهوية، 1996.

- Actes 6° colloque international de linguistique fonctionnelle S.I.L.F. 1979.
- Le Maroc et la Hollande : Etude sur l'histoire, la migration, la langue et la culture :
  Volume 1 : Première rencontre universitaire, 1988.
  Volume 2 : Deuxième rencontre universitaire, 1990.
  Volume 3 : Troisième rencontre universitaire : La recherche scientifique au service du développement, 1992.
- Quatrième rencontre universitaire : Le Maroc et la Hollande une approche comparative des grands intérêts communs, 1995.
- Le Maroc et l'Allemagne : Première rencontre universitaire, 1991.
- Identité culturelle au Maghreb, 1991.
- Le Maroc et l'Atlantique (Table ronde), 1992.
- Westermarck et la société marocaine, 1993.
- Montagnes et Hauts-Pays de l'Afrique, 1993.
- Mahdisme, crise et changement dans l'histoire du Maroc, 1994.
- Dialectologie et sciences humaines au Maroc, 1995.
- Maroc — Belgique : Première rencontre scientifique interuniversitaire, 1995.
- Cinéma, histoire et société, 1995.

- Marocains et Allemands, la perception de l'autre, 1995.
- Huellas Comunes y Miradas Cruzadas : Mundos Arabe, Iberico E Iberoamericano, 1995.
- L'Afrique du Nord face aux menaces écologiques, 1995.
- Maroc : Littérature et peinture coloniales (1912—1956), 1996.

المجلات

Revues

- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية : من العدد الأول 1977 إلى العدد العشرين 1995.
- Langues et Littératures : du vol I (1981) au vol. XIII (1995).
- Hespéris Tamuda : du Vol I (1960) au Vol. XXXIII, Fascicule unique (1995), + Vol. de l'année 1921 (réedition).

كلمة شكر

نشكر هيئة التحرير السادة الأساتذة الذين ساهموا في مراجعة بعض مواد ملف هذا العدد، وهم :

جامع بيضا	محمد مفتاح
عبد السلام بنميس	أحمد المتوكل
عبد السلام بنعبد العالي	محمد المغراوي
خالد بن الصغير	محمد سبيلا
عبد الجليل الهجراوي	ادريس السغروشني
المختار الهراس	علي صدقي أزايكو
سالم يفوت	عبد المجيد القدوري
محمد كنبيب	محمد الروكي
محمد المنوني	حليمة غازي

MAJALLAT KULLIAT AL ADAB

Parution annuelle



مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

رقم الايداع بالخزانة العامة 1977/1
الرقم الدولي الموحد : 1160 — 0851